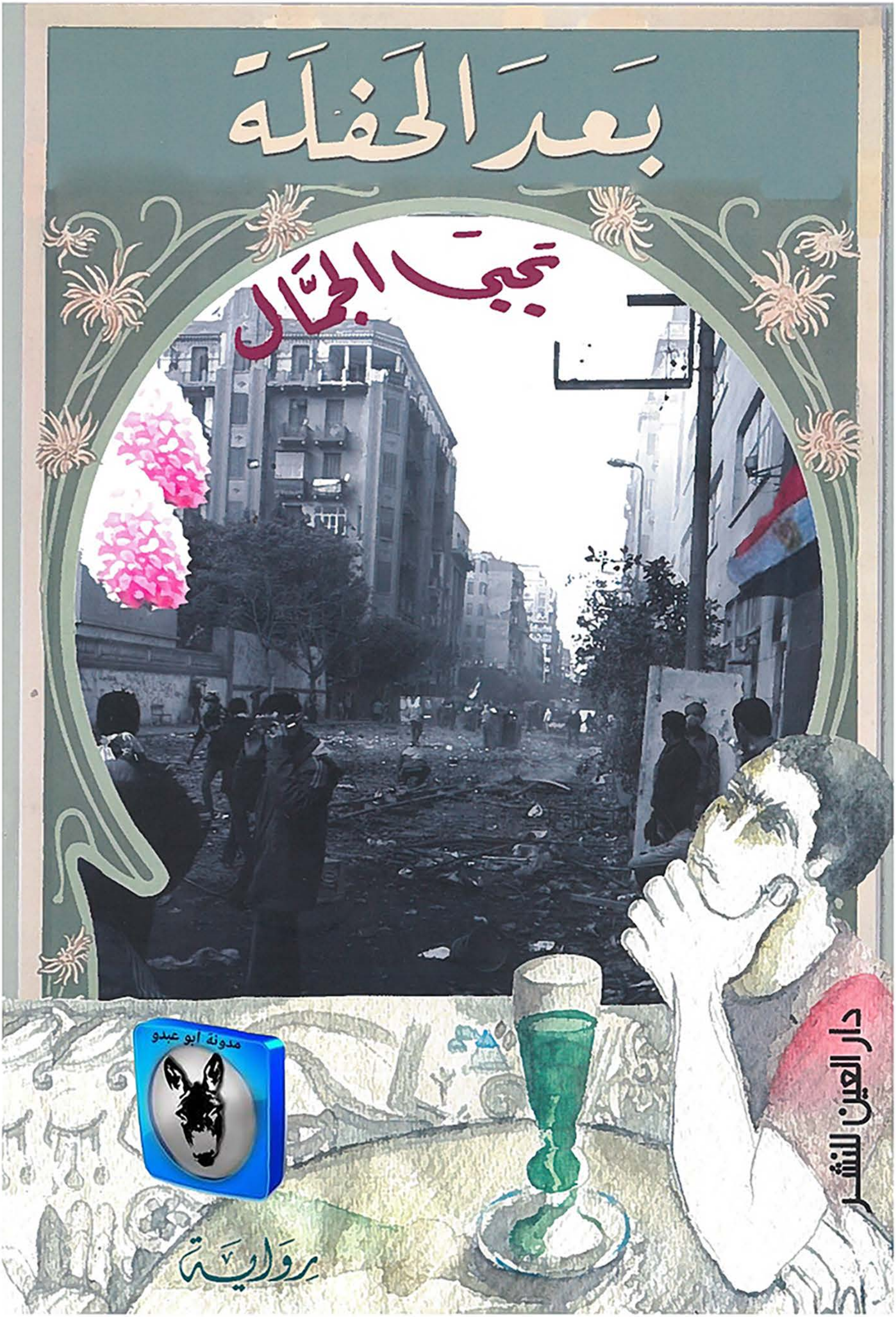


بعد الحفلة
يحيى الجمّال
رواية
دار العين للنشر
مدونة ابو عبدو

55 80

بعد الحفلة

بعد الحفلة

رواية

يحيى الجمال

الطبعة الأولى / ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف للفنانة: نجاح طاهر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥/١٥٤٣١
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 333 - 5

بعد الحفلة

روايــة

يحيى الجمال

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الجمال، يحيى

بعد الحفلة: رواية/ يحيى الجمال

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٦

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٣٣٣ ٥

١– القصص العربية

أ– العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٥٤٣١ / ٢٠١٥

إلى الذين دخلوا شارع يوسف الجندي ذات ليلة،

ولم يخرجوا منه حتى الآن.

الفصل الأول

وقف علي كمال إلى جانب روبير، صاحب العقار أمام المبنى الأثري، الذي يرجع إلى نهايات القرن التاسع عاشر متوسطًا الميدان الذي تتخلله الكنيسة الأثرية وتحيط به الأشجار من كل ناحية. نظرا معًا إلى لوحة الأرقام السرية عند المدخل ووجّه إليه روبير نظرة تتخللها سخرية ممزوجة ببعض التذمر، ثم أعطاه مفتاح الشقة قائلا: "المرة الجاية مش حاقدر أسيب شغلي وأجيلك، فيا ريت ما تنساش المفتاح تاني جوّة الشقة".

بدا الإحراج على عليّ، فأُضْيقت عيناه وابتسم ابتسامة مصطنعة، ثم سارع معتذرًا "معلهش لسه باعوّد نفسي على العيشة هنا. بقالي أسبوع بس واصل من القاهرة ولسه با وضّب الدنيا".

أومأ روبير إليه بتفهم دون أن يبدي أي إشارة تنم عن قبوله الاعتذار، فلم يرق ذلك لعليّ، وظنه تعاليًا منه، ولكن بعد إعادة

التفكير، نظر إليه وورد بخاطره أنه من الممكن أن يستغل الفرصة من أجل إذابة الجليد مع صاحب الشقة الذي يقابله الآن للمرة الثانية فقط، فسأله بود "تحب تيجي نشرب فنجان قهوة في الكافيه اللي قدام مبنى العمودية؟"

نظر روبير إلى ساعته سريعًا "ممكن بس مش حاقدر أتأخر. لازم أرجع الشغل الساعة واحدة بالكتير".

***

تخللت أشعة الشمس أوراق الشجر المحيط بالميدان، وتتابعت دقات جرس الكنيسة الاثنتي عشرة، ورغم برودة الجو التي أرغمت الناس على ارتداء ملابس شتوية فإن سكان باريس كعادتهم خرجوا إلى الشوارع في هذا اليوم للاستمتاع بضوء الشمس بعد أيام من العتمة والأمطار المتواصلة.

تمشَّى عليٌّ مع روبير حتى اتخذا مجلسًا في تراس كافيه لوڤيرني القريب من المنزل والمُطل على ميدان العمودية. أطل المبنى الذي يرجع إلى عام 1876 بكل هيبة على الميدان، وتناثر العشاق في أركانه الفسيحة، متخذين من سلالم مبنى العمودية العريضة مجلسًا، وتواصل المارة في التوافد على الكافيهات المجاورة، باحثين عن أماكن شاغرة في التراسات كي يستغلوا أشعة الشمس قبل أن تنزوي مرة أخرى لأجل غير معلوم.

بدأ روبير بسؤاله وهو يحتسي أول رشفة من فنجان الإسبريسو "مراتي بتقول لي إنك جيت هنا علشان تكتب رواية".

"أيوَه قررت آخد إجازة سنة من الشغل وآجي أتفرغ للرواية اللي باكتبها".

كان عليٌّ يدرك أنه يقول نصف الحقيقة فقط، فالإجازة قد بدأت قبل ذلك بالفعل بزمن ليس بالقليل. قبل مجيئه ولمدة عام، توقف عن العمل، مقضيًا معظم وقته في المنزل، وكان بالفعل قد عقد العزم أن يمضي وقته في الكتابة، ولكنه لم تكن لديه أي نية أن يرجع إلى مصر خلال سنة أو حتى عشر سنوات. قرر أن يقطع علاقته بماضيه في مصر ويبدأ من حيث كانت طفولته الأولى، باريس.

اعتدل روبير في جلسته بجسده الضخم مقارنة بعليّ "أخبار مصر إيه؟ إنت عارف إن أنا كنت شغال هناك، صح؟".

"إليزابيت قالت لي لمّا قابلتها إنك كنت شغال في بُنا المرحلة التانية من المترو".

"أيوَه حبيبي كنت عايش أربع سنين في المهندسين، واشتغلت على خط شبرا".

شدد روبير على كلمة حبيبي بلهجة مصرية صميمة ثم على شبرا بالرر، وابتسم لأول مرة ابتسامة كاملة وهو ينظر إلى عليّ

ثم طلب منه بكل بساطة سيجارة وأشعلها، وبدا شاردًا وهو يتأمل أعوامه في مصر من خلال الدخان ثم سأله: "أخبار مصر إيه؟ اتغيرت أوي؟".

لم تكن لعليّ رغبة حقيقية في أن يتحدث عن مصر، فأجابه مختصرًا "ما فيش جديد.. هيّ هيّ". وسأله "إنت وقفت في أنهي حتة؟".

فأجابه روبير بنبرة نوستالجيا "أنا مشيت مع بداية الألفية. آخر حاجة حضرتها كانت حفلة جان ميشيل جار، ليلة رأس سنة 2000 عند الأهرامات".

نظر إليه علي وأحس بألفة تجاه محدِّثه لأول مرة "كنت هناك أنا كمان". وبادل روبير ابتسامة قائلا "كانت ليلة.. العرض كان قوي أوي.." وبنبرةٍ لها معنى "الرموز الماسونية بالليزر فوق الأهرامات.. المثلثات المقلوبة" وضاحكًا مرة أخرى "تهت في الصحرا وأنا راجع أنا وصاحبتي وقتها".

ضحك روبير وهو يقول له "وأنا كمان. وبرضه كانت معايا صاحبتي وقتها.. تُهنا لحد الفجر ما طلع...." وناظرًا لعلي نظرة لها معنى "مش اليزابيت.. واحدة مصرية". قالها ووضع أصابع يده اليمنى الخمس فوق فيه وقبّلهم إشارة إلى جمال هذه الفتاة. ضحك

عليِّ لهذه الحركة المفاجئة وقال لروبير "إنت مصري وبتضحك عليَّ.. صح؟" فبادله روبير الضحك، ثم سأله بنفس الألفة:

"إنت كنت بتشتغل إيه قبل ما تيجي هنا؟".

"في العقارات".

"والسوق هناك اتأثر بأزمة 2008؟".

"مش قوي لأن شركات التنمية العقارية الكبيرة ما اعترفتش بالأزمة.. والناس فضلت تضارب ولا كأن فيه حاجة". وأضاف "وبعدين التمويل العقاري اللي اتسبب في الأزمة في أمريكا وأوروبا مش شغال جامد في مصر لسه".

"أنا فاكر وأنا في مصر كان همة كام شركة شغالين في التنمية العقارية ما فيش غيرهم وكام مشروع مش شغالين قوي بعد أزمة 97".

"لا الموضوع اختلف دلوقت". أجابه علي وهو يتنهد "فيه كومباوندات مالية الصحراوي والتجمع الخامس، بس المشكلة إن فيه عشوائيات برضه عمالة تزيد حوالين الكومباوندات دي وإعلانات عملاقة على طول المحور المؤدي للصحراوي عليها صور بنات وولاد شكلهم حلو وبيلعبوا جولف". قال جملته الأخيرة واعتلت

وجهه حمرة لم تفت روبير ونظر إلى علي باهتمام المتفحص الذي لا يعبأ أن يرى محدثه أنه يتفحصه. استشف من ملابس علي المهندمة وأسلوب حديثه أنه ليس مجرد شاب جاء إلى باريس على باب اللـه ليكتب.

"قصدك إن ممكن يحصل انفجار؟".

"أيوه" أجابه عليٌّ ومطّ شفتيه، كما كـان غالبًا ما يفعل عندما يستاء من كلمة تتردد على مسمعه أو كلمة يقولها وهو غير راضٍ.

تفحصه روبير أكثر محللا ما يقول مستأجر شقته بعقليته الهندسية التي لا تقتنع بما يصل إلى مسمعها من أول وهلة. كان روبير حاصلًا على الماجستير في إدارة الأعمال، وكذلك عليّ ولكن الأخير استنبط حدسه في الآخرين عن طريق ربط الشخص أمامه بشخص آخر يعرفه أو شخصية رآها في فيلم أو قرأ عنها في رواية، وليس عن طريق التحليل المباشر مثل روبير.

باغته روبير مبتسمًا بصراحة لم يتعوّد عليها علي في مصر "كلامك كلام واحد يساري، ولكن طريقتك ولبسك ما بيدُلوش على كده".

ابتسم عليّ بدوره ولكنه حافظ على بروده بعد أن أدرك سهولة التعرف على ما يمكن أن ينتظره من محدثه رغم أسئلته المباشرة واكتفى بأن يهز رأسه موافقًا، فتراجع روبير وأحس بفطنته أن الشخص الذي أمامه لن يستسلم بسهولة، ويكشف عن الأسباب الحقيقية لوجوده، وسارع بتغيير الحديث إلى مواضيع أكثر عمومية، مستغلا مرور فتاة شقراء فارعة الطول ترتدي زيًا قصيرًا وكعبًا عاليًا كشف عن سيقان ممشوقة، فنظر إليها وتبادل نظرة حميمية مع علي "تحب تاخد كاس الكير؟ الكافيه ده متخصصين فيه. بيقدموه قبل الأكل، وإحنا على وشك نتغدى. مش كده والّا إيه؟".

ثم مناديًا الجرسون العربي دون أن ينتظر رد علي "2 كير هنا وهات لنا منيو الأكل... ولا أقولك أحلى حاجة هنا البط بالعسل، إيه رأيك؟".

"هايل حاخد معاك كير وبط".

انبسطت أسارير روبير لتجاوب عليّ معه، حتى إن وجهه ذا القسمات الغليظة ظهر فيه شيء طفولي لم يره علي من قبل وهو ينادي الجرسون مرة أخرى ويقول له بحسم "ضيف نُص إزازة نبيذ أحمر... ناخد إيه؟... ميدوك؟.. خليها ميدوك".

***

وصل علي إلى باريس من مصر قبل لقائه الثاني بروبير بأسبوع واحد. كان وصوله في أول يوم من مايو 2010. أجّر غرفة في بنسيون لمدة خمسة أيام قريبًا من ميدان الأوبرا قبل أن يجد هذا المسكن. وجد الشقة من خلال الإنترنت على موقع "عالم صغير". وضعت إليزابيت زوجة روبير صور المنزل قبلها بأيام على الموقع، وكانت تتابع عملية الإيجار لانشغال زوجها بعمله. عندما رأى عليٌّ الصور وقع في حب هذا المنزل المكون من حجرتين فقط على الفور. استرعت انتباهه في الصور الأحجار الكبيرة المتراصة على حائط حجرة المعيشة، فأرسل على الفور رسالة إلى إليزابيت بالفرنسية يقول فيها الآتي:

"عزيزتي إليزابيت، أنا موجود في باريس لمدة سنة علشان أكتب رواية. واخد سنة إجازة. اتفرّجت على صور شقتكم من خلال الموقع، وأحب أزورها في أقرب وقت. حجمها مناسب بالنسبة لي لأنني عايش لوحدي.

ملحوظة: لا أمتلك كلبًا أو أثاثًا".

حجم الشقة لم يزد على 40 مترًا مربعًا بحمام ملاصق لحجرة النوم ومطبخ صغير داخل حجرة المعيشة.

حددت له إليزابيت اليوم التالي للزيارة. لم يكن يتوقع تلك السرعة في الاستجابة، وفي اليوم التالي توجه إلى شارع چيربير

حيث كنيسة سانت لامبير. حينما وصل إلى الميدان الصغير الذي تتوسطه الكنيسة، أحس على الفور أنه كان موجودًا في هذا المكان قبل ذلك. الكنيسة بدت له مألوفة، كذلك المبنى المقابل لها بمطعمه الصيني والشوارع المحيطة.

عندما صعد السلالم الخشبية الضيقة مع إليزابيت زوجة روبير ونظر من النافذة الطويلة على الميدان، وقعت عيناه على شجرة عارية إلا من بعض الأوراق التي بدأت تكسوها إيذانًا بفصل الربيع، فخيّل له أنه رأى هذه الشجرة قبل ذلك أيضًا.

إليزابيت بحسها العملي لاحظت على الفور نظرة الارتياح التي كست وجهه. إليزابيت كانت امرأة في منصف الثلاثينيات، وعلى قدر كبير من الحيوية، وكأي سيدة عملية قامت بعمل تقديم للبيت أفضل من أي سمسار عقارات: "العمارة مبنية من سبعينات القرن التاسع عشر.. الحي كله اتبنى في الفترة دي". قالتها بزهوٍ لم يفت علي فأومأ إليها برأسه ليظهر تحمسه. لو كانت دققت في وجهه أكثر بعض الشيء لكانت علمت أنها ليست في حاجة لذلك بعد أن حسم الأمر منذ أول مرة وقعت فيها عيناه على البناية القديمة.

لم يفت إليزابيت أن تؤكد له أن "مصاريف الصيانة والإنترنت كلها مغطاة داخل قيمة الإيجار".

"والإيجار كام في الشهر؟" سألها علي بحياء واضح.

ردت عليه بنفس الأسلوب العملي "1300 يورو في الشهر"، ثم مستكملة بحزم حتى تقطع أية فرصة للتفاوض "العقد مش رسمي، لأنه لو رسمي حيستلزم منك تقديم عقد عمل وشهادة بنكية... إحنا محتاجين شهر إيجار وشهر ضمان فقط".

فهم علي أن هذه فرصة لن تتكرر، وأنه ليس هناك مجال للتفاوض في أي شيء، فهو بالفعل لا يعمل في باريس وليس له عقد عمل أو حتى شهادة بنكية، ولكنه أيضًا لا يضمن أن يحصل على دخل الشهر القادم، ولكن هكذا الحياة: فرص ومخاطر. قد فعلها قبل ذلك وهذه ليست المرة الأولى... ربما تكون الأخيرة، فيجد نفسه في نهاية المطاف مُلقَى في سجن باريسي، ولكن أي شيء الآن أفضل من العودة لمصر.

"حاضر حاحضّر المبلغ وآجي بكره أقابل روبير علشان نخلص إجراءات التسليم".

***

تتابعت الأيام وعليٌّ يحاول أن يجد لنفسه طريقة مثلى يقضي بها وقته، فبدأ بتجهيز مسكنه وشراء مستلزماته من أدوات تنظيف، ووجد سيدة اسمها ماريا من رومانيا تحضر لتنظف البيت مرة في الأسبوع، بعد أن اشترطت عليه إليزابيت ذلك قبل أن ينهي اتفاقه مع روبير.

اشترك علي في صالة ألعاب ملاصقة للبيت في شارع ڤوجيرار. كان برنامجه اليومي كالآتي: يستيقظ نحو الساعة التاسعة صباحًا، فيجهز لنفسه فنجان قهوة إسبريسو ويدخن سيجارة صباحية أمام النافذة وهي مفتوحة على مصراعيها، ويتأمل الشجرة الملاصقة وهي تكتسي بالتدريج مع تقدم الربيع، ويشاهد الحمام المتجمِّع على سلالم الكنيسة وأحد القساوسة يُطعمه بفتات الخبز المبلول.

يتابع الأخبار الواردة من مصر عن طريق الصحافة الإلكترونية. (كان ذلك في البداية فقط ولكنه بالتدريج قرر أن ينغمس أكثر في أخبار فرنسا من مشكلات متعلقة بالرئيس السابق شيراك إلى نقصان في شعبية الرئيس الحالي ساركوزي ومحيطيه إلى ازدياد نفوذ اليمين المتطرف بقيادة ابنة مؤسسه مارين لوبين).

بعد ذلك، كان يرتدي ملابس الرياضة ويتجه أحيانًا إلى صالة الألعاب يقضي فيها ساعة ونصف الساعة يحمل الأثقال. أما في أيام أخرى فكان يستقل المترو ويذهب إلى حديقة الشان دو مارس بجانب برج إيفل، ويجري حول الحديقة إن كان الجو ملائمًا أو يذهب في ركن مع مدرب ملاكمة اسمه أنطوان من أصل أفريقي وحاصل على بطولة باريس منذ خمس سنوات، كان قد التقاه داخل صالة الحديد، فيقوم بالتدرب معه، وكان علي يمارس الملاكمة منذ أكثر من ستة عشر عامًا.

شحنة الغضب داخله كانت تحتاج لمائة مدرب مثل أنطوان، أو هكذا كان يظن.

عندما يفرغ من تدريباته، كان يتجه إلى أقرب مخبز لشراء ساندويتش ثم يرجع إلى منزله لأكله، وبعد أن يشعل سيجارته الثانية المصاحبة لكوب الكوكاكولا المليء بالثلج وقطعة ليمون، يرجع إلى أوراقه المفروشة على منضدة مستديرة خشبية تتوسط النافذتين الأساسيتين لغرفة المعيشة، ويفتح اللاب توب الماك ليشغل مجموعة من أغاني الچاز أغلبها من تأليف كول بورتر وغناء لويس آرمسترونج وإلا فيتزچيرالد.

عندما تبدأ الموسيقى كان عادة ما يسرح بعيدًا وهو ممسك بقلمه، يخط جملة ثم يستكمل سرحانه بعيدًا أحيانًا على أنغام أغنية "كل مرة نقول وداعًا" وأحيانًا أخرى على موسيقى أغنية "ساڤوي".

بلغ عليٌّ السابعة والثلاثين قبل أن يرحل إلى باريس، وترك وراءه حياة حافلة.

البناية الصغيرة التي انتقل إليها علي تكونت من ثلاثة أدوار. يقطن هو في الدور الأول ثم في الدور الثاني روبير وزوجته إليزابيت وابنهما الرضيع، وفي الدور الثالث سيدة في الثمانين من عمرها تدعى إلييت وتسكن وحدها. السلالم الخشبية الضيقة تبدأ من الحوش الصغير الذي يفصل هذا المبنى عن مبنى آخر مثيل

له يتصدر الواجهة، ويطل مدخله على الشارع الرئيسي المواجه لمدخل الكنيسة.

امتد النهار في هذا الوقت من العام وكذلك أوقات الظهيرة امتدت لساعات طويلة، فكان علي بعد أن يفرغ من كتابة بعض الصفحات، يطوف باريس من الضفة الغربية التي يسكن فيها إلى الضفة الشرقية. يتسكع على تراسات الكافيهات المختلفة يتأمل المارة ويكتب ملاحظاته ثم يقفز داخل سيارة مترو لتقلّه من الحي الخامس عشر إلى مونمارتر. كان له أصدقاء في باريس قبل ذلك ولكنه لم يحاول التواصل معهم، وفي يوم قرر أن يكسر وحدته فاتصل بإجلال.

صداقته لإجلال امتدت منذ عشرين عامًا. تصادقا وهما مراهقان. كانت إجلال مختلفة عن باقي الفتيات في نادي الجزيرة في بداية التسعينيات. كانت على قدر كبير من الأنوثة والاستقلالية وهي ما زالت في طور المراهقة. لم تضع أي اعتبار لمقاييس المجتمع وقتها. تخرج وقتما تريد وترجع منزلها متأخرة، ترفض الالتزام بمواعيد وتستهين بتصنيف الآخرين لها كفتاة مستهترة، لأنها لم تتخذ صاحبًا واحدًا بل بدلت كيفما شاءت، ولكنها تفوقت في دراستها ورحلت إلى لندن لتستكمل دراستها، ثم عملت هناك وصعدت في وظيفتها حتى أصبحت مديرة في شركة لإدارة المحافظ المالية، ولم تتزوج ولم ترجع إلى مصر إلا لزيارات قصيرة.

اتصل بها، فجاء صوتها مرحًا كالعادة: "علي! إزيك! إنت فين؟ إيه النمرة دي؟ إنت في فرنسا والّا إيه؟".

رد عليها علي بصوت عميق حاول التغلب على حماسته لسماع صوت دافئ من الماضي: "بقالي شهر تقريبًا. لميت حاجتي وقفلت الدنيا وركبت أول طيارة وجيت".

"خير ما عملت. شكلك كنت جبت آخرك خلاص بقالك كام سنة. آخر زيارة لي حسيت إنك كنت على وشك تقتل حد...".

قاطعها علي "ما تعدي عليَّ هنا؟ تعالي قضّي ويك-إند وغيري شوية".

"إمتى؟".

"الويك-إند اللي جاي لو تحبي".

ساد صمت قصير قبل أن تجاوبه.

"طيب خليني أشوف القُطُرة وحا رد عليك آخر النهار أو بكره الصبح".

"قولي لي علشان أعمل اللازم"، ثم محاولا إخفاء حماسه "أحجز في كام ريستوران حلوين كده والذي منه".

أمضى علي باقية يومه هذا في الاتصال بالقاهرة. شارك قبل

سفره مباشرة في عملية بيع منزل كبير بالمشاركة مع سمسار عجوز اسمه الحاج لطفي. (كان الحاج لطفي يقوم بعمليات الإيجار والشراء لعائلته منذ سنوات طويلة) كي يحصل على مبلغ يمكنه من الرحيل، وكلما تذكر أنه قام بهذه العملية بنفسه بعد أن اضطر أن يغلق مكتب العقارات الذي كان يمتلكه، كلما دفعه كبرياؤه أن يزداد إصرارًا على المغادرة وعدم الرجوع. اعتبر أن الظروف كلها كانت ضده قبل أن يرحل... ورغم صعوبة طباعه فإنه كان يعلم بداخله أن أسباب مغادرته ترجع إلى أكثر من ذلك، فهو لم يكن مرحبًا به في هذا المجتمع الذي أخذ يتطور في العشر سنوات الأخيرة بشكل لم يستوعبه، حيث ظهرت درجات جديدة داخل المجتمع مبنية على الولاء وعلى المصالح، وفشل في الاندماج داخل هذا المجتمع، أو لم يكن مرغوبًا به. كان لعلي ماضٍ سياسي لم يكن يتحدث عنه، وحاول أن يتناساه، وكانت كل خطواته واتصالاته مراقبة وكان يعلم ذلك أيضا.

***

حضرت إجلال بالفعل بعد أسبوعين من اتصاله بها. انتظرها أمام مسكنه بعد أن اتصلت به وأبلغته أنها على وشك الوصول من محطة الشمال مستقلة سيارة أجرة. كانت ترتدي فستانًا قصيرًا وكعبًا عاليًا أبرز أردافها. نظرت إليه بعينيها شبه المغلقتين وشفتيها المكتنزتين، ثم، ودون أن تحييه، قالت له باستهتار وعيناها تلمعان

"مش حتشيل الشنط فوق؟ ياللا بقى نفسي في كباية نبيت حلو وسيجارة".

***

استلقى عليٌّ إلى جانب إجلال في زحام حديقة لوكسمبورج. سطعت الشمس في السماء فبدا كل شيء واضحًا وعمت على الجموع فرحة غير مسببة تشوبها رغبات غير محققة.

تشابكت أيديهما وهما يحدقان في سماء باريس الزرقاء ثم سألها "فاكرة لما عديت عليكِ في المدرسة أول مرة؟".

أجابته بالإنجليزية "أيوه طبعًا، بعربيتك الفيات الـ 128. كنت مشغل چيم موريسون بصوت واطي قوي" ثم أخذت تضحك بسخرية فضحك علي بدوره عندما تذكر هذا اليوم، ثم أضاف "ما كنتش عارف إيه نِظامِك.. بتسمعي الدورز والّا حتطلبي حاجة فانكي عن كده.. ما كانش عندي غير تلات شرايط كاسيت في العربية".

"أيوه كان عندك ليد زيبلين، پينك فلويد، والدورز".

"شريط پينك فلويد كان بيسفّ".

"كان اسمه إيه الولد اللي جبته معاك يوميها ده؟".

"كان اسمه كازانوفا.. سمّيناه كازانوفا لأنه كل ما يشوف دادا

في النادي جاية بعيال يخش عليها ويقول إنه عايز يتعرف على الكاماريرا قال.. كل ما يقول كلمة كاماريرا دي كنت أنا والشباب بننفجر في الضحك".

"راح فين ده؟".

"يوه.. إنتى لسه فاكرة؟ كازانوفا أقنعنا إنه في سننا.. إن عنده تسعتاشر سنة.. الصراحة شكله كان صغيَّر وبيدي السن ده.. وكان بييجي يقعد معانا ويشاركنا موضوعاتنا الهايفة لحد ما في يوم من الأيام الواد حماده جاي يوقف تاكسي من شارع رمسيس لقى مين سايقه؟".

ردت عليه بذهول كشف عن أسنان متراصة ناصعة البياض: "ما تقولش؟ مين؟ كازانوفا؟ يا حرام".

"آه كازانوفا يا ستي.. طبعا الواد حماده زي ما إنتي عارفة ما يفوّتش حاجة زي دي.. فضل جوه التاكسي يلففه القاهرة كلها لحد ما اعترف باسمه وسنه الحقيقيين".

"وبعدين إيه؟ اسمه إيه؟".

"لأ مش فاكر طبعًا.. بس كان سنه 28 سنة يعني..".

ضحكت بطريقة هستيرية وتبعها علي في الضحك ثم بدأ يفكر في الموضوع لأول مرة كشخص راشد، فأحس بالخجل من نفسه

وكف عن الضحك وكست وجهه نظرة جادة رأتها إجلال فكفت بدورها عن الضحك وأخرجت سيجارة من علبة فضية داخل حقيبة يد صغيرة تركتها على النجيل إلى جانب قدمها الصغيرة العارية، وأشعلتها ثم طلبت منه أن يذهبا إلى مكان آخر. نظر إلى شفتيها المكتنزتين نصف المغلقتين وكانتا أول ما يسترعي انتباهه فيها، وأجابها "يالا بينا.. ورانا إيه؟ تعالي نتفرج على باريس شوية قبل ما نرَوّح... الجو تحفة".

خلال هذا الأسبوع الأخير من مايو لم يتبقَّ لعلي سوى 500 يورو. مدّت إجلال إجازتها ثلاثة أيام معه ولم يرد أن يصارحها عن اقتراب إفلاسه التام. ماذا لو لم يرسل إليه الحاج لطفي باقي العمولة الآن؟ حاول تجنب التفكير في هذه الفرضية بقدر الإمكان. يستطيع أن يكمل أسبوعًا آخر بهذا المبلغ دون أن يعيش حياة الرفاهية القصوى. عليه أن يتجنب المطاعم الباهظة التكاليف، ولكن كيف يشرح لها؟ وكيف سيدفع إيجار شقته آخر الشهر؟ يعلم أنه لن يستنجد بأحد من أهله في مصر. كان تصميمه أشد من أي وقت مضى.

اتصل ذات صباح بالحاج لطفي ليطمئن بعد أن اقتربت نهاية الشهر. لم تعد نزهاته مع إجلال هي شغله الشاغل بل إيجار شقته الواجب سداده لروبير قبل أول يونيه.

"إزيك يا حاج أخباركم إيه؟".

"الحمد للـه يا علي بك. بنخلص في الموضوع بس فيه شوية حاجات ليها دعوة بالعقد كده. العميل عايز يتأكد إن الفيلا متسجّلة".

"يعني تفتكر على إمتى كده حيخلص يا حاج؟".

"إن شاء اللـه بعد أول الشهر كده يا باشا. سلمت الأوراق كلها للمحامي بتاعه. ما تشيلش هم".

"أول الشهر؟ طيب تمام يا حاج... ما فيش مشكلة".

وقع عليه كلام الحاج لطفي كالرعد. لم يعد بيده شيء الآن. ربما تتأخرالعمولة أكثر من بداية الشهر. عليه أن يبذل مجهودًا إضافيًا أمام صديقته لعدم إظهار إفلاسه. أنهى المكالمة واتجه إلى كافيه ڤوچيرار حيث كانت تنتظره إجلال بجانب محطة المترو التي تحمل نفس الاسم. نظر من نافذة منزله فوجد الشمس ساطعة في السماء فوق الكنيسة وأشعتها تنعكس على الشجرة الملاصقة لنافذته بعد أن اكتست أوراقها كاملة. أغلب سكان الحي الخامس عشر من حديثي الزواج من الطبقة المتوسطة وفوق المتوسطة كانوا يتنزهون مع أطفالهم. انعكس ضوء الشمس على المزاج العام. يكفي أن تظهر الشمس بعد احتجابها وراء السحاب أيامًا فترتسم

البسمة على الوجوه. "ولكنها في بلادنا ظاهرة معظم الوقت، ومع ذلك الناس فقدت القدرة على التبسم". كان علي قبل رحيله (في المرات القليلة التي قرر الخروج فيها من بيته) يسلي نفسه بهذه اللعبة وهو يقود سيارته وسط الزحام: يعقد رهانًا مع نفسه إن كان سيجد واحدًا من عشرة من المارة يبتسم، وكان يخسر في معظم الأوقات.

***

استلقت إجلال على أحد كراسي تراس كافيه ڤوچيرار. لحظها عليّ من على الناصية التي تسبق الكافيه. وضعت ساقًا فوق ساق بلا مبالاة واضحة فانزلق فستانها القصير، وكانت ترتدي حذاء أسود بكعب عالٍ وديكولتيهًا كشف عن نهديها، فبدت مجذبًا للمارة، وحاول علي أن ينظر إليها وكأنه فرنسي فبدت له كأنها خارجة من لوحة زيتية من القرن التاسع عشر لأحد المستشرقين بملامحها الشرقية ولونها الداكن وشفتيها المكتنزتين، مع الفارق أن الفتاة الآن كانت ترتدي زيًا قصيرًا دون برقع، وانساب شعرها الأسود الكثيف على كتفيها، بينما أخذت تدخن سيجارتها وتخرج الدخان بكل استهتار وتحتسي كأسًا من النبيذ الوردي. ظهرت مستغرقة في أفكارها، لا تعير ما يحدث حولها أي اهتمام، وكأنها على اتصال مباشر مع الشمس تتلقى حكمة ربما لا تعرف هي معناها.

ابتسم وهو يربت بيده على خدها، فنظرت إليه باستهتارها المعهود، ورفعت نظارة الشمس فوق رأسها ثم نظرت إليه بعينيها اللتين تبدوان دائما نصف مغلقتين وسألته "خلصت الشغل اللي كنت عايز تعمله؟".

"أيوه تقريبًا".

قالها وهو يحاول أن يداري انفعاله وتخوفاته "ياللا.. النهارده حنروح نتعشى في ريستوران لاڤنيو في أڤنيو مونتني". كان يعلم جيدًا أن كل ما يملك يكفي بالكاد فاتورة العشاء وربما إفطارهما وغدائهما اليوم التالي، ولكن هكذا كانت طبيعته عندما يشعر أنه داخل على كارثة يسرع بها، وبما أنه على وشك الإفلاس اليوم فليسارع بإنهاء المهمة، وكأنه يريد مواجهة الحقيقة المطلقة، وهي أنه ربما خلال يوم لن تكون مشكلته محصورة في دفع إيجار الشهر فقط بل ستتعداها إلى أكثر من ذلك. ربما لن يكون قادرًا أن يحصل على قوت يومه. ولكن فليذهب كل شيء إلى الجحيم. إنه في أجمل مدينة في العالم مع فتاة جميلة، وهو حر يستطيع أن يفعل ما بدا له ما دام لم تنفد نقوده، ثم من يدر؟ ربما يرسل له الحاج لطفي باقي العمولة قبل أن تنتهي المهلة إن انتهوا من مراجعة العقود بين المالك والمشتري.. ربما... ربما.

تحمّست إجلال على الفور: "بجد؟ لاڤنيو؟ ده أكتر ريستوران بحبه. نروح البيت نغير ونتحرك على كام؟".

"ننزل الساعة سبعة وربع. أنا حجزت الساعة تمانية، وحاعفيكي من المترو كمان علشان الكعب ما يضايقيش. إنما إنت أجّلتِ سفرك؟".

"أيوه أجلته يوم. حارجع الاتنين الصبح وحاضرب على الشغل يوم... ياللا مش مشكلة".

قالتها بطريقة جعلته يقترب منها ويطبع قبلة سريعة على شفتيها، فقبّلته هي مرة أخرى لبضع ثوان، وبعدها انتبه لنفسه فقرر أن يجلس على الكرسي الملاصق لها ليستمتع بأشعة الشمس وبوجوه المارة ونادى الجرسون، فحضر إليه بجسده الضخم وربطة عنق بابيون سوداء وابتسامته المعهودة وسألها "روزيه زي مدام؟".

بادله علي الابتسامة ثم جاوبه بكل بساطة "هات لنا إزازة" ثم متمتمًا بالعربية بصوت خافت "إن شا اللـه ما حد حوّش. بايظة بايظة!".

انفجرت إجلال في الضحك دون مقدمات. أضحكها وجهه المستطيل. بدا لها وجهه بخدوده الوردية المستديرة وصلعته أقرب إلى شخصية كارتونية. انصرف الجرسون إلى داخل الكافيه وظهر من خلفه وجه آخر مألوف.

خرج روبير من فتحة محطة المترو المواجهة وهو يحمل حقيبة العمل، ويرتدي بذلة غامقة وربطة عنق زهرية اللون انفكت من

حول رقبته. أوحى شكله أنه انتهى من يومه في العمل وسيبدأ إجازته الأسبوعية. تبدل وجهه من الصرامة التي تصاحب مستخدمي المترو بعد مكوثهم تحت الأرض لوقت ما، وظهرت على وجهه ابتسامة طفولية كتلك التي رآها علي أول يوم عندما قرر أن يطلب له كير في كافيه لوڤيرني.

تقدم ناحيتهم ومد يده إلى علي بشكل عفوي وحيّاه بحميمية "جاري العزيز، أخبارك إيه؟". لم يفت علي اختلاس روبير نظرة إلى إجلال، فسارع بتعريفه إليها بالإنجليزية "روبير، صاحب الشقة اللي أنا ساكن فيها، وكان عايش في مصر على فكرة". مدت له إجلال يدها وهي جالسة كما هي دون أن تتحرك واكتفت بنصف ابتسامة. دعاه علي إلى الجلوس "ما تقعد تشرب حاجة معانا؟".

"لسه مخلص شغل زي ما أنت شايف"، قالها روبير بشكل يظهر أنه لا يمانع، ولكنه ينتظر من مستأجر شقته أن يلح عليه بعض الشيء. لم يفت علي ذلك ولم يفت عليه تمسك روبير باللغة الإنجليزية في حديثه فأصر "اقعد غيّر جو شويّة قبل ما ترجع البيت".

هز روبير رأسه كمن ينفض فكرة عن ذهنه ثم أومأ "ممكن أقعد شوية. الجو جميل فعلا وبكره إجازة".

نظر علي إلى صديقته وقال لها بعفوية "روبير كان عايش في

مصر خمس سنين. حضر جزءًا من التسعينات"، فسألته "أنهي جزء يا ترى؟".

أجابها روبير بالإنجليزية مرحّبا بالتفاتها إليه لأول مرة "من 95 لـ 2000".

نظرت إليه باستهتارها المعهود وكأنها تقول له مش فارق معايا ولكنني سأحاول أن أتابع الحديث معك، وقالت "كنت أنا سافرت".

أضاف علي كي يلطف الجو "إجلال سافرت من سبعتشر سنة تقريبا. حضرنا مع بعض أوائل التسعينات في مصر" ثم ساهمًا "أوائل التسعينات كانت أحلى وقت. ما كانتش الفروق بين الناس واضحة قوي. أواخر التسعينات كانت لسه مقبولة، لكن الألفينات كانت مدمرة"، ثم مستدركًا "تحب تشرب معانا روزيه؟" ودون أن ينتظر إجابة من روبير، نادى على الجرسون ليطلب منه كأسا فارغة، فحضر الأخير وتبادل سلامات حميمية مع روبير وذهب ليحضر الطلب.

ساد صمت قصير قبل أن ينظر روبير إلى إجلال مرة أخرى ويسألها "زرت إيه في باريس؟"، ثم مازحًا، "علي ورّاكي حاجات تانية غير ڤوچيرار والحي الخمستاشر؟".

عدّلت إجلال جلستها بعض الشيء ثم أشعلت سيجارة أخرى، وأجابت بصوت دافئ "روحنا جنينة اللوكسومبورج والبانتيون..

واتمشّينا على الكي دو سين."، ثم مضيفة بدلال لم يستهدف علي فقط "النهارده بالليل حنخرج خروجة حلوة.. صح يا علي؟".

ابتسم علي بعد أن لاحظ اللعبة التي بدأت، ولكنه فضّل أن يبقى خارجها فأومأ برأسه دون أن تتغير تعبيرات وجهه.

"حتخرجوا فين؟" سـألها روبير بلهجة العـارف متجاهلا أية محاولات لإرباكه.

"حنروح لافنيو وبعدين فيه ناس أصدقائي عاملين حفلة في باريبس حنعدي عليهم".

لم تسمع إجلال بحفلة باريبس قبلها فبدت عليها علامات التعجب ولكنها لم تعقب واكتفت بنظرة متسائلة لعلي ولكنه بدوره تجاهلها.

استمر روبير في حواره دون الالتفات "ليه باريبس؟ حي العرب؟ ما تروحوا أي نايت كلوب من اللي حوالين الشانزيليزيه؟".

"لي أصدقاء عايشين هناك وما شوفتهومش من ساعة ما وصلت"، ثم برُكن عينه إلى إجلال "لو ما اتبسطناش حنروح حِتة تانية".

ولكن لماذا يعبأ صاحب العقار بالمكان الذي سيذهبان إليه؟ أليظهر لإجلال أنه على دراية كاملة بكل أماكن الخروج في المدينة، ثم إن لم ترق الحفلة لإجلال كيف سيذهب لمكان آخر دون أية نقود في جيبه؟ دار هذا في ذهن علي، فابتسم في سره، وتذكر

أباه سريعًا، وأنه من الممكن أن يخرجه من ضائقته المادية لو أراد ولكنه طرد الفكرة سريعًا، وتذكر أنه حرق كل الكباري، فاستراح لهذه الفكرة وأحس أنه قام بنفض قيودًا ثقيلة من فوق عاتقه فاستراح أكثر، ثم ابتسم داخليًا أكثر وهو ينظر إلى صاحب الشقة المشغول بالإثارة الشرقية المتمثلة في إجلال أمامه دون أن يخطر على باله أن الجالس أمامه بكل ثقة قد لا يتمكن من دفع إيجاره خلال يومين وقد يطرده أو يبلغ عنه الشرطة.

***

"إنت فعلا نفسك نروح الحفلة دي بعد العشا؟" قالتها إجلال لعلي بعد أن فرغا من طعامهما في لاڤنيو وهما يسرحان من خلال النافذة في طريق مونتيني العريض المرصّع بمحلات الأزياء المضيئة على جانبي الطريق: شانيل وكريستيان ديور وجوتشي وإميليو بوتشي ودولشي آند جابانا.

"ميّ عزمتني وما شوفتهاش ولا مرة من ساعة ما وصلت باريس، وبعدين هي مش حفلة قوي.. تجمّع أكتر من أي حاجة".

"تجمّع إيه بس؟ أنا جاية باريس أروّق دماغي كام يوم من زحمة الشغل ومش قادرة على كلام في السياسة وناس جد".

"وإنت إش عرّفك.. مش ممكن الجو يبقى ألطف من كده؟".

"ألطف إزاي؟ مش دي شلة المظاهرات والكلام الفارغ ده؟"، ثم وهي تركن وجهها على يدها وتخفيه خلف شعرها الأسود الكثيف "أوكي حنروح بس لو زهقنا نمشي ونروح حتة تانية على طول".

"تمام. وعد" ثم وهو يشير برأسه تجاه الأطباق الفارغة "عجبك الريزوتّو بالجمبري؟".

"قوي".

"طيِّب ياللا نروح نشوف اللي بيحصل.. معاكِ فكة للتاكسي؟".

***

حجرة معيشة مسكن ميّ، على حدود باربيس، في هذه الليلة كان أشبه بمخيم لكل المغضوب عليهم ممن شاركوا في أي حركات احتجاجية في أي بلد عربي من الجزائر إلى سوريا ولبنان. اليسار الماركسي والتروتسكي ومناهضو العولمة حتى اليسار الوسط. اجتمعوا كلهم على ضوء خافت وأغنيات لفيروز والشيخ إمام.

استقبلت مي بابتسامتها المعهودة التي ترتسم على وجهها المستدير صديق طفولتها علي ورفيقته بالأحضان من على الباب. أحست إجلال على الفور أنها غريبة وسط هذا الحشد بزيِّها الأسود القصير ونهديها البارزين بفضل حذائها الأحمر ذي الكعب العالي. كانوا جميعًا يرتدون البنطلونات الجينز والتي شيرتات. لاحظت

مي فسألت إجلال وهي تحاول تلطيف الجو "تحبي تشربي إيه؟" فأجابتها الأخيرة بشيء من الفتور "ممكن بيرة". وعندما اتجهت مي إلى المطبخ لتحضر لهما ما يشربانه، أخذ علي إجلال من يديها وتقدم إلى البلكونة الصغيرة حيث تكدس أغلب المدعوين ليدخنوا، فاستوقفه وجه يعرفه فناداها "سماح..".

تلفتت فتاة نحيلة ترتدي عدسة طبية وتجمع شعرها الأسود خلف رأسها، وأجابته بحفاوة بدت له رسمية بعض الشيء ويشوبها شيء من البرود "علي إزيك؟ إيه المفاجأة الحلوة دي؟ هيه مش مفاجأة قوي. مي ادّتني فكرة إنك نقلت باريس لكنني ما كنتش متخيلة إنني حاقابلك هنا النهارده".

"أيوه ما أكدتش على ميّ غير النهارده فعلا. كانت واحشاني. أعرفِك على إجلال".

مدت الفتاتان يديهما بشكل آلي فتدخل علي محاولا إذابة الجليد "إجلال صديقتي من زمان وعايشة في لندن"، ثم مستديرًا تجاه سماح "أما سماح فكنا بنشارك مع بعض في مظاهرات التضامن مع الانتفاضة ومناهضة غزو العراق... أخبارِك إيه يا سماح؟ ما شوفتكيش من أيام..".

قاطعته سماح "من أيام مظاهرات حرب العراق في 2003".

انتاب علي إحساس أن سماح ترمي إلى شيء ما... إلى اختفائه،

ولكنه استكمل حديثه دون أن يلتفت إلى ما ترمي إليه "لأ مش وقت الغزو.. بعدها بشوية لأننا كنا مع بعض في لجنة التضامن مع المعتقلين بعدها بشوية".

لم تعقب سماح، فنظرت إليها إجلال نظرة تعجب. كل ذلك يبدو لها عجيبًا وخارجًا عن المألوف. عليّ الذي عرفته في بداية التسعينيات كان له شعر كثيف يربطه بباندانا أحيانا، يقود سيارته الفيات الصغيرة بسرعة جنونية في شوارع القاهرة ليلا وهو يستمع لموسيقى ليد زيبلين ودورز ونيرڤانا. أما عليّ هذا الذي يتحدث عن المظاهرات فلا يعنيها بشيء. على الأقل الآن. كذلك هؤلاء الناس حولها لا يعنونها في شيء بمظهرهم الجدي ورثاثة ملابسهم. بالكاد يضحكون وهي تعمل وتكد منذ سنوات لتكسب قوتها. فعلت كل شيء لتصل إلى ما هي فيه، وهي مع الرأسمالية حتى النخاع لأنها فتاة واقعية. هذا عملها وهي تتقنه. تعرف كيف تدير الملايين وكيف تحقق ربحًا إضافيًا لعملائها، وتعرف كيف تقضي وقتًا ممتعًا في إجازتها. ثم إنها تراهن بينها وبين نفسها أن أغلب أولئك الحاضرين يعيشون عالة على نظام التأمينات الاجتماعية في البلد الذي يستضيفهم. (هكذا بدا لإجلال الأمر لتخفف عن نفسها إحساسها بالاختلاف التام عن الباقين).

علاقة إجلال بعليّ كانت واضحة وصريحة، فالاثنان كانا يعرفان أنهما يقضيان بعض الوقت معًا ليستمتعا. ليس هناك اتفاق على

شيء أكثر من هذا. جثت هذه الجلسة فوق صدر إجلال لخروجها عن الاتفاق غير المكتوب بينهما، ولكنها قررت أن تحاول تمثيل الدور بعض الوقت لإرضائه.

أحضرت ميّ زجاجتي بيرة لعلي وإجلال ثم ابتسمت في وجه علي كما كانت تفعل وهما أطفال وربتت على كتفه "وحشِتني". ثم ملتفتة إلى إجلال"إحنا إزاي ما تقابلناش قبل كده؟".

"أنا سِبت مصر من حوالى عشرين سنة".

"وأنا برضه. عليّ كان صاحبي من النادي. إزاي ما شفتكيش؟".

"أنا وعلي أهلنا صحاب من زمان، فكنا بنتقابل في بيوت الأهل. أبهاتنا كانوا الاتنين في السلك الدبلوماسي مع بعض". قالتها ميّ بكل بساطة، ثم أضافت "علاقتي بالنادي كانت رياضة وبس".

أدركت إجلال أن مي لا تعني شيئًا من وراء كلامها فأجابتها بنفس العفوية "إحنا علاقتنا بالنادي كانت أكتر من رياضة شوية!"، ثم نظرت إلى عليّ ليصدِّق على كلامها فاكتفى بإيماءة من رأسه. "ولسه بتزوري مصر كتير؟".

"مش قوي. مرة في السنة. أهلي بييجوا يزوروني".

"طيب تعالوا أعرّفكم على يوسف جوزي".

شدت مي علي من يده تجاه رجل ذي لحية قصيرة ويرتدي على

وجهه نظارة مستديرة منهمك في الحديث مع ضيوفه.

مد يوسف يده مرحّبًا بلهجة تونسية رغم محاولته أن يخرج الحروف بلهجة مصرية "أهلا أهلا عليّ. مي حكت لي عنك كتير. بتقول لي إنكم كبرتم مع بعض".

رحب به عليّ بكلمات مقتضبة "طبعًا مي أختي".

انشغل عليّ بإجلال التي انزوت في ركن وحدها تنظر إلى هاتفها في تململ، ولكنه أضاف "أخبار تونس إيه؟".

"والله ما تفرق عن مصر كتير. ما رجعتش هناك من سنتين"، ثم رافعًا رأسه كمن ينهي حديثًا ليس له شأن "أهلا بيك في باريس يا علي".

دق جرس الباب واندفع شاب يبدو من ملامح وجهه القمحي وعينيه الواسعتين مصريًا في أوائل الثلاثينيات مفعمًا بالحيوية ومعه امرأة ذات طابع شامي. أظهر الوافد الجديد حميمية مع أغلب الحاضرين، فلم يضع وقتًا في السلامات وصاح "سمعتم حصل إيه للأسطول التركي المتجه لغزة؟"، ثم دون أن يترك لأحدٍ فرصة للإجابة "السلطات الإسرائيلية طلبت من الأسطول أنه يتوقف في ميناء أشدود بحجة معاينة الإمدادات".

جاء صوت مي بثقة "عايزينهم يِنَزِلوا الأكل والأدوية وبعدين يحجزوا عليهم طبعًا"، ثم سماح من ركن الحجرة بعصبية أضافت

"ما فيش فايدة، مصممين على الحصار، والنظام عندنا مصمم يساندهم".

تدخل عليّ بعد أن بدأ يخرج من تحفظه وينصهر بالتدريج في حديثه المفضل "لا بيرحموا ولا بيسيبوا رحمة ربنا تنزل، والجدار العازل مش حيحل المشكلة وحيعقد الدنيا أكتر".

استرقت إجلال إليه النظر، لا يروق لها الحديث، ولكنها تحفظت على الكلام.

"وقفل المعبر. حد شاف الفلسطينيين بيقعدوا معلقين قد إيه على المعبر؟ مش فارق مع السلطات أي حاجة. فيه مصابين بيقعدوا بالأسبوع وأكتر".

قالها علي وظن أنه تكلم أكثر مما ينبغي لأنه أخذ قرار أن لا يبدي رأيه في أي شيء بعد أن ترك مصر، ولكنه تنقل ببصره بين الحضور فرأى في أعينهم بعض الاستحسان لما يقول، باستثناء إجلال.

رغم اختلاف مظهر علي وصديقته عن باقي الضيوف؛ ارتدى علي حذاء جلد أسود وقميصًا أزرق سماويًا فوقه جاكتة بليزر سوداء مما جعلهم يبتعدون عنه في البداية، إلا أن حديثه بدا قريبًا من أفكارهم ومدعاة للتعجب، لتناقضه مع مظهره.

تقدم إليه الشاب الذي حكى عن الأسطول وعرف نفسه وهو يصافحه "رامي واصف".

"علي كمال، أهلا وسهلا".

اقتربت مي منهما ووضعت يدها على كتف الوافد الجديد "رامي بقاله هنا عشر سنين. ما رجعش مصر ولا مرة. بيشتغل في جورنال ليبيراسيون" ثم وهي تنظر إلى المرأة التي تصاحبه "زهرة، مرات رامي من فلسطين".

نظر علي باهتمام إلى رامي "عشر سنين؟ ما رجعتش مصر ولا مرة واحدة؟".

"ولا مرة واحدة" قالها رامي وهو يداري بابتسامة عريضة باهتة حنقًا لم يخفَ على علي، ولكنه تابع "ولكنني متابع كل حاجة أولًا بأول وباكتب عن مصر طول الوقت في الجورنال".

استعجب علي ولكنه اكتفى بالتعليق بتهكم "فايتك كتير. العشر سنين اللي فاتوا الدنيا اتغيّرت قوي".

"اتغيَّرت في أنهي اتجاه؟".

"في اتجاه حلزوني".

ضحك رامي لأول مرة "إيه حلزوني ده؟ فوق والّا تحت؟".

"لو إنت فوق حيبقى فوق ولو تحت حيكون في اتجاه الدرك الأسفل كده.. لكن قُل لي.. مش ناوي ترجع تزور قريب وتشوف بنفسك؟".

اكفهر وجه رامي للحظة، وخطر لعلي أنه كان من الأفضل ربما أن لا يسأل هذا السؤال، فكل شخص في هذه الحجرة لديه أسباب لترك بلده لا يعلمها الباقون بالضرورة.

أومأ علي برأسه واتجه ناحية إجلال. وجدها تبدلت ملامحها وانكمش جبينها.

"تيجي نمشي طيب ونروح حتة تانية؟"، قالها علي وهو يشد على يدها بيده ويبتسم بشيء من البلاهة المقصودة ليضحكها، فنظرت إليه بدلال واكتفت بالرد عليه بشفتيها نصف المفتوحتين "لما تحب. أنا جاهزة".

عند باب الشقة حضر إليه رامي وقال له "علي، أنا سمعت إنك قاعد هنا زي حالاتنا ومش ناوي ترجع قريّب".

"أيوه مش ناوي أرجع دلوقت خالص".

"طيب هات رقم موبايلك ونتقابل نشرب فنجان قهوة مع بعض لو تحب".

"قوي قوي".

احتضنته مي وهو خارج ثم همست في أذنه "صاحبتك طبعًا ما لقيتش نفسها هنا.. عادي.. عادي. حنعوِّضها. كلمني لما تسافر نعمل حاجة مع يوسف ورامي. باي".

***

حرارة غرفة النوم كانت لا تُطاق. موجة حارة بدأت في باريس فجأة. المنازل ليست مجهزة لذلك. فتح علي شيش نوافذ الشقة الثلاث على مصراعيها، ووضع مروحة صغيرة كان روبير نسيها داخل أحد الدواليب أمام السرير حيث استلقى هو وإجلال في شبه الظلام يحدقان في السقف ويدخنان سيجارة تلو الأخرى.

"إنت فعلا ناوي تقعد هنا؟ حتعمل إيه؟ حتصرف منين؟".

"مالك بتتكلمي زي أمي كده؟".

"قُل لي إيه اللي حصل يا علي مع عيلتك؟ إيه اللي خلاك تسيب شغل أهلك وتلم عِزالك وتمشي؟".

نظر علي إليها مليًا دون أن يجيبها، ثم سرح بعينيه في سقف الحجرة، وأشعل سيجارة في الظلام بكل هدوء، وأجابها بلهجة لم تخل من عنف "أيوه بقى. عايزة تعرفي إيه يا إجلال؟ ليه أنا في المنفى الاختياري ده؟ الحقيقة هو مش اختياري قوي" كان كلامه يتسارع مع تسارع ضربات قلبه "أنا زي ما تقولي كده اتغضب

عليّ لأنني مش مطابق للمواصفات. أبويا كان عايزني حاجة. كان حاطط عليّ آمال كبيرة، وأنا حاولت لكني طلعت حاجة تانية خالص". قال "حاجة تانية خالص" وهو يبتسم بتهكم واضح ثم وهو يسحب دخان السيجارة ببطء.

وضعت إجلال يدها على رأسه لتربت عليها، ولكنه وجد نفسه يسحب رأسه في الاتجاه الآخر. "طيب وإنتى ما بترجعيش ليه؟".

"أنا؟" انفجرت إجلال في ضحك رآه علي ثقيلًا ومصطنعًا بعض الشيء " أنا؟ أرجع أعمل إيه؟ أتجوز وأقعد جنب أمي وسط مجتمع ذكوري مريض بعد كل اللي عملته وبنيته؟ إنت بتهرج طبعًا! أنا مش راجعة ومش ناوية أرجع لكن خلينا فيك أنت... ما جاوبتش على سؤالي.. حتعيش إزاي وأنت قاطع ماية ونور مع أبوك؟".

اعتدل علي في جلسته على الفراش، وأشعل سيجارة أخرى وأجابها وكأنه يقنع نفسه "حاخلص الكتاب اللي ابتديته وأكتب مقالات وبعدين ممكن أرجع أشتغل سمسار عقارات هنا.. معايا قاعدة بيانات عملائي في مصر. ممكن أشوف مين عايز يشتري شقة هنا". كان يعلم جيدًا أن كلامه فيه جزء كبير من الخيال، وأن المساحة بين ما يريد وبين ما يمكن تنفيذه ليست بهذه البساطة، ولكنه بحاجة إلى هذه الشحنة من الأمل رغم أنه يعلم أن غدًا لن يكون متبقيًا معه يورو واحد.

سألها في محاولة لتغيير الموضوع "ما عندكيش صاحب؟".

اعتدلت إجلال في جلستها ورفعت الغطاء بيد لتغطي نفسها ومدت اليد الأخرى لإشعال سيجارة أخرى قبل أن تجاوبه "كان فيه واحد كنت قابلته من كام سنة في لندن، بس كان لسه منفصل عن مراته، وبعدين طلق مراته فابتدينا نشوف بعض أكتر".

"مِصري؟".

"أيوه مصري. قعدنا نشوف بعض فترة لحد ما اعترفت له بأنني ما بقاش عندي شعور من ناحيته. كان بيشتغل برضه في إدارة المحافظ المالية، وخسر كل فلوسه بعد أزمة 2008. لما قلت له كده، اختفى من حياتي، وسمعت أخيرًا أنه رجع مصر".

"يعني أمّا كلمِتك كنت لسه معاه؟".

"لا كان الموضوع منتهي بقاله شوية"، ثم مستطردة بشيء من البهجة "أنت عارف إيه اللي كويس معاك؟ إن الموضوع واضح وصريح. علاقتنا مبنية على صداقة و..." ثم قبَّلته على صدره.

"أيوه أيوه".

لم يرق هذا لعلي، فهناك كائن محافظ نكدي بداخله. كلما ظن أنه تخلص منه بعد كل تجاربه التي مر بها، خرج عليه لينغص عليه سعادته، ولكنه يتقبّل كل شيء ولا يعيره اهتمامًا. هو الآن معها.

يحاولان الوصول لقمة المتعة، ولكن هناك شيئًا غائبًا رغم الجنس والحديث الذي يفتقده وهو وحيد في منفاه الاختياري. ينتظر أكثر ولا بد أنها هي أيضا تنتظر أكثر ولكنه لا يعلم إلى ماذا يتطلع.

"طيب سؤال أخير وأوعِدك مش حاسألك أيّ حاجة تاني. هل أعرفه؟".

اعتدلت إجلال أكثر ثم نظرت إليه نظرة ذات مغزى، جعلته يندم على سؤاله "عايز بجد تعرف؟ سليم رياض...".

نظر إليها دون أن ينبس بكلمة وأحس لأول مرة أنه ربما في مكان خاطئ ومع فتاة ليست من حقه، ولكنه لم يعقب واقترب منها أكثر".

استيقظ علي ولم يجد من إجلال إلا عطرها شانيل رقم ٥ الذي ملأ أركان الحجرة. كانت الساعة شارفت على الساعة الثالثة بعد الظهر. "أي يوم هذا؟" تساءل "ماذا حدث؟ ألم تكن إجلال معي حتى لحظات مضت؟ ولكن أين ملابسها الملقاة على الأرض؟ لقد اختفت". خرج إلى حجرة المعيشة فلم يجد حقيبتها التي كانت متروكة إلى جانب باب الدخول، ولكنه وجد رزمة من النقود على المائدة الصغيرة التي تتوسط نافذتي حجرة المعيشة، ثم ورقة

مطبّقة، فتحها في عجلة ليجد هذه الكلمات بالإنجليزية بحبر أسود مكتوبة في عجلة:

"عزيزي علي، ميرسي على الأوقات الجميلة. أكتر مرة أحب باريس كده. حتلاقي جنب الجواب ده مبلغ ألف يورو. أنا عارفة إنك محتاجه دلوقت. مش محتاجة تقول لي حاجة. لما يجيلك فلوس، بلغني، وحابعتلك رقم حسابي تحول لي المبلغ. بوسة كبيرة -إجلال".

الفصل الثاني

أنزل سليم رياض حقائبه من السيارة الأجرة التي استقلها من المطار. وقفت والدته تنظر إليه من شرفة منزلهم المكون من دورين في ضاحية المعادي بالقاهرة. كان هذا أول لقاء لهما منذ آخر مرة حضر إلى القاهرة من لندن عندما توفي أبوه منذ ثلاثة أعوام.

تنحدر أم سليم من عائلة من عائلات الصعيد الكبيرة الممتدة الجذور لقبائل الجزيرة العربية. تبلغ من العمر ستين عامًا، داكنة البشرة مثل سليم الذي لم يرث من أبيه سوى القامة الرياضية والفكر الاقتصادي.

تركِ سليم حقائبه في بئر السلم وقفز درجات الدورين في أقل من دقيقة، كما كان يفعل عندما يحصل على نتيجة آخر العام الدراسي ويتلهف للحاق بأهله في غرفة المعيشة لإبلاغهم بدرجاته. غالبت الأم دموعها وأخذت تضمه وتتمتم "أخيرًا... أخيرًا".

لم يكن سليم من النوع الذي يظهر مشاعره. كان متحفظًا بطبعه وزاد على ذلك السنوات التي قضاها في لندن وزواجه من إنجليزية. غلب عليه التحفظ وأيقن أن تغليب العقل والمنطق يتطلب التغلب على المشاعر. وضع نصب عينيه أمه وعائلتها بدمهم الحامي ومشاعرهم الفيَّاضة، وتجنبَ تغليب المشاعر حتى لا تقف عائقًا أمامه في تحقيق أهدافه. لم يمنعه ذلك من احتضان أمه بحنان لوهلة قبل أن يستجمع زمام مشاعره، ويتراجع خطوة للوراء، مكتفيًا بابتسامة عريضة ارتسمت على وجهه ذي القسمات الحادة.

سارعته أمه: "تعالى يا سليم.. اقعد هنا على كرسي أبوك.. عايزة أملّي عيني منك".

فنظر إليها وحاول أن يكتم المشاعر التي اجتاحته، فكأنه ما برح هذا المكان منذ الأمس. كل شيء في مكانه كما تركه. نفس الصور الفوتوغرافية لأجداده الموضوعة في أركان غرفة المعيشة وبورتريه ألوان زيتيّة لجده الكبير في غرفة الاستقبال وهو يرتدي بدلة التشريفة والنياشين.

حاولت أمه أن تذيب جليد اللقاء الأول: "قل لي.. رحلتك كانت إزاي؟ مريحة؟".

أجابها سليم بعد أن اتخذ مجلسه على مقعد أبيه "آه بس كان عندي وزن زايد.." ثم مازحًا "ابنك اتعوِّد يسافر درجة أولى، ودي

أول مرة من زمان أسافر إكونومي.. فمعملتش حساب إن الوزن ما يعدِّيش عشرين كيلو... لسه فيه باقية عزالي شحنته، المفروض يوصل على آخر الأسبوع.. إنما قولي لي.. أحمد أخويا فينه؟".

"راح يجيب الولاد من المدرسة.. وحيحصّلنا هو ومراته على الغدا..".

ابتسم سليم عندما ذكرت أمه أولاد أخيه. افتقد كل ذلك خلال السنوات الأخيرة، ولم يدرك مدى افتقاده لهم إلا الآن، وهو على وشك أن يجتمع مرة أخرى بشقيقه الأصغر وعائلته. وسرعان ما مرت سحابة على وجهه استطاعت أمه أن تلحظها فسألته بكل هدوء "شريف أخباره إيه يا حبيبي؟".

لم تكن لدى سليم النية أن يخوض في هذا الموضوع، فاكتفى برد مقتضب "كويس الحمد لله مع أمه"، ثم أضاف سارحًا وهو يبتسم نفس ابتسامته الأولى "الأستاذ أكنّه في إعدادي.. بيدُّولهم كتب يقروها في البيت وبيطلع رحلات مع الفصل يا ستي".

ابتسمت الأم مرة أخرى، رغم أنها لم تر حفيدها هذا إلا في الصور التي كان يرسلها لها سليم بالإيميل، ثم في مرحلة أخرى من خلال فيسبوك بعد أن تعلمت أخيرًا كيف تستخدمه.

"إنما قولي لي عاملين لنا غدا إيه؟".

ردت عليه بفخر "تفتكر إيه؟ شركسية جدتك طبعًا وجنبها صينية بطاطس في الفرن".

أخذ سليم يفكر، كيف أنه بعد تلك الحياة الصاخبة سيستقر في مسقط رأسه مرة أخرى. عائلتا أمه وأبيه كانا ما يطلق عليه "الفقراء الجدد". تلك العائلات التي تم تأميمها في بداية ستينيات القرن العشرين. كانت العائلتان تتوزعان بين الإشراف على أراض زراعية خُصصت من محمد علي باشا أو بين المناصب العليا بالجيش أو الحكومة، حتى قامت حركة الضباط الأحرار فصادرت معظم ما يمتلكون مثلهم مثل عائلات أخرى كثيرة. شبَّ أبوه محمود رياض ليجد نفسه تحت الحراسة، فأدرك بعقليته الرياضية أن ما تبقى من أرضه الزراعية لن يفي باحتياجاته واحتياجات عائلته فتدرج داخل أحد بنوك القطاع العام حتى يستطيع أن يفي بالتزاماته تجاه زوجته وولديه. لم تكن إمكاناته بالطبع مثل ما كان يمكن أن يكون، فأدرك سليم ذلك منذ طفولته بعقليته التي لم تختلف عن أبيه فحصل على أعلى الدرجات الدراسية في كلية الاقتصاد بالجامعة الأمريكية، وتأهل للحصول على منحة دراسية مكنته من السفر إلى إنجلترا لاستكمال دراسته في جامعة لندن للإدارة.

توارد إلى مسمع سليم صوت مفتاح يدور في كالون الباب الخارجي ثم أصوات طفلين يندفعان مسرعين إلى الداخل. الطفل

الكبير على درجة عالية من الشبه مع عمه وجدته، أما الأصغر فغلبت عليه ألوان أبيه وجده من عيون خضراء إلى شعر بني داكن. احتضنهما سليم بقوة، وتبعهما شقيقه أحمد. لم يتكلما كثيرًا. اكتفى سليم باحتضان شقيقه وزوجته. كان أحمد أكثر شبهًا بوالدهما، ولكنه على عكس سليم لم تكن له طموحات أكثر من أن يكون رب منزل يقوم بتربية أولاده والاعتناء بزوجته. تفرغ أحمد لما تبقى من أرض عائلته في حياة والده، وبعد وفاته أصبح أكثر تفرغًا يقضي جزءًا من الأسبوع في الأرض، ويباشر عملية الزراعة السنوية وكذلك حصد المحصول، ثم يعطي أمه جزءًا من الإيراد ويحوِّل نصيب أخيه لحساب بنكي يمتلكه سليم في مصر..

"إيه يا ابني.. خلاص كده؟ رِجعت لقواعدك؟".

"شكلها كده.. كفاية عشر سنين".

لم يكن سليم يعرف زوجة أخيه معرفة وثيقة. قابلها في المناسبات ولم تحن له الفرصة أن يبادلها الحديث كما يجب. ورحبت به الزوجة رغم ذلك بحميمية. كانت داليا زوجة أحمد امرأة أقرب إلى القصر، مكتنزة بعض الشيء، ولكن تقاطيع وجهها الدقيقة، ثم أسلوبها الدافئ وحيويتها جعلتها قادرة على الاقتراب من القلوب بسرعة إن أرادت.

اقتربت منه داليا وبعد أن ربتت على ظهره قالت له: "العيال وحشهم عمهم، حمدًا للـه على السلامة يا سليم".

تفحصهم سليم مليًا ثم سرحت عيناه الداكنتان وهو يردد بشكل شبه آلي "وأنتم أكتر".

ذهنه بقيَ في حالة عدم تصديق لوجوده في هذا المكان الذي شهد ولادته. آخر مرة جلس في هذه الغرفة كان منذ ثلاث سنوات وسط أمه وأخيه ونساء يرتدين السواد وبعض أصدقاء العائلة من البرجوازية القديمة يتلقَّى العزاء في والده. كان وقتها رجلا متزوجًا يدير شركة في لندن بملايين الجنيهات الإسترليني ويرتدي بذلة سوداء أرماني. اعتقد وقتها أنه يمتلك الدنيا وما عليها، أما الآن فهو يرتدي بنطلونًا جينزًا وحذاء "كاوتش" وتي شيرتًا مثل أيام الجامعة... لا يمتلك شيئا، ولا يمتلك رؤية ابنه الوحيد.

سألهم بتلقائية من يريد إيجاد موضوع للغوص فيه والابتعاد عن خصوصيات لا جدوى منها الآن"أخبار البلد إيه؟ قولوا لي...".

نظر إليه أخوه بشيء من السخرية الممزوجة بتسليم للأمر الواقع "زي ما سبتها بس زحمة أكتر وفقر أكتر". وباغتته أمه كمن يريد أن يزيح حملا ثقيلا من على كاهله سريعًا "ولازم أقول لك على حاجة مهمة يا حبيبي، ما كنتش عايزة أقولها لك في الظروف اللي كنت معدي فيها ديه".

"خير يا أمي قولي لي.. حاجة ليها دعوة بالأرض؟".

"عم سيد تعيش أنت..".

"اللـه يرحمه.. البقية في حياتكم.. إزاي؟".

"السن".

عمل عم سـيد لدى عائلة سليم كسفرجي منذ أن كان أبوه طفلا، واسـتمر معهم حتى توفي محمود رياض، واعتبـره جميع أفراد العائلـة عضوًا بها، يشـاركهم كل أحداث الحيـاة، يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم. لم يتزوج عم سيد ومكث في حجرة ببدروم المنزل حتى توفي فجأة ذات يوم أثناء نومه.

***

في صيف 2010 جثت موجة ثقيلة على القاهرة. عاش الجميع في حالة انتظار وهم يعلمون أن هناك شيئًا يغلي تحت الأرض دون أن يعلم أحد طبيعته، حتى إن اللون الرمادي غلب على كل شيء، فأصبح المناخ رماديًا ثقيلا لا يحمل بين طياته أي نسائم هواء، وكعادة أي مريض في المرحلة النهائية يتخبَّط في بحثه عن الدواء أو ينتظر الخلاص، عَكَس المجتمع كله بجميع شرائحه هذه الحالة كلٌّ بطريقته. المعترضون ازدادوا اعتراضًا على النظام ومقتًا له، والساسة ازدادوا ثقة في النفس وتجاهلا للواقع. كذلك رجال الشرطة ازدادوا قمعا لمن في السجون والشوارع. أما رجال الأعمال ففضلوا أن لا يروا، وتوسعوا في مشروعاتهم الاستثمارية التي لم تضع أي اعتبار لازدياد الفجوة بينهم وبين الشعب، أو ربما

رأوا ولكنهم فضّلوا تجاهل ما رأوه.

أغلب الناس وقفوا يتأملون في صمت منتظرين الصدام المحتوم دون أن يعترفوا بذلك.

انقضت فرحة اللقاء الأول مع الأهل، ومرت أول ثلاثة أسابيع، ثم وجد سليم نفسه يدور مرة أخرى في فُلك الأفكار التي فر منها عندما رحل إلى لندن. تكشّفت له القاهرة بالتدريج كفخ من نوع جديد بضوضائها وزحامها وحرارة الجو وثقله.

الحياة مع أمه كانت في البداية ملاذًا يحتاجه بعد أن فقد بوصلته، إلا أنه بعد فترة قصيرة بدأت الأم في تجاوز الاعتماد عليه إلى محاولة الاستحواذ عليه دون أن تدرك ذلك. طلباتها لم تنقطع كأنها تستعيض بوجوده عن أبيه الذي فقدته منذ فترة قصيرة. تلك الطلبات كانت ستكون مقبولة في وقت آخر، مثل حثّه على واجبات عزاء مرتبطة بالعائلة الممتدة أو حتى زيارات للأقارب، أما في هذه المرحلة من حياته فلم يكن لديه أدنى استعداد لأي نوع من الاجتماعيات أيا كانت.

خنْقته اشتدت عندما أخذت أمه في سؤاله عن مواعيد عودته من الخارج وأسباب تأخره. بدا له الأمر مدعاة للسخرية بعد كل هذه السنوات التي قضاها وحده ثم وهو يعول زوجته وابنه، وبعد

أن كان يدير شركة تُدر الملايين بعشرات الموظفين داخل إحدى معاقل الرأسمالية المتوحشة.

"ولكنني الآن لا أكاد أملك شيئًا إلا ما ورثته عن أبي وقد قاربت على الأربعين. حتى ملابسي عادت مثل أيام الجامعة". هذا ما كان يدور بذهنه معظم الوقت وهو جالس في كافيهات مختلفة خلف شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص به ليرسل نسخًا من سيرته الذاتية إلى شركات إدارة المحافظ المالية المختلفة.

***

ذهب سليم يوم الخميس 10 يونيه ليحضر حفلًا صغيرًا عند أحد أصدقائه القدامى من المدرسة. أحمد رأفت صديقه شاب يميل إلى القصر. ممتلئ بعض الشيء. مرسل الشعر المجعد فوق جبينه وفوق أذنيه. يعمل صحفيًا صباحًا ويلعب الدرامز أحيانًا مع فرقته.

استقبله أحمد رأفت من على باب شقته بشارع هدى شعراوي في وسط البلد بترحاب ظهر على وجهه المستدير، وانعكس على تحركات ذراعيه الصغيرتين بسرعة فائقة وهو يقول له "مش معقول يا مان، وحشتني. ما اتغيرتش من آخر مرة باستثناء شوية شعر أبيض... مش مشكلة يعني.. تعالى أعرفك على الناس اللي جوه".

ابتسم سليم وربت على كتف زميل فصْله القديم الذي لم يتغير

بنفس حيويته وإقباله على الحياة، ولكنه أخذ يفكر "تُرى ما الذي يجعل بعضنا يبقى بنفس حيويته الأولى وإقباله على الحياة حتى إنه لا يغير أي شيء في طريقة كلامه؟ وآخرون مثله هو يموت بداخلهم شيء وتبقى آثار المرارة غالبة عليهم طوال حياتهم. أهي تطلعاته وطموحه أم أنه رأى الدنيا كما هي بينما شخص كأحمد رأفت ما زال يعيش داخل شرنقة بعيدًا عن الواقع؟ بالتأكيد هناك عوامل خارجية تصيب أي إنسان وتؤثر عليه. ربما أحمد رأفت رأى الحياة كما هي بينما يعجز هو عن إعطائها قدرها. ليس أكثر ولا أقل".

تبعه داخل شقة صغيرة مكونة من غرفة معيشة وحجرتين نوم تعود إلى بدايات القرن الماضي. سقفها عالٍ كما هي حال أغلب المباني ذات الطراز الهوسماني بوسط البلد. داخل غرفة المعيشة جلس باقي أعضاء الفرقة فوق شلت بألوان زاهية وكليم من كرداسة غطى أرضية الحجرة. عَرَّفه رأفت إلى فتى يدعى بوب وآخر اسمه زازا وإلى جانبهما درامز وجيتار مسنودان على الحائط إلى جانب مروحة وستاند للميكروفون. لم يبديا اهتماما بالوافد الجديد. حيّياه باقتضاب لانشغالهما بلف سجائر قبل أن يبدآ وصلة جديدة. انضم إليهما أحمد رأفت مشيرًا إلى سليم بالاتجاه إلى البلكونة الملاصقة للحجرة.

وقفت في البلكونة فتاة متكئة على السور وتنظر إلى الشارع

بفضول. استدارت على وقع خطواته فمد سليم إليها يده بطريقته المتحفِّظة المعهودة. ظهرت فتاة على قدر بسيط من الجمال في أواخر العشرينيات من عمرها ترتدي ملابس بسيطة وتركت شعرها القصير المجعد دون عناية إلا أن بريقًا خاصًا انبعث من عينيها الواسعتين جعلته يطيل النظر إليها دون أن يعرف السبب.. حدجته بنظرة جريئة وهي تعرِّفه على نفسها "أمينة".

أومأ إليها ثم مد يده إلى جيبه ليخرج علبة سجائره، وبعد أن أشعل سيجارة قرر أن يكسر الصمت وسألها "تعرفي أحمد من زمان؟".

"يعني مش قوي. من سنتين وشوية وأنت؟".

"من أيام المدرسة".

"ياه... ده من كام سنة.. أكيد من زمان أوي".

ابتسم سليم لأول مرة وهو يقول لها بشيء من السخرية "ليه؟ شكلي عجوز كده؟".

فابتسمت أمينة بدورها ونظرت إليه متفحصة "يعني عجوز شوية، مش في عمر أحمد رأفت؟".

"صح. دفعة واحدة.... بس أنت واقفة لوحدك ليه؟ إزاي الشباب دول سايبينك هنا لوحدك كده؟" قالها وهو أقل تحفظًا من البداية.

"بيتمرنوا على الآلات بتاعتهم قبل ما باقي الناس تيجي".

"إنما أنت تعرفي رأفت منين؟".

نظرت إليه بتفحص ثم سألته بكل هدوء "عايز تعرف ليه؟".

اقتضب وجه سليم وأحس بالخجل من نفسه. تعود من خلال حياته في أوروبا أن لا يتدخل فيما لا يعنيه، ولكنه سألها فقط من أجل إيجاد حديث، وها هي تباغته بضحكة عالية أفرجت عن أساريرها بعدها وأغلقت عينيها فبدت أجمل قليلا مما رآها في البداية، وتشجع على المضي قُدُمًا في سؤاله مازحًا: حتقولي لي والّا أمشي دلوقت؟".

"حتمشي تروح فين؟ خلاص حاقول لك... اقعد اقعد... أعرف رأفت من أيام إضراب غزل المحلة في 2008".

سألها بفضول "اشرحي لي الموضوع ده. سمعت عن الموضوع بس من بعيد".

"ليه هوَّ حضرتك مش عايش هنا والّا إيه؟".

"بقالي عشر سنين عايش في إنجلترا، فمعلهش فاتني كتير، استحمليني وإحكى لي عن اللي فاتني".

نظرت إليه أمينة بفضول ممزوج بالرغبة في التقرب التي تعتري معظم المصريات عندما يقابلن مصريًا رجع لتوّه من

الخـــارج، فهو ما زالت عليه طبقة من شــــيء لـــم يتم تلويثه. وهو رأى وعاش مواقف تميزه بالتأكيد عن من حوله، فأخذت تحكي له عن أســـباب إضراب العمال، وكيف أن القوى الوطنية التفت حول هذه المطالب، وأن الشرطة اعتدت على العمال المعتصمين وعلى النشطاء، وأنها كصحفية في وكالة رويترز ذهبت لتغطي الأحداث وقابلت أحمد رأفت الــذي كان يقوم بتغطية الأحداث أيضًا لبعض الصحف المحلية.

في هذه الأثناء ازدحمت غرفة المعيشة بشباب جاءوا ليستمعوا إلى فرقة أحمد رأفت. خرج منهم البعض إلى البلكونة لينضموا إلى سليم وأمينة ولكنهما وجدا أنفسهما يتخذان ركنًا بمعزل عن الباقين، وحكى لها سليم بعض الشيء عن حياته في لندن دون أن يتطرق إلى تفاصيل، فاكتفى بأن وصف لها نفسه أنه كان يعمل في شركة لإدارة المحافظ المالية، وأنه كان متزوجًا من إنجليزية وله ابن يعيش الآن مع والدته.

خلال الاســـتراحة انضم لهمـــا أحمد رأفت وأخـــذ يلوّح بيديه الصغيرتين المكتنزتين "اتعرفتوا على بعض؟ صح؟".

نظر إليه الاثنان دون أن ينبسا بكلمة، وهما يبتسمان نفس الابتسامة الساخرة من اندفاع صديقهما المشترك. ثم أجابته أمينة بثقتها المعهودة "إنت شايف إيه؟".

فضحك رأفت ضحكته المعهودة التي تعني "أنا أعلم أنني أقول كلامًا سخيفًا وربما أكون أحرجتكما رغم قدرتكما أنتما الاثنين على التحفظ على مشاعركما، ولكنني سعيد ولا أرى ضررًا لذلك على الإطلاق". ثم وهو يرتشف من زجاجة بيرة في يده موجهًا كلامه إلى أمينة "سليم ده صاحبي من حضانة بس كان شاطر قوي" ثم موجهًا نظرة إلى سليم بدت لا تخلو من بلاهة متعمّدة "مش زي حالاتنا يعني. راجل متسستم من يومه".

نظرت أمينة نظرة لا تخلو من معنى لسليم ثم قالت له بشيء من الدلع لم يتناسب مع الانطباع الجاد الذي تركته في البداية، أو مع مظهرها البسيط الذي لا يعكس أي مدلول أنثوي "بس مش باين عليه السستمة قوى يعني!".

فتح سليم فاهه ونظر أمامه إلى العمارات المجاورة وإلى سماء وسط المدينة الملوثة، ثم نظر إلى صديقه القديم بتعاطفٍ لم يكن يظهره إلا قليلا "أمينة حكت لي عن طريقة مقابلتكم. من إمتى يا ريڤو جو السياسة ده؟".

أحمد رأفت، مثله مثل كثيرين من زملاء سليم في الفصل كان يتعامل معه وكأنه أكبر منه في السن، فأحس بزهو دفعه أن يبدأ في سرد طبيعة عمله، وبعض الأحداث التي عاشها في السنوات

الأخيرة "مش بس كده.. أمينة حكت لك إننا عدّينا الحدود وقت القصف الأخير لغزة؟".

أرجع سليم رأسه إلى الوراء ووضع يده على ذقنه وفتح فاهه بعض الشيء كعادته عندما يندهش ويقرر أن يظهر لمحدثه تعجبه "حقيقي الكلام ده؟ إوعي تكوني غطيتي حروب تانية وأنا مش عارف". فكرة أنها عايشت الخطر عن قرب أثارته على غير توقُّع. ود لو أنها أجابته بأنها قامت بتغطية حرب العراق. ربما كان هذا سيثيره أكثر.

أجابته ببعض اللا مبالاة "لأ كفاية كده.. بس فيه موضوع أهم من كل اللي فات..".

صمتت للحظة وأخرجت سيجارة من حقيبة صغيرة معلقة على كتفها وأشعلتها ثم نظرت إلي سليم نظرة اخترقته، لأن عينيها لمعتا بشكل غير عادي وهي تقول له "خالد سعيد" ثم أضافت "خالد شاب من إسكندرية مات مقتول من تعذيب الداخلية من أربع ايام. اتنين مُخبرين جرجروه من إنترنت كافيه وضربوا راسه في حتة رخام لحد ما اتوفى".

"أنا قريت عن الخبر ده في الجرايد لكن قالوا إنه بلع باكيتة بانجو".

"كدب في كدب. خالد كان معاه فيديوهات بتثبت إن قسم سيدي جابر متورط في تجارة مخدرات".

قطّب سليم ورأفت جبينيهما، ثم أشاح سليم بوجهه كمن يريد أن ينْفض هذا الحدث عن ذهنه أو يتجاهل سماعه، وهكذا كانت عادة سليم كرجل ذي ذهنية رياضية ومالية؛ أن يشيح بأفكاره عن أي موضوع من شأنه أن يرجح العواطف على العقلانية، ولكن أمينة تجاهلت حركته وانطلقت كالقطار السريع "التقارير كلها متضاربة، لكن الأكيد إن شوية مطبلاتية النظام لازم يقولوا كلامًا حقيرًا وفارغًا زي شهيد البانجو"، ثم مسترجعة هدوءها بصعوبة "بالذمة عمرك شُفت حاجة كده بتحصل بره مصر؟.. إنك ما تكتفيش بقتل بني آدم بس تدينه كمان؟ ومش بس كده... لأ.. تخلي الرأي العام أغلبه معاك". ثم علت نبرة صوتها مرة أخرى واحمرّت بشرتها الخمرية وهي تقول له "فيه صفحة اتعملت على فيس بوك من يومين اسمها كلنا خالد سعيد. عدد المشتركين فيها عمال يزيد كل ساعة بالآلاف. وفيه وقفة كمان يومين في إسكندرية للتضامن معاه".

وقف أحمد رأفت وهو يدخن سيجارته ويهز رأسه بالإيجاب تارة وهو ينظر إلى أمينة متممًا على ما تقول، وتارة يتفحص سليم محاولا استنتاج وقع الكلام عليه، ولكن سليم لم يبد عليه التأثر بل اكتفي بأن علق بكل هدوء "والحكومة حتسيبهم؟ تفتكري وزارة

الداخلية ما عندهاش علم بالكلام ده ومستعدة له؟ مصر بلد قمعية بقى لها سبعة آلاف سنة، ومش حتتغير دلوقت يا جماعة خليكوا واقعيين شوية".

نظرت إليه أمينة مليًا ثم فاجأته "إنت وراك إيه بعد بكره؟".

استعجب رأفت سؤال أمينة لسليم، وعندما فهم ما ترمي إليه بدأ يضحك بشكل عصبي، وقال لها مازحًا وهو يهز جسمه الصغير المترهل "أنت بتهرجي والّا إيه؟ عايزة سليم ييجي معاكِ الوقفة؟ يبقى أنت فهمتِ الموضوع غلط".

ولكن يبدو أن الفتاة لم تفهم خطأ، فقد فهمت أمينة بحسها الأنثوي أن سليم ليس لديه الكثير ليخسره، وأنه من هذا الفصيل الذي يغامر بكل شيء إن كان هناك ما يحفزه، وهي تعلم أن حافز سليم واقف أمامه بشحمه ودمه.

فاجأ سليم صديقه وفاجأ نفسه عندما أجابها بكل بساطة وابتسامة واثقة تغطي وجهه، (تمامًا كما كان يفعل في فريق الكشافة بالمدرسة عندما يقبل تحديًا ما، مثل أن يبقى الليل كله دون نوم وهم يحرسون ملجأ للأطفال في المقطم).. "بالقطر ولا ناخد عربيتي؟".

***

جلس سليم في مواجهة أمينة على مائدة صغيرة إلى جانب نافذة تطل على مراكب الصيد المتراصة أمام النادي اليوناني. انعكس ضوء القمر على صفحة مياه الخليج الراكدة، وظهرت قلعة قايتباي من مسافة، تطل من خلال أضوائها بهيبة على الخليج.

كانا قد فرغا من الطعام، واختلس سليم النظرات إليها محاولا معرفة ما يجذبه إليها، فهي ليست بجمال زوجته الإنجليزية أو بإثارة إجلال وأنوثتها الطاغية، ولكن وجهها اليوم يعطيه إحساسًا بالقوة والأمان لم يدركه منذ سنوات.

"ما كنتش متخيل إن عدد الناس حيكون بالشكل ده" قالها سليم وهو ينفخ دخان سيجارته في اتجاه السقف ويرجع رأسه للوراء كعادته عندما يكون مستريحًا وأقل تحفظًا.

"الدعوة انتشرت بسرعة ما كانش حد يتخيلها".

"وبعدين؟ تفتكري حق خالد سعيد حيرجع؟ أو القتل في الأقسام حيُقف؟".

قالها بنبرة ساخرة.

"على الأقل بنثبت حالة".

"إنتى ما شوفتيش الناس اللي معدية جنب المسيرة النهارده ونظرات الاستهجان وتلقيح الكلام؟ عايزة تثبتي حالة لمين بالظبط؟".

"طب إنت جيت ليه؟" ردت عليه أمينة بجرأة جعلته يهتز لثوانٍ قبل أن يجمع شتات نفسه ويظهر بوجه البوكر الذي يتقنه أي خبير مالي بعد فترة من عمله بالمجال.

"مش متأكد قوي. يمكن ما ورابيش حاجة أحسن أعملها في مصر". ثم مغيرًا الموضوع "هو أحمد رأفت راح اختفى فين بعد المسيرة؟".

"راح يعمل موضوع مع البرادعي بيتهيأ لي. بس ما أظنش إنه حيعرف يوصل له في وسط الزحمة دي".

أشار سليم إلى الجرسون أن يُحضر له الحساب ثم قال لها "تيجي نتمشّى شوية على الكورنيش قبل ما نرجع؟".

الفصل الثالث

في ضوء البلاك كالفادوس الخافت وقف علي وحده أمام البار يشرب كأسا من الفودكا البلفيدير. الكأس تلونت بألوان النيون المختلفة من أزرق إلى أصفر المنبعثة من أركان القاعة. وقف إلى جانبه شاب في منتصف العشرينيات نصف أمريكي ونصف فرنسي، يدعى إدجار ويدير المكان. تعرف إليه عن طريق أصدقاء مشتركين له من مصر كانوا يعرفون إدجار من خلال إجازاتهم في جنوب فرنسا حيث كان يدير بارًا في بلدة جوان لوبان قبل أن يستقر في باريس.

استدار علي من البار بحركة عفوية عندما فُتح الباب ليرى فتاة فارعة ممشوقة القوام تميل إلى النحافة، تتقدم إلى البار وتنظر إليه. كانت ترتدي بنطلون جينز مقطعًا من عند الركب وتي شيرتًا أسود دون أكمام وقبعة سوداء غطت جزءًا من عينيها المسحوبتين لفوق

وتركت إسدالة من شعرها الكستنائي القصير تظهر. تبع الفتاة شاب آخر فارع الطول شعره أسود طويل يقع على أكتافه ويرتدي قبعة سوداء أيضًا. لفت انتباه علي تشابه منظريهما ونظرات الاستهتار التي ترتسم على وجهيهما المتشابهين. ظن علي أنهما ليسا فرنسيين. ربما أمريكيان.

كان المكان حالك الظلام إلا من بعض الأضواء الفوسفورية الزرقاء، وموسيقى الديب هاوس بإيقاعها القوي السريع تجعل الحديث شبه مستحيل.

فوجئ علي بالوافدين يقتربان منه ليلقيا السلام على إدجار، ثم نظرت إليه الفتاة فهز علي رأسه وابتسم لهما. عرّفهما إدجار بـ"آن" و"كيفين"، ثم عرف علي بـ"صديقه من مصر"، فظهر عليهما الاهتمام وسألته الفتاة بلكنة أمريكية كاليفورنية خالصة "انت عايش هنا؟" فسارع علي بالإجابة "أيوه بقالي شهر هنا... جيت أخلص رواية باكتبها". ندم علي أنه سارع وتطوع بوصف ما يفعله في باريس ولكن اهتمام الفتاة زاد - كانت لأول وهلة تبدو لعلي هي وصديقها كأنما يخرجان من فيلم مصاصي دماء بوجهيهما ناصعي البياض ونظرتيهما الفارغة من كل شيء إلا مسحة حزن ثابتة لا تتغير.

بدا وكأن هناك هالة تغطي كليهما تجعلهما غير قابلين للاقتراب،

ولكن سرعان ما بدأت هذه الهالة تذوب تدريجيًا (على الأقل من الفتاة آن التي بدت مهتمة بـ"صديق إدجار المصري" كعنصر مختلف ربما عما تقابِل معظم الوقت في باريس)، بينما انشغل صديقها بالنظر إلى الزبائن الآخرين وبعض عارضات الأزياء اللاتي أخذن يرقصن في أماكن مختلفة من المكان.

سألته وهي تنظر إليه بعينين بدتا له لوهلة كأجمل شيء وقعت عليه عيناه في المكان، عينين لا تختلفان عن شعرها الكستنائي الذي أزاحته بحركة تلقائية ورفعته من فوق عينيها ربما كي لا يكون هناك حاجب بينها وبينه.

ورد إلى علي أنها قامت بهذا من أجله فقط فاغتبط وأحس لأول مرة منذ حضر إلى المكان أنه موجود بالفعل.

"روايتك عن إيه؟ والّا ما تفضلش تحكي عنها قبل ما تخلصها؟" سألته برقة منتهاه، ثم أضافت بكل بساطة "أنا لو مكانك يمكن كنت حافضل ما أتكلمش عنها قبل ما أخلصها".

"لا. أبدًا ممكن أديلك فكرة" أجابها علي بابتسامة مرحّبة "بس ناخد شِوط تيكيلا الأول.... إيه رأيِك؟".

"أوكي. ليه لأ؟".

طلب علي من البارمان أربعة شوطات من التيكيلا، فبعد أن

وصلت إليه باقي العمولة منذ أيام كان يظن أنه يستطيع أن يعيش كالملك في باريس. على الأقل لبضعة أسابيع سيعيش حياته التي عاشها قبل أن يفقد كل شيء في مصر.

بعدما قام علي وأصدقاؤه الجدد بطرق الأكواب الصغيرة بعضها في بعض والصياح "تشييييرز" وارتسام علامات القرف المعتادة بعد التيكيلا التي تتبعها ابتسامة بلهاء، سارع علي باستكمال حديثه مع آن "الرواية بتتعرض للتهميش اللي حصل في مصر لجيلي من سنة 2000 عن طريق المخدرات "الحكومة كانت بتشجع الشباب بشكل غير مباشر" "وعن التغييرات اللي حصلت بعد حرب العراق".

حاولت آن أن تبدي اهتمامها من خلال تضييق حاجبيها تعاطفًا مع ما يقوله، ولاحظ علي ذلك "لماذا أحكي لها عن تهميش جيل وهذا الحديث غير المناسب مع المكان؟" فقرر على الفور أن يقطع موضوعه "وأنت احكيلي بتعملي إيه في باريس؟".

نظرت إليه آن بعينيها الضيقتين المسحوبتين لفوق وأجابته بلكنتها الكاليفورنية "أنا وكيڤين بنشتغل مع چون جاليانو. بنطلع معاه في ديفيليهات من وقت للتاني. بقالنا سنتين في باريس".

بينما كان كيڤين مشغولا بالحديث مع إدجار تساءل علي عن طبيعة العلاقة بينه وبين آن. تبادل كيڤين النظرات ذات معنى مع الفتيات اللاتي كن يمرُرن أمامهم على البار. ربما هناك علاقة

مفتوحة بين الاثنين لأن علي لم يكن لديه شك أن آن مهتمة به وإلا لكان أحس على الفور أنه غير مرحب به وانسحب من البداية، وتساءل لماذا عيناها لا تغادرانه وتنظران إليه بكل هذا الاهتمام؟

لم تطل تساؤلات علي بعد أن مدت إليه يدها بورقة صغيرة مقفولة على شيء لم يتبينه وسألته بكل هدوء "تاخذ مولي؟".

ازداد شعور علي بالغبطة لظهور "الم دي إم إيه" داخل مكونات الليلة، لأنه يعلم أن الحب سيصبح غير مشروط، والحاجة إلى الكلام شبه منعدمة. مجرد أحاسيس تتطاير عبر الأثير لتحدد كل شيء دون أن يتدخل هو أو هي.

***

إيقاع الموسيقى اجتاح كل شيء. المكان والأشخاص أصبحوا لدى عليٍّ مجرد جزء من الإيقاع لا أكثر، والابتسامات أفضل طريقة للتواصل. فجأة تحول كيڤين الذي كان يبدو في البداية كشخص منزوٍ، إلى إنسان ودود، وكذلك الفتيات الفارعات الطول اللاتي كانِ جمالهن يشكل حاجزًا بينه وبينهن حتى لحظات مضت، أصبحن يتبادلن النظر معه، وبعضهن اقتربن منه أكثر من أخريات إلى درجة الملامسة عند مرورهن بشكل يبدو غير متعمَّد.

لم تبرح آن مكانها إلى جانبه. بدت سارحة في أفكارها معظم الوقت. تخفي عينيها تحت إسدالة شعرها ثم تحركهما بيدها لفوق

جبينها تحت قبعتها فتقابل نظرتها علي، الذي بدأ يفعل نفس الشيء تقريبًا، حتى أصبحت متعته أن يدير وجهه لفترة عنها حتى يحس أنه افتقد العينين الضيقتين في نفس اللحظة التي تحس هي فيها بنفس الشيء. لم يدرِ كم مر من الوقت وهو في هذه الحالة من اليوفوريا الخالصة. توقف الوقت داخل البلاك كالفادوس وكأنه داخل الخرم الأسود للكون حيث يمكنه تجاوز الزمان والعودة به للوراء إن أراد. لم يعد لأي شيء في الخارج وجود. حياته السابقة لم تعد موجودة. انحسر عالمه في عيني آن ونظرتها الحزينة الغامضة التي تعكس أحيانا ترحيبًا به وتبدو في أحيان أخرى خائفة من نظرته القوية... فاجأته آن عندما توجهت لـكيڤين وجذبته من ذراعه مشيرة برأسها تجاه باب الخروج، ثم عادت في مكانها إلى جانبه وهمست في أذنه "رايحين بار للأبسينت في الحي الـ 12، كيڤين حيلعب فيه ساكسوفون مع فرقته.. تحب تيجي معانا؟".

قالتها له بنبرة لا تدع مجالا للرفض ولم تتأخر موافقته بإيماءة "ياللا بينا".

***

وقف بار مان "كباريه العدم" وخلفه عشرات من زجاجات الأبسينت بألوانها المختلفة فوق أرفف خشبية معلقة بسلاسل من حديد مربوطة في السقف العالي. إضاءة المكان كانت باهتة لدرجة تثير الدوار قبل اللجوء حتى للأبسينت.

لم يتذكر علي أنه دخل مكانًا كهذا طيلة حياته. كل شيء في هذا المكان ينتمي إلى ما قبل الحداثة. بدءًا من البار مان ذي الشعر القصير واللحية الحمراء الذي يشبه ڤان جوخ كنقطتين من الماء (حتى إن علي استرق النظر إلى أذنيه ليتأكد أنهما موجودتان في مكانهما).

كمّ زجاجات الأبسينت المتراصة بألوانها المختلفة ونسب الكحول المختلفة داخل كل واحدة لم يكن الشيء الوحيد الذي استوقف علي. كانت هناك صورة بالأبيض والأسود لفتاة في الركن إلى جانب البار ترتدي زيًا كأزياء الممرضات اللاتي كن يعتنين بالجنود في مستشفيات فيردان الميدانية خلال الحرب العالمية الأولى.

الفتاة كانت آن.. نعم هي آن بالضبط، حتى إنه أخذ يبدل عينيه بين الصورة وبين الفتاة المستغرقة في أفكارها وهو يعجز أن يصدق ما تنقله إليه عيناه، ولكن الصورة الفوتوغرافية تنتمي بما لا يدع مجالا للشك إلى بدايات القرن الماضي. الرداء الأبيض وطبيعة الألوان المطفأة. وبينما هو يبدل عينيه بين الفتاة على الحائط وآن، وجد الأخيرة تخرج من أفكارها لأول مرة وترفع عينيها بكل جدية إلى الصورة ثم تحوّل نظرها إليه بكل صرامة سرعان ما تحولت لابتسامة واثقة وإيماءة.

خلال الأسبوع التالي لم تكن الصورة هي الشيء الوحيد الذي

رسّخ في ذهن علي المشوش أنه كان في مكان مسحور وسط أناس ينتمون لعصر آخر، مصاصي دماء عابرين للعصور. ولم تكن أيضا الأزقة الموحلة المظلمة التي مشوا فيها حتى يصلوا إلى كباريه العدم.

بعد أن صب لهم البارمان ثان جوخ المشروب الأخضر المسحور وحرق عليه قطعة السكر البنية، استدار علي ليجد الحائط المقابل للبار عليه تابوت ملاصق بالطول وهيكل عظمي بداخله يرتدي عباءة حمراء ويحمل سيفين فوق العظام مكان الكتفين.

لم تكن الهلوسة بالجديدة عليه، فهو يستطيع أن يميز هذا الخط الرفيع جدًا عندما تتجرد الأشياء وتنقشع الحواجز، ليرى من يريد أن يرى ما يختبئ خلف المسلمات التي تنكشف للعين في الوهلة الأولى.

تذكر أنه في الماضي كان من الممكن أن يرى نفس الأشياء التي يراها أصدقاؤه المقربون عندما يخرجون من القاهرة ويقتربون من الطبيعة في سيناء. ففي مرة مثلا، كان يقود سيارته ليلا في الطريق المؤدي لسيناء، وكان منهك القوى وبالكاد يرى معالم الطريق، عندما رأى إمرأة عملاقة تمر مع أطفالها وعندما قال لصديقه الجالس إلى جواره إن هناك امرأة، أكد الآخر أنها تصطحب أطفالها دون أن يقول له إنه رأى أطفالًا معها.

انبعثت الموسيقى من أنحاء المكان، تجمع بين الچاز وإيقاعات قبائلية وأصوات إلكترونية مصحوبة بأصوات نساء أخذت الطابع الأوبرالي. رائحة العرق امتزجت بالعطور المختلفة بعد أن انضمت لهم عارضتان للأزياء ممن كُن في البلاك كالفادوس منذ قليل. لم يمانع أن صديقته اتخذت جانبًا بعد أن أصبح في حالة من الألفة مع المكان تعدت الحاجة إلى توجيه كلام لأحد أو الاستماع إلى أي ثرثرة، ولم يهتز عندما لاحظ أن إحدى الفتاتين اقتربت من آن واحتضنتها بشكل حميمي، ثم تبادلتا حديثًا خافتًا.

ابتعد عن البار وطاف المكان. وقف كيڤين بمصاحبة فرقته يضعون معداتهم من درامز وبيس جيتار وساكسوفون في ركن من القاعة وخلفهم تابوت مفتوح وقف فيه هيكل عظمي آخر يرتدي خوذة حرب وتدلَّت سيوف فوق كتفيه وتدلت من السيوف جماجم أخرى صغيرة.

وقف وحده لوهلة وهو شارد يدخن سيجارته بمتعة واضحة، ودار في ذهنه أنه "لا بد أنني حُملت خارج الزمان والمكان. أو أن كل ما أراه لا يتعدى أفكارًا أو حلمًا غريبًا. كيڤين وآن الفامبيرز... ڤان جوخ الذي يسقيني نفس الشراب الذي أدمنه في حياته... ثم صورة آن المعلقة على الجدار، التي يرجع تاريخها إلى الحرب العالمية الأولى.. ثم عارضات الأزياء اللاتي يشبهن فتيات دراكولا، واقتراب إحداهن من آن بشكل مثير. وأخيرًا هذه

الهياكل العظمية لملك محارب وفارس من القرون الوسطى أو ما تبقى منهما. يبدو أن هذا الملك يمتلك ويحكم هذا المكان السُفلي. ربما أنا ما زلت داخل شقتي في الزمالك بالقاهرة، وكل هذا حلم. لم أغادر إلى باريس ولم أترك حياتي كلها خلفي. كل ما أرى لا يتعدى أن يكون أضغاث أحلام سأفيق منها قريبًا وأجد نفسي وسط أصدقائي القدامى في شقتي بالقاهرة فنضحك ملء أفواهنا مما رأيناه. كلٌ بطريقته، ثم أستيقظ غدًا وأنا كاره لحياتي، فأتجه إلى المكتب عند أبي وأقابل شركاء وعملاء وأمثِّل دوري باقتدار، أو على أفضل وجه ممكن وأنا كاره لنفسي أيضا. ولكنني سعيد هنا ولا أحس بالغربة. موسيقى الچاز هذه مصحوبة بإيقاعات قبائلية تغمر وجداني. وهؤلاء حولي (أيا كان جنسهم) أحس بألفة معهم أكثر مما كنت أحس مع أهلي في الفترة الأخيرة.

وهناك سلام يصاحب هذا الغموض المحيط بالمكان. سلامٌ لا يحتاج إلى كلام.. نعم وها هي موسيقى المكان توقفت لتحل مكانها ألحان كيڤين وفرقته. روك آند رول.. لمَ لا؟ نعم، عرفت لمَ الغبطة. سواء كان ما أحضره الآن حلمًا أم واقعًا، فمن المؤكد أنني الآن أعيش، بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ".

***

جلس علي القرفصاء إلى جانب آن على أرض شقتها بجزيرة سانت لويس في وسط باريس. كان الليل ما زال يغطي بإسداله كل شيء في هذه الليلة الصيفية الحارة. تشابكت أيديهما وهما يستندان إلى الحائط ويحلقان في سقف حجرة المعيشة المرتفع. تبين لعلي من خلال ضوء أباجورة خافت بعض الأثاث المتناثر في أركان الحجرة. وضعت آن جهاز اللاب توب الخاص بها في الركن المقابل لهما وأدارت بعض الأغاني الفرنسية القديمة الهادئة.

"ممكن تحكيلي عن كباريه العدم؟".

"بار أبسينت بنروحه ساعات أنا وكيڤين. عجبك؟".

"أيوه عجبني بس عايز أفهم... مين دول؟" قالها علي وهو يُرجِع رأسه للوراء أكثر "البار مان ليه شبه ڤان جوخ؟" ثم وهو ملتفت إليها "والصورة.... الصورة".

سحبت يدها من يده وسألته وهي تتجاهل أسئلته وكأنه يحدث نفسه "تاخد ويسكي؟ عندي بواقي إزازة".

أجابها عليّ بنبرة استسلام "أوكي. هاتيها".

قامت آن لتحضر له الزجاجة فبدت أجمل مما رآها في البداية. انعكس الضوء على وجهها فظهرت عيناها الضيقتان كأنها أميرة من الهنود الحمر فارعة الطول تتحرك بخفة لم يلحظها وهي في

وسط الزحام. ورد إلى علي أنها بالتأكيد تنحدر من الهنود الحمر. قال لها وهو ليس متأكدًا مما يقول "عيناك ضيقة زي عينيّ. إنت منين أصلا؟ متأكدة إنِك أمريكانية خالصة وايت-أنجلو-ساكسون-بروتستانت؟ شكلك فيك حاجة هندي أحمر أو يمكن جذورك زيي من آسيا الوسطى".

نظرت إليه بشيء من الدهشة المتعمدة وهي تبتسم "إنت بتجيب الأفكار دي منين؟ جدودي راحوا أمريكا من ألمانيا وأيرلندا. ما فيش هنود في الموضوع".

"طيب ارجعي لورا شوية.. مش عارف.. يمكن حصل وأنت مش عارفة".

"كل اللي أعرفه إن جدي الكبير طلع نيويورك من 150 سنة وبعدين اتجه على كاليفورنيا مع الاندفاع اللي حصل لما اكتشفوا الدهب".

"ولقى دهب؟".

"جدي كان بيحكي لي إن جده لقى دهب فعلا وعمل مزرعة وبنى بيت وبعدين اتقتل في هجوم من الهنود الحمر..".

"أنهي قبيلة؟".

"حيهمك في إيه أنهي قبيلة؟ يمكن قبيلة التاراهومانا. عارفهم؟". نظرت إليه بتحدٍ وهي تسأله.

"إحكى لي".

"إنت بتجري صح؟".

"آه في الشان دو مارس وإنت كمان.... صح؟... بتجري فين؟".

"على الكي دو سين.. بتجري كام كيلو في المرة؟".

"3 - 6 كيلو.. وإنت؟".

"تقريبًا وساعات عشرة... قبائل التاراهومارا عايشة في نيو مكسيكو وعندهم القدرة يجروا 450 ميلًا في يومين يعني 724 كيلومترًا. بيجروا حافيين أو لابسين صنادل خفيفة.. العلماء مش قادرين يلاقوا تفسير واحد للموضوع ده غير إنهم عندهم قدرات غير عادية".

نظرت إليه لترى آثار الدهشة على وجهه، ولكنه استكمل غير عابئ. وكأنها تحكي له عما اشترته في جاليري لافاييت أو أي قصة أخرى عادية.

"أنصاف آلهة يعني.. بس الرجل الأبيض جيه قضى على أنصاف الآلهة ونصّب نفسه إله.. تفتكري ليه جسمهم بيساعدهم على الجري ده كله؟".

"لأن حياتهم قايمة على الصيد زي الإنسان الأول ولازم يجروا

في نفس سرعة الحيوانات اللي بيطاردوهم لحد ما ينهكوهم".

ردد علـــي جملة كان يحب ترديدها كثيــرًا بالإنجليزية قبل أن يرحل عن مصـــر "صيادين ومُحَصِّلين... صياديــن ومُحَصِّلين. الإنسان إما صياد أو مجرد مُحَصِّل".

"متأكدة إن ما حصلش تزاوج بين جدودك وحد من القبيلة؟".

نظرت إليه بجدية وهي تقول له "لأ متأكدة إن جدودي قضوا على قبائل كتير.. ده اللي متأكدة منه بس. المهم مين بيطور أدوات الصيد ومين أسرع في ضغط الزناد مش بس في الجري... لكن كفاية حديث عن قبائل الهنود الحمر واحك لي عن القبائل اللي إنت نازل منها في آسيا الوسطى" - ثم مستدركة نفسها كالطفلة الصغيرة التي تذكرت شيئا بدهيًا في لعبة تلعبها - ". لازم تقول لي إنت جِت باريس هاربان من إيه؟".

اعتدل علي في جلسته مرة أخرى ليخرج علبة سجائره من جيب بنطلونه، وبعد أن شمر عن ساعديه وأشعل سيجارة، أخذ يحكي لها أشياء كثيرة لم يتذكرها في اليوم التالي عن حياته في مصر وعن عمله السابق، وعلاقاته أو بعض منها. ظن أنه أخرج كل ما في جُبتَّه كأنه يسدد لكمات في الهواء ينِّفس بها عن غضبه، وكان من وقت للآخر يسألها "إنت شايفة إن أنا بني آدم وحش يعني؟". سألها هذا السؤال أكثر من مرة، فلم تجبه، ولكنها اقتربت منه وجلست

أمامه لتواجه ركبتاها ركبتيه، وسألها : "عمرِك رُحت مصر؟".

"لأ بس إريك أخويا راح مع صاحبته من عشر سنين. كان عنده شغل... تصوير. كان بيصور مظاهرات التضامن مع الانتفاضة. إريك كان بيغطي وبيبعت لنيويورك تايمز" - مرت سحابة حزن على وجهها فجأة. حزن لم يكن علي رآه بهذا القدر على وجهها حتى هذه اللحظة - "راح إسرائيل يغطي بداية الانتفاضة وبعدين طلع على القاهرة يغطي المظاهرات هناك".

لاحظت آن التغيير في وجه عليّ فسألته "إنت حضرت الكلام ده؟".

اكتفى بإيماءة وسرح بعض الوقت قبل أن يفيق من هواجسه على صوت آن وهي تناديه "هي هي... إنت رحت فين؟ أكيد إنت مش هنا علشان تكتب رواية وخلاص. كلينا موجدين هنا هربانين من حاجة أو في انتظار إنه يحصل حاجة ما بتحصلش. صح؟".

اقتربت منه لدرجة عرف منها أنها ستقبّله، ثم غابا في قبلة طويلة أخذته بعيدًا ولم يدرِ كم من الوقت استغرقت ورجع مرة أخرى عندما أبعدت وجهها وتمتمت "إريك... إريك غطى كل حاجة من البوسنة للانتفاضة لحرب العراق..".

"وبعدين؟" سألها عليّ مستعجبًا لإصرارها عن الكلام على أخيها رغم انتهائهما من موضوعه من فترة.

"إريك مات في 2006".

طيلة حياته لم يعرف علي طبيعة رد الفعل المطلوبة منه في موقف كهذا، فأجاب باختصار "آسف.. آسف".

ولكنها لم تعره انتباهًا وأكملت "إريك بعد ما رجع من العراق. صاحبته دخلت عليه في شقتهم في مانهاتن لقيته قاطع شريان من إيده في الحمام".

ساد بعدها بينهما صمت ثقيل وبدأ ضوء النهار يتسلل من خلال إسدالات الستائر الماركيزيت الشفافة، وأنذر تغريد العصافير بيوم جديد، وظهرت الشقة فارغة وباردة أكثر من ذي قبل، ورأى علي الكراتين المليئة ببعض الرفائع والفرش المغطى، فانتابه قلق لم يستطع تفسيره، ثم تبادلا قبلة أخرى طويلة قبل أن تدفعه برفق وهي تردد في أذنه "مش حينفع.. مش حينفع".

لم يجاوبها ولكن تعبيرات وجهه أفصحت عن تعجبه من ابتعادها المفاجئ، فقالت له بكل بساطة "أنا لازم أسيب الشقة دي كمان كام ساعة. عايز تعرف ليه؟ تعالى أورِّيك" ثم جذبته من يده نحو غرفة نومها، وفتحت باب الغرفة بحركة نمت عن بؤس أكثر من أي شيء آخر.

رأى علي كمية كبيرة من البدل الرجالي مطروحة على الفراش وحقيبة كبيرة خاوية وجاهزة لترتيب هذه الملابس فيها. على التسريحة

رأى مجموعة من البراويز لصور لآن ورجل ملامحه أقرب لملامح سكان أوروبا الشرقية يتخطى الستين من عمره بالتأكيد، وتغلب الصرامة على تقاطيع وجهه في جميع الصور.

قطعت آن تأملاته قائلة "دي شقته ولازم أخليها قبل بكره. هو مسافر دلوقت بس قرر ينهي علاقته بي نهائيًا وطلب مني في التليفون إنني أفضّي الشقة قبل بكره.. يعني النهارده. وفيه ناس من عنده في المكتب جايين يستلموا كمان كام ساعة".

"طيب وحتعملي إيه؟ فيه مكان تقعدي فيه؟ تحبي تيجي تقعدي عندي في ڤوچيرار لحد ما تلاقي مكان تاني؟".

خرجت هذه الكلمات من علي بسرعة لاحظها فقط بعد فوات الأوان إلا أن آن هزت رأسها بإباء رافضة عرضه "اتفقت حاقعد عند كيڤين لحد ما يبقى معايا فلوس كفاية من عرض أزياء جديد علشان أأجر شقة جديدة... مش لازم في جزيرة سانت لويس" - قالتها ورفعت شفتها بسخرية، ثم بحسم أفقده توازنه - "دلوقت عايزاك تروَّح لو أمكن لأنني محتاجة أريّح ساعة أو اتنين قبل ما عمال شركة النقل ييجوا".

***

خلت الشوارع المحيطة بمنزل آن إلا من بعض المحلات السياحية الصغيرة التي فتحت أبوابها، وأخذ أصحابها ينظفونها وينظرون

إلى علي باستعجاب لم يفته. كانت أفكاره مشوشة وبزوغ الشمس في السماء لا يساعده على تجميع شتات أفكره. أخذ يفكر "ماذا لو كان رجع منزله بعد كباريه العدم بدلا من أن يواجه نهار باريس وهو في هذه الحالة؟ لماذا وافقها على مصاحبتها بعد كل ما رآه فيها من سلوك عجيب خلال الليلة؟ هكذا هو دائمًا.. يضع نفسه في مواقع يعلم أن الخروج منها عسير. يجري وراء رغباته حتى يُقارب الهوة. انتابه شعور أنه تحول لمصاص دماء مثل هؤلاء الذين قضى معهم ليلته. ضوء النهار الصيفي يكاد يقتله. ود لو أن هناك اختراعًا يسمح له بأن ينتقل إلى حجرته وسريره مرة واحدة دون أن يتعامل مع أحد في مواصلات أو يواجه أحدًا من جيرانه وهم متجهون إلى أعمالهم. وروبير... كم يرجو أن لا يرى روبير وهو في هذه الحالة. سيمسكها ضده لا محالة. لن يقول له شيئًا. سيرمي عليه السلام وكأنه لم يلحظ حالته الرثة، ولكنه سيرمي له كلمة خلال لقائهما القادم بسخريته الباردة. هكذا هم الناس في باريس. هكذا الباريسيون. لا أحد يتدخل في شئون الآخر بشكل مباشر، ولكن هناك دائما طريقة غير ملحوظة لا يعرف كيف يصفها لنفسه، ولكنها هكذا مختلفة عن الطريقة التي يتدخل بها الجميع في حياة بعضهم في مصر بشكل خانق. هنا يتدخلون بحساب، ولكنهم يسجلون نقاطًا عند الضرورة....

أهم شيء الآن هو أن يجد أي وسيلة للعودة إلى منزله وأن يدعه من أي مصدر آخر للقلق.

هناك أربعة كبارٍ تصل جزيرة سانت لويس بالضفتين الغربية والشرقية للمدينة. الشقة التي قابل فيها علي آن كانت أقرب إلى جنوب الجزيرة. سلك كوبري سولي الذي يخترق الجزيرة من طرفها الجنوبي إلى الضفة الشرقية بدلا من أن يأخذ الاتجاه الغربي الذي يقربه من منطقته السكنية. وجد نفسه على رصيف هنري الرابع. حاول أن يستوقف تاكسيًا ولكنهم لم يعيروه أدنى اهتمام. كل شيء حوله يجري بسرعة لم تستطع قدراته العقلية بعد ليلة كهذه أن تحصلها. رجع يسارًا لعله يستطيع أن يدرك المترو ويغير عددًا من المحطات حتى يصل إلى محطة ڤوچيرار. على الناحية الأخرى من الطريق وجد أمامه محطة سولي-مور لاند، ولكنه رأى اندفاع الناس من فتحات المترو وأعدادهم الغفيرة، فتراجع عن الفكرة. وبعد أن عبر الطريق أخذ يهيم في جميع الاتجاهات حتى وجد نفسه في شارع ريفولي. نظر في ساعته. شارفت الساعة على التاسعة صباحًا "اللعنة.. اللعنة" أخذ يردد في نفسه. دخل إلى الشارع العمودي على ريفولي واحتمى إلى جانب كنيسة سانت بول، ثم لمح موقفًا للسيارات الأجرة، فخُيِّل له في البداية إنه وهم إلى أن اقترب ووجد سيارة بيجو أجرة بالفعل داخلها سائق أربعيني جلس يقرأ الجريدة ولم يلتفت إليه عندما قرع على الزجاج كاملا. اكتفى بإشارة من يده يدعوه للدخول، وقبل أن يُكمل دخل علي وقال له بصعوبة بالغة "ڤوچيرار.. عند كنيسة سانت لامبير لو سمحت".

***

في اليوم الذي تلى ليلة كباريه العدم لم يحاول علي الخروج من شقته إلا لشراء احتياجاته الأساسية من غذاء. استيقظ على أجراس الكنيسة الاثنى عشر. لم ينم إلا ساعتين كانتا كل ما يحتاج ليفصل بين هوَّة الليلة السابقة واليوم الجديد. تناول قطعتين من علبة للبسكويت ملقاة إلى جانب حوض المطبخ واجهّز لنفسه فنجانًا من الإكسبريسو، ثم وقف وراء النافذة يتأمل الشجرة الملاصقة لسور الكنيسة ويرشف قهوته وينفث دخان سيجارته الأولى بصعوبة بالغة.

بعد أن انتهى من حمّامه جلس أمام المنضدة الصغيرة التي يتخذها مكتبًا. حاول تنظيم أوراق روايته المتناثر وأمسك قلمه ليخط به كلمات لم يستوعب معناها. أفكاره ظلت أسيرة ليلة الأمس، فاتجه مرة أخرى إلى النافذة ووقف يشاهد عروسين يخرجان من البوابة الرئيسية للكنيسة بجوار القسيس الذي أتم الزيجة ووسط صيحات فرحة عائلاتهم وأصدقائهم الذين وقفوا يستقبلونهم أمام السلالم. وجدهما علي على قدر كبير من الجمال، أو ما استطاع أن يرى من المسافة التي تفرق بينهما. بديا لم يتجاوزا منتصف العشرينيات. ارتدت الفتاة فستانًا أبيض ديكولتيهًا بسيطًا ووقعت خصلات شعرها الأشقر على كتفيها العاريين، أما هو فشاب نحيف وجهه ما زال يحمل تعبيرات الطفولة وفرق شعره البني من الجانب.

"إنه حلم الطبقة المتوسطة الفرنسية الجميل. العالم كله يرى

أن الفرنسيين شعب يعيش على الملذات والمتعة، وأنهم يرفضون الحياة المؤسسية، ولكنها صورة خاطئة تمامًا" - هكذا أكد علي لنفسه - "لقد تم تصدير صورة منبثقة من الحياة الثقافية والفنية التي تلت الحرب العالمية الثانية. حياة مارجريت دوراس أو كامو أو سارتر أو جان جيني. هؤلاء لا ينتمون للشريحة العظمى في المجتمع الفرنسي. مثقفون ما بعد الحرب العالمية الثانية انحسروا في الحي اللاتيني وأحيانا في مونمارتر، وانتشرت أعمالهم وقبلها أعمال الكتّاب الأمريكان الذين عاشوا السنوات المجنونة في باريس بين الحربين. هؤلاء كلهم كانوا حالات فريدة ولكن وجودهم من خلال الأدب والفن أعطى حياتهم؛ التي لا تخضع لأي مقاييس، بعدًا أكبر من البعد الحقيقي. أما الفرنسيون الحقيقيون فهم أولئك الذين يراهم الآن أمام الكنيسة، يتزوجون وهم تقريبًا أطفال ويتمتعون بالتأمين الاجتماعي والتعليم المجاني لأطفالهم، ويشكون من كل شيء ويسافرون لقضاء إجازتهم بأبخس الأسعار مرتين في السنة. مرة في مخيمات بجنوب غرب فرنسا في فصل الصيف والأخرى ليتزلجوا على الجليد في الشتاء (أو مع انخفاض أسعار الطيران إلى جنوب أوروبا)".

وضع علي يده تحت ذقنه وهو يمشي في الصالة الصغيرة ذهابًا وإيابًا "ماذا لو أن كل ما حدث بالأمس ليس حقيقيًا؟ ربما آخر شيء حقيقي حدث هو وجوده في البلاك كالفادوس ومقابلته لإدجار لأنه

يعرف إدجار عن طريق ناس من (مجتمعه في مصر). من الدوائر المقربة كما كان يحلو له أن يصفهم قبل سفره. لا بد أن كباريه العدم هذا من وحي خياله، وكذلك البارمان ڤان جوخ والهيكل العظمي للملك المحارب وفتيات دراكولا وآن وكيڤين بالتأكيد يأتون من حقبة أخرى ولا يموتون، وإلا فماذا يفسر الصورة المعلقة لآن في المكان، وهي ترتدي زي ممرضات الحرب العالمية الأولى؟ الصورة قديمة بلا شك... ولكن كيف ينام على هذا العالم السُفلي ويستيقظ على حفل زواج لعروسين من الطبقة الوسطى في الكنيسة وكأن شيئًا لم يكن؟"، نظر علي إلى الكنيسة بتمعن وتخيلها وقت الثورة الفرنسية. "لقد سمع أن مكان هذه الكنيسة كانت هناك كنيسة أخرى حتى منتصف القرن التاسع عشر، وأن الثوار اقتحموا تلك الكنيسة وقاموا بقتل القساوسة وأقاموا الحفلات الماجنة على المذبح. وهو يؤمن أن الطاقة تبقى في أي مكان، لذا فقتْل رجل دين في مكان عبادته عمل دموي تبقى آثاره في المكان مهما حدث، وقد تختلط الطاقات وتغلب الطاقة الإيجابية أحيانا ثم تنزوي".

فكر أن يغادر منزله ويستغل المناخ الصيفي ليتسكع بين كافيه وآخر، ولكنه غيَّر رأيه سريعًا لأنه لم تكن لديه القدرة أن يتعامل مع إنسان حتى لو كان جرسونًا سيتلقى منه الطلب فقط.

دق جرس التليفون فانتفض علي من أفكاره وتخيل لثوانٍ أنه ما زال في عالم موازٍ لأن أحدًا لا يعلم تليفون منزله "آه... ربما

روبير، ولكن لماذا يتصل به روبير الآن؟ لقد دفع الإيجار وباقٍ أسابيع على الإيجار الجديد".

جذب سماعة التليفون في تردد وجاءه صوت عرفه على الفور. صوت أبيه هادئًا وبعيدًا كعادته "إزيك يا علي".

"الحمـــد للـه. إزيك إنـــت؟" جاء صوت علـــي متحفِّظًا وبعيدًا أيضًا.

غالب أبوه تأثره وأجابه باقتضابه المعتاد "كويس باطمِّن عليك. عامل إيه في باريس؟".

"كويس كويس.. لقيت شقة والدنيا ماشية".

جاءه صوت أبيه كما يعرفه، عمليًا. لا يعطي لمشاعره فرصة أن تظهر. ينتقل إلى احتياجات الحياة الأساسية لتفادي الصمت غير المريح أو الخوض في مواضيع يعتبر الأب الخوْض فيها من المحرمات.

سأله أحمد كمال مباشرة "عايش إزاي؟ بتصرف منين؟".

سؤال أبيه أثار كبرياءه وكرامته، فهو يعلم ما وراء السؤال ولكنه جاوبه ببرود "خلصت بيعة قبل ما أسافر قبضت عمولتها ومعايا قرشين محوِّشهم من أيام الشغل".

"طيب مش ناوي تنزل مصر قريب تشوف العيلة؟".

"مش دلوقت خالص". لم يستطع أن يمنع نفسه أن يكون صوته أكثر برودة من بداية المكالمة. فأجابه أبوه "لو احتجت حاجة كلمني".

انتهت المكالمة وظل علي يسأل نفسه "هل كان لديّ حق أنني انفصلت عنهم؟ أم أنني تجنَّيت عليهم؟ هل كان يجب أن أصبر؟ ولكن أصبر على ماذا؟" من أعطاهم الحق أن يحاكموني ويصدروا الأحكام دون أن يعطوني الفرصة لأدافع عن نفسي؟".

ثم وهو يتجه إلى السرير مرة أخرى، أخذ يردد في سره "الموضوع هو أن أفكاري لا تتفق مع أفكارهم ولن تتفق. أنا الصعلوك الذي يطالب بالعدل ولا ينصاع لأحد".

الفصل الرابع

وقف أحمد كمال بجوار زوجته أمام مائدته التي تتوسط المكان شاردًا. محاولاته لمجاملة الناس يمينًا ويسارًا لم تخف تعبيرات الملل على وجهه النحيل. المجتمع المصري كله وجد في هذه الليلة من منتصف يوليو في مطعم أندريا بقرية هاسيندا بالساحل الشمالي للاحتفال بخطوبة فرح ابنة مجدي حسان تاجر الأخشاب وكريم ابن سامح رشاد أحد قيادات الحزب الوطني.

توزع المدعوون الذين تم اختيارهم بعناية فائقة على مختلف الموائد التي اجهزها صاحب المكان. الأضواء تحت كل مائدة تنوعت ألوانها من أزرق إلى أبيض وفوشيا ووُضعت ورود التيوليب بألوانها المختلفة. الفتيات ارتدين فساتين قصيرة صيفية تبرز اسمرار بشرتهن من الشمس، والشباب أغلبهم ارتدوا بنطلونات من التيل وقمصانًا بيضاء خارج البنطلون أو تي شيرتات سوداء. توزع الأصغر سنًا

حول البار بينما جلس أهل العروسين وأصدقاؤهم حول الموائد. وأخذ الجرسونات ذو الأصل النوبي يذهبون ويحضرون بطلبات من المطبخ مثل النحل غير مختلطين بالمدعوين.

المدخل ذو البوابات الزجاجية للمكان خلف قاعة لها مدخل آخر على طريق العلمين، وهناك طريق فرعي ومساحة لركن السيارات وأحواض عملاقة للزرع تفصل بين المنتجع والطريق السريع، ثم هناك البدو يحرسون المكان جيدًا من الخارج دون أن يظهروا للمدعوين.

دخل سليم رياض وشقيقه أحمد مع زوجته من الباب الرئيسي ومرا فوق مشاية مكونة من أحجار متفرقة فوق حمام سباحة صغير يؤدي إلى البار. اعترضهم صاحب المكان، فلاحظ أبو العروس وهرول تجاههم ثم همس في أذنه بعد أن صافحهم في عجالة "دول ولاد خالة نهلة مراتي"، فأدار الأخير وجهه وذهب يحييِّ مدعوين آخرين يعرفهم دون أن يلتفت إليهم مرة أخرى. تسمر سليم في مكانه دون أن يلبي دعوة مجدي حسان للدخول، ونظر إلى صاحب المكان بتعجب وشيء من القرف فجذبه أخوه للداخل نحو البار.

في حين وقف سليم يشرب من كأس الويسكي بيده ويتأمل ما حوله، اختلط أخوه أحمد وزوجته ببعض أقاربهم الموجودين. "من هم هؤلاء الناس؟ قبل أن أرحل إلى لندن لم أكن أرى أغلب هذه الوجوه في أي مكان أخرج فيه. متى ظهر هذا المجتمع وهذه

المنظومة والترتيب الاجتماعي الجديد؟. قريبتي نهلة وزوجها هذا المسخ الذي يشبه البنجوان في أفلام بات مان كانوا منذ عشر سنوات بالكاد يعيشون من تجارة صغيرة ورثها مجدي عن أبيه. كانت العائلة كلها تتعجب كيف أن فتاة مثل نهلة ومن مستواها الاجتماعي وعلى قدر كبير من الجمال ترضى أن تتزوج من هذا البهلوان!". قطعت عليه نهلة أفكاره وجاءت تحتضنه مرحبة "أخيرًا شّفتك.. ياه.. سنين يا سليم".

أسعدته رؤية ابنة خالته أكثر مما توقع، وعندما ظهرت ورغم كل التغيرات التي طرأت على وجهها من عمليات تجميل وبوتوكس فإنه لم ير إلا نهلة قريبته التي تكبره بثماني سنوات، التي كانت تحضرها أمها مع أخواتها مرة في الأسبوع ليلعبن معه هو وشقيقه في حديقة منزلهم بالمعادي، وكان دائما ينظر إليها بإجلال وحب وكانت هي تعطيه أهمية أكثر من أخيه.

"إنت عاملة إيه. ما شوفتكيش من ساعة...".

"العزا أيوه... بس متابعة أخبارك أولًا بأول. خالتي بتحكيلي على كل حاجة في التليفون".

أدار وجهه بعض الشيء كعادته عندما يقرر تفادي الخوض في موضوع، ولكنها بدت مصممة وتعلم أن لديها من العشم عنده ما يجعله يتقبَّل سؤالها "ابنك عامل إيه؟".

"كويس. ما شوفتوش من كام شهر. بنبعت لبعض إيميلات".

"مش حتروح تزوره قريب؟".

بدا على وجه سليم التململ من الأسئلة، فتداركت ابنة خالته نفسها، وأخذته من ذراعه إلى مجموعة الشباب الموجودين في الناحية الأخرى من البار "تعالى بارك لفرح. آهي واقفة هناك مع أصحابها" ثم موجهة حديثها إلى فتاة ظهرت أقرب إلى الطفولة "فرح، تعالي قولي هالو لسليم".

تعجب سليم بمدى تشابه فرح بأمها منذ عشرين عامًا، فابتسم لها رغم تأففه من كل ما يحيط به الليلة وقبّلته على وجنتيه فهمس لها "مبروك" ولم يجد ما يضيفه ولم تجد الفتاة أيضًا ما تقوله لقريب أمها هذا الذي لم تره إلا بضع مرات في حياتها، فاستدارت ورجعت إلى أصدقائها مرة أخرى وذهبت نهلة في اتجاه ضيوف ظهروا من اتجاه المدخل، فاتجه سليم إلى البار، وأحضر كأسًا أخرى من الويسكي ثم أخذ يتجول بين الناس يشاهد ويستمع إلى ما يدور حوله.

لمح سليم مجدي حسان في ركن المطعم، واقفًا مع رجلين يدخنان سيجارًا ومعه صهره كريم فاقترب منهم ولم يلتفتوا إليه لانشغالهم بحديث وصلت أطرافه إليه دون أن يبذل أي مجهود للاستماع. أصواتهم علت لتتحدى الضوضاء حولهم.

تحدث أحدهم، رجل في بداية الستينيات من عمره تميزه سوالف رمادية طويلة، مستعرضًا "السهم النهارده مسمع حلو أوي بعد ما السوق سمع إن إحنا دخلنا اشترينا".

أجابه مجدي مبتهجًا "أحسن حاجة حصلت موضوع الشرا ده".

تدخل الرجل ذو السوالف الرمادية اللون قائلا بحزم لم يفت سليم "بس الموضوع محتاج نتقل عليه شوية. البيع مش قبل أول السنة".

أكد كريم بنفس ابتهاج حماه المصطنع "مش مهم إحنا عاملين له تقييم ممكن يخليه يستحمل تقلبات السوق، وبعدين السوق ماسك نفسه وما فيش سبب يخلينا نقلق. قبل آخر السنة، أنا حاتأكد إن إحنا نطرحه في دبي والخليج. وبعدين الأراضي الجديدة اللي دخلت الشركة لما تدخل الميزانية الموضوع حيفرق تمامًا".

ربت مجدي حسان على كتف صهره الجديد، وضحك ضحكة بدت لسليم مصطنعة وجافة وهو يقول له "ياللا أنتم الخير والبركة".

ازدادت حالة القرف لدى سليم "إن ما يتحدثون عنه ليست له صلة بتجارة الأوراق المالية من بعيد أو قريب. هذه مجرد تربيطة ساذجة لأناس ينظرون تحت أقدامهم فقط، ثم إن كريم هذا خطيب ابنة نهلة يبدو له كطفل مدلل ووصولي أيضا، والفتاة فرح يبدو أنها

لا تفهم شيئًا مما يحدث. لم تخرج معظم حياتها من الكومباوند الذي يسكنونه. هؤلاء الناس يعيشون في عالم افتراضي لا يعلم هو عنه شيئًا. عندما ترك مصر لم يكن هذا العالم الافتراضي قد وُجد. ربما كان في طور التكوين ولم يلمحه لأنه كان مشغولا بأشياء أخرى. انشغل وقتها بالنظر إلى الغرب وتطلع إليه فغض النظر عما يتكون في الداخل".

نظر سليم يمينًا من البار فوقعت عيناه على أحمد كمال. عرفه منذ أن كان مع علي في فصل واحد. يراه في أعياد ميلاد ابنه. لقد سمع من أمه أن شركته توسعت، وأنه بعد أن ترك العمل الدبلوماسي تفرغ للتجارة، وأصبح مع الوقت يتحكم في جزء لا بأس به من سوق الأوراق المالية ويسهم في تنمية مشروعين عقاريين. ربما يجد عنده فرصة لعمل. ولمَ لا؟ إنه يمتلك خبرة نادرة في أسواق أكثر تطورًا، وقد يستفيد منه أحمد كمال إن كان عمله في طور التوسع.

أكمل سليم تمشيته وسط المدعوين دون أن يحزم أمره إن كان سيذهب إلى أحمد كمال يذكره بنفسه أم لا. لاحظ سيدتين ترتديان جيبات قصيرة لا تتناسب مع عمريهما، وظهر على وجهيهما نفس شكل الانتفاخ الناتج عن عمليات تجميل جعلتهما متشابهتين بقدر كبير. كانتا تقفان إلى جانبه خلف البار وتسترقان النظر إلى أحمد كمال وهما منهمكتان في نميمة استطاع سليم أن يميز ما فيها.

"بيقولك ابنه سافر مرة واحدة بقاله كام شهر وما رجعش تاني".

"ما هو الظاهر كان مجننه... سـمعت إنه بيشـرب كتير ولما بيشرب بيعمل مشاكل وأبوه مش ناقص اليومين دول لأنه محطوط تحت الميكروسكوب".

"أنت أكيد أدرى. ده جوزك اللي قالِك الكلام ده؟".

"أيوه طبعًا. فيه تقارير بتترفع وحسن جوزي بتعدي عليه كلها. بيقولوا علي ده تفكيره شيوعي كمان، ولما أبوه طلع في الحزب جامد، الموضوع عمل مشاكل جامدة".

لم يسمع سليم آخر جملة وفضّل أن لا يكمل حتى لا تنتبهان إليه ثم استجمع شجاعته وترك كأس الويسكي على البار قبل أن يتجه إلى مائدة والد علي. أحاطت بالرجل هالة تجعل الاقتراب إليه ليس بالأمر السهل. تجنبه المدعوون واكتفوا بتحيته من بعيد. تم تقريب أحمد كمال من الدوائر العليا في الفترة الأخيرة بسرعة أذهلت الجميع. قيل إن السبب في ذلك، أنهم في الدوائر العليا يريدون تحسين الصورة بعد أن فاحت رائحة كثير من المحيطين بهم. لم تكن لأحمد كمال أية نزوات تؤخذ عليه. رغم كرهه للمماطلة وتعاملاته المباشرة، فإنه غض البصر عن الممارسات الفاسدة حوله، وانصب تركيزه في عمله ثم في الحزب.

"أهلا إزيّ حضرتك؟" قالها سليم ومد يده إلى أحمد كمال، فنظر الرجل إليه بتفحص قبل أن يمد يده إليه بشكل آليّ وابتسامة متحفظة، مما دفع سليم بتعريف نفسه قائلا "أنا سليم رياض حضرتك. زميل علي في الفصل".

اتسعت إبتسامة الرجل بعض الشيء وأومأ متذكّرًا "طبعًا طبعًا.. إزيك يا سليم؟".

"تمام حضرتك. كنت عايش في لندن بقالي عشر سنين ورجعت قريب".

"وإيه اللي رجّعك؟ حد يرجع دلوقت؟" قالها أحمد كمال وضحك بشكل غير متوقع مما جعل سليم يقلل من حدة توتره بعض الشيء ويجاوبه ساخرًا "عبط بقى. أعمل إيه!".

أجابه أحمد كمال بشيء من السخرية"طب ما أنت فيها يا بني. الحق نفسك وارجع قبل فوات الأوان".

ورد إلى سليم أن الرجل ليس كما يبدو غير قابل للاقتراب، وأنه ربما لديه نفس دوافع النفور التي لديه من المناخ بالحفلة ومن بعض أنصاف الناس الموجودين، فتشجع وأسهب في حديثه موضحًا له طبيعة ما كان يفعله ربما يجد عنده رغبة في ضمه إلى شركاته "كنت أدير شركة أوراق مالية وطبعًا بعد وقوع السوق في آخر 2008 وتصفية ليهمان براذرز وشركات تانية، شغلي اتأثر، فقفّلت الدنيا ورجعت. السوق هنا لسه متماسك وفيه فرص".

نظر إليه أحمد كمال باهتمام أكثر ومط شفتيه بجدية كعادته عندما يقرر شيئًا مهمًا ثم قال له بكل بساطة وهو يمد له يده بكارت "كلمني في المكتب بعد الويك-إند، وتعالَى عدي عليَّ ندردش شوية".

اقتربت من الرجل زوجته وشدته من ذراعه ولم تكن التفتت إلى سليم مرة واحدة منذ حضر، ففهم سليم أنها تدعو زوجها بعيدًا عنه ليلتفت بعض الشيء إلى العلاقات الأهم الموجودة بالمكان، فانسحب بهدوء بعد أن صافح والد صديقه.

***

مر أسبوع منذ عاد سليم من الساحل الشمالي وانغمس مرة أخرى في حياة القاهرة ووسط البلد التي عرفته عليها أمينة وأحمد رأفت. كان يقود سيارة أمه التويوتا كورولا في شارع قصر العيني في طريقه من المعادي إلى وسط البلد، والسيارات حوله تكاد لا تتحرك. "اللعنة على شهر يوليو، واللعنة على شهر يوليو في القاهرة، بل اللعنة على القاهرة. ولكنني لم أكن أسعد حالا في لندن. إذن، اللعنة على لندن أيضًا، وعلى هذا العالم الذي تتقاذفنا أمواجه دون أن يكون لنا في الأمر شيء. هل أستطيع أن أتخطى تلك السيارات من أمامي لأنني أعلم أشياء لا يعلمها قائدوها؟ هل أستطيع تغيير هذا الواقع القبيح من حولي؟ ولكنني إن غيرته، فسأغير فقط مظهره ولن

يختلف القبح في شيء. سأزيح التراب وسأغطي الوحل بالنجيل، ولكن التراب سيرجع مرة أخرى وعندما تحرق الشمس النجيل، سيخرج علينا الوحل أقبح من ذي قبل، لأننا تعودنا على الخضار رغم أننا نعلم أن الغالب هو لون التراب. لذا، فما كان يجب أن أتعود على شيء مغاير لهذا الواقع القبيح، لأنني الآن أعاني أكثر من قبل أن أغادر. نعم... نعم.. هكذا ثمن التفوق. لو لم أكن سليم لوددت أن أكون أحمد رأفت بشدة!".

كانت الساعة قد شارفت على الرابعة والسيارات ما زالت تتحرك ببطء قاتل، والحرارة الشديدة تظهر على وجوه الناس المكفهرة. أدار سليم وجهه يمينًا ويسارًا يتفحص المارة. لعله اعتصام آخر عند مجلس الوزراء. حكت له أمينة عن عدد الاعتصامات في الفترة الأخيرة.

استوقفه وجه لرجل مسن أخفت التجاعيد معظم ملامحه إلا من نظرة ثبات تحدّت كل شيء من حوله. ارتدى الرجل جلبابًا مهندمًا وحمل تحت إبطه ملفًا وفي يده كيس به طعام. تبادل سليم مع الرجل نظرة ولحظ الأخير أن الرجل منهك ويسير بالكاد، ففتح نافذة سيارته على الفور وناداه "يا حاج اتفضل معايا أوصَّلك لآخر الشارع في التكييف".

أُضيء وجه العجوز وابتسم وهو يتجه ببطء إلى باب السيارة

اليمين "متشكر يا باشا. اللـه يكرمك ويجازيك خير.. معلهش حاتعبك معايا".

لم تستهوِ هذه الكلمات سليم أو ترقق قلبه من قبل، وبالتأكيد لن تفعل الآن. هو يؤدي خدمة لهذا العجوز لأنه منهك ولن يضره بشكل أو بآخر، وهذا ما في الموضوع. ليس أكثر ولا أقل.

"ولا يهمك. في طريقي مش مشكلة. إنت رايح فين؟".

"لا أنا مشواري بعيد. رايح عين شمس. لو حضرتك توصَّلني بس لحد الموقف في عبد المنعم رياض أكون متشكرًا".

ثم استكمل الرجل دون أن يسأله سليم "أصلي كنت بازور ابني هنا واللـه وتعبت على الآخر وما فيش مواصلات بتقف هنا الوقت ده في الزحمة. ربنا يكرمك يا بني".

"ابنك ساكن أو بيشتغل في قصر العيني؟".

توقف الرجل مهلة قبل أن يجيبه "لا ابني محجوز في قسم قصر النيل بقاله ييجي أسبوعين، ودي أول مرة أزوره. حاولت أدخّل له أكل وما عرفتش".

"ليه عمل إيه يا حاج؟".

"واللـه حضرتك مش فاهمين حاجة. أحمد شغال في ورشة دوكو في حدايق القبة واتأخر في الشغل وكان راكب ميكروباص.

وقفوهم في لجنة ولما الضابط ما لقاش بطاقة لأن الواد كان ناسيها، مسك في خناقه وشتمه بأمه... ابني نفسه أبيّة يا باشا" - قالها وهو يغالب التأثر "ما عجبوش الكلام فرد على الضابط... بس وعينك ما تشوف إلا النور. الاقلام نِزلت ترف عليه، ومن ساعتها وأنا مش عارف أوصل له. النهارده أول يوم أشوفه لاجل واحد كان معاه في الحجز وخرج ووصاه يكلمني يطمني إنه لسه حي".

"وما تحوّلش على النيابة كل ده؟".

"اتحول وخد أربعة إيام في خمستاشر.. موجهين له تهمة التعدي على ضابط أثناء تأدية عمله".

"ربنا ياخد بيده يا حاج" قالها سليم وهو يغالب تأثره. ربما لم يتأثر هكذا منذ انفصاله عن زوجته ووفاة أبيه. لم يدرِ لماذا؟ ألأنه يحاول أن يغلق مشاعره على نفسه ويتناسى هذا البؤس الذي تحاول أمينة جاهدة أن تظهره له؟ تذكر حفلة هاسيندا والأحاديث هناك عن البورصة وعن الفنانين والفنانات، فانقبض صدره لسبب لم يعلمه، وكره كل شيء إلا هذا العجوز الجالس جانبه. تذكر والده. كان مثله منفصلا عن مجتمعهما ما عدا من خلال العمل. عملاء البنك فقط. ولكنه كان مرتبطًا بهؤلاء. في أيام الجمعة بعد الصلاة كان يجمع حوله في حديقة منزلهم أولاد السائق والطاهي وأقارب عم سيد يستمع إلى شكواهم ويفكر معهم في حلول أو ينتهي

به الأمر في أحيان كثيرة إلى أن يوزع عليهم هدايا حتى دون أن تكون هناك مناسبة لذلك.

"وصلنا يا حاج" ثم أخرج ورقة بمائة جنيه ووضعها في يد الرجل بشيء من الخجل وأضاف "حاجة بسيطة معلهش يمكن تساعد"، فرفض العجوز في البداية ولكن سليم أصر وضغط بيده، فنظر العجوز إليه وعيناه مبلولتان بدموع مكبوتة ورفع يده إلى السماء مرددًا "ربنا يديك على قد نيتك يا بني ويبارك لك في ولادك".

كلمة "أولادك" وقعت عليه كسكين في صدره، ولكنه بعد مغادرة الرجل السيارة، قرر أن يتناسى هذه المشاعر الثقيلة ويفكر في أشياء تعطيه أمل وتمكنه من البقاء. أمينة. نعم أمينة تعطيه دفعة نحو عالم مختلف رغم اختلافاتهما، ثم هناك عمله الجديد مع أحمد كمال بعد أن قابله في مكتبه واتفقا أن يستلم سليم خلال أيام عمله معه في تقييم شركة تمتلك أراضي في مدينة نصر لطرحها في السوق.

الفصل الخامس

جلست ماتيلد أمام كنيسة سانت لامبير على الدكة المواجهة للبناية العتيقة. جلست بجسدها المكتنز وهي تضع يدًا على ركبتها وتسند بالأخرى على ظهر الدكة. كان الجو رائعًا في هذا اليوم في آخر شهر يوليو، فخرج الناس يتنزهون ويشترون احتياجاتهم قبل أن يهجروا باريس تمامًا في شهر أغسطس. جلست كملكة غير متوّجة لمنطقة ڤوچيرار تتفحص المارة، الذين يحيونها أو يديرون وجوههم في الاتجاه الآخر بشيء من الخجل لاجتناب نظراتها الحادة.

ماتيلد تعرف كل صغيرة وكبيرة عن سكان المنطقة وهم يدركون هذا جيدًا. قدمت إلى باريس من قريتها في شمال فرنسا سنة 1968 بعد أن انهت دراستها الثانوية، وعملت بمطعم في غسيل الأطباق، وبعد أن رأى فيها صاحب المطعم بشاشة وجه خاصة نقلها إلى

خدمة العملاء، فاشتهرت بجسدها المكتنز وابتسامتها وحضور ذهنها وسرعة بدهتها في تقبل السخرية ورد الصاع صاعين لمن أمامها، بحيث كانت القاعة كلها تنفجر من الضحك دون أن يشتكي أحد أو يتذمر.

كانت باريس تعيش أجواء ثورة 68 في هذا الوقت، وكانت هناك حالة خاصة من الانفتاح الفكري والإبداع والتمرد عندما شاء حظ ماتيلد أن تقابل الممثل الكوميدي كولوش قبل أن يشتهر، لكونه أحد زبائن المطعم الذي تعمل به في الحي اللاتيني، فصاحبته مع فرقته عندما ابتدع فكرة الكافيه تياترو، وقام بتحويل مصنع للمراوح بجوار محطة قطار مونبارناس إلى مسرح مفتوح. وقضت ماتيلد نهاية الستينيات وبداية السبعينيات في هذه الأجواء المفعمة بالأفكار الجديدة، وتحولت من فتاة ريفية محدودة إلى موسوعة في الأدب والمسرح والسياسة.

عندما خبت جذوة هذه الحركة الفكرية، استقرت ماتيلد في الحي الخامس عشر بعد أن وجدت عملا في مكتبة مع رجل مسن كانت قابلته خلال تمثيلها بالمسرح وتعامل معها كابنته، وعندما توفي في بداية الثمانينيات ولم يكن له أولاد أو أقارب ورثت هي المكتبة وأدَرَّت عليها دخلا معقولا مكنها من شراء شقة في المبنى العتيق.

كان معروفًا عن ماتيلد إحجامها عن زيارة الكنيسة حتى في الأعياد، وتمسكها بالفكر اليساري عكس معظم سكان الحي وبالأخص شاب يدعى چان چاك جلس إلى جانبها في حالة من الألفة وكأنه ابنها. يجيء چان چاك من عائلة برجوازية أسهمت في بناء الحي منذ قرن ونصف القرن. كل شيء في چان چاك مرتب من حلقة شعره المستفة إلى نظارته وأسلوبه في ارتداء الملابس الذي يختلف كثيرًا عن معظم من هم في العشرينيات مثله. چان چاك وجد في ماتيلد ضالته بعد أن انفصل أبواه منذ كان طفلا صغيرًا، واعتبرته هي ابنها الذي لم تنجبه.

وقف روبير واضعًا حقيبة أوراقه السامسونيت السوداء على الأرض أمامهما يتجاذبان أطراف الحديث ورآهم علي وهو قادم من اتجاه شارع بلومي. كان يرتدي ملابس الرياضة ويحمل حقيبة صغيرة خلف ظهره ويضع سماعات على أذنيه. ابتسم عندما رأى روبير وجيرانه الآخرين الذين يراهم من وقت لآخر ويكتفون بتبادل السلام.

"صديقي المصري.. أخيرًا ظهرت.. تعالَى اعرّفك على جيرانك" قالها روبير وهو يمد يده له مبتسمًا ومادًا اليد الأخرى في اتجاه ماتيلد وچان چاك اللذين جلسا ينظران إلى الوافد باهتمام.

مد علي يده إليهما بعد أن بادل روبير التحية "أهلا.. انتشرفنا".

"علي هنا في باريس علشان يكتب رواية.. عندنا حد في العمارة كاتب كبير. مين عارف؟".

ابتسم علي بشيء من الخجل ظهر من خلال احمرار بسيط لوجنتيه وتمتم "لسه بابتدى".

مازحه روبير قائلا "بلاش تواضع زائف" - ثم مازحًا مع ماتيلد - "إنت ما تعرفش ماتيلد كل ده. دي عمدة الحي الخمستاشر".

أجابته ماتيلد وهي تشير تجاهه بسبابتها وتنفرج أساريرها "بلاش كلام كبير يا أستاذ روبير".

"إنت كمان حتتواضعي والا إيه؟" ثم موجهًا كلامه لعلي "ماتيلد ما فيش حد ما تعرفوش هنا في الحي الـ 15 وكمان لحد الحي الـ 14".

هزت ماتيلد رأسها مستنكرة كلام روبير وهي تغالب الضحك، ولكن الشاب الجالس إلى جوارها انفجر في الضحك، واستردت ماتيلد جديتها وهي توجّه كلامها لعلي بشكل حازم "اسمع، سيبك من الكلام الفارغ بتاع روبير ده". - ثم بنبرة مهيبة - "إحنا ما جالناش فرصة نتقابل لحد دلوقت. كل اللي نعرفه عنك هو إنك جيت باريس تكتب رواية، لكن ما عرفناش عنك أكتر من كده". هنا امتعض وجه علي لظنه أنها ستخوض في خصوصياته وتطرح عليه أسئلة مرتبطة بحياته، ولكنه سرعان ما اعتلت وجهه ابتسامة عندما وجدها تقول له بكل بساطة وبنفس الحزم الذي لا يقبل

المناقشة "دلوقت علشان كلنا أو أغلبنا مسافرين إجازات أول أغسطس، وبعدين الجو حلو اليومين دول، فقررنا إن إحنا بكره حنعمل باربكيو في الحوش اللي بين العمارتين أ و ب. وأنت مدعو تيجي ولو عندك صاحبة هاتها معاك علشان تتعرف على الجيران". ثم بلهجة آمرة لا تقبل النقاش "بس يبقى أحسن تجيب معاك حاجة تتشرب علشان النبيذ يكفي".

هز علي رأسه مؤيدًا دعوتها "وهو كذلك، حاجي لوحدي. ما عنديش صاحبة".

ابتسمت ماتيلد وبدت له كطفلة كبيرة من الستينيات جديرة بأن تكون في فرقة مسرحية مع كولوش؛ كما علم مسبقًا من روبير، مختلفة عن الأنماط التي يقابلها في الحي منذ انتقل إليه.

***

اتجه علي ظهر اليوم التالي إلى سان چيرمان، حيث كانت شلة "المنفى" تنتظره كما كان يحلو له أن يصفهم لنفسه. خرج من فتحة مترو مابييون ومنها إلى بولفار سان چيرمان. ارتفعت الشمس قوية في السماء وضربت أشعتها في عينيه عند خروجه من تحت الأرض فارتدى نظارة الشمس في عجالة. ضج الشارع بالمارة من كل صوب، أغلبهم سائحون يحملون حقائب خلف أظهرهم ويتلكعون لالتقاط الصور يمينًا ويسارًا.

سلك زقاق الراهب المحاط ببنايات تعود إلى القرن الرابع عشر، حتى وجد نفسه في شارع مازارين أمام كافيه لا باليت التاريخي حيث جلس رامي وزوجته زهرة على كراسٍ متراصة تحت تندة وسط الرصيف المقابل وجلست أمامهم مي وزوجها يوسف وشاب فرنسي لم يعرفه.

الباليت أو "الباليتا" (كما كان رامي يحب أن يسمي المكان)... باليتة الألوان بحق. الكافيه العتيق في الداخل، والقبو حيث مئات زجاجات الشمبانيا والنبيذ تحت البار المقابل للداخل ودورة المياه الوحيدة التي يقف أمامها طابور يغالب كل من فيه احتياجه للقفز في الصف إلى الأمام، والتندة المقلمة أخضر وأبيض فوق التراس، ثم الكراسي المتراصة صفين وفوقها الأجسام المتلاصقة، والشماسي على الجانب الآخر من التراس، ثم الموتوسيكلات والفيسبات من كل نوع من ناحية إلى جانب الرصيف ومن الناحية الأخرى من الشارع المتناهي الضيق "البسكيليتات" الفليب التي يؤجرها الحي، وسيارات الميني والسمارت التي تجد لنفسها مكانًا بالكاد تستطيع أن تركن فيه... هذا المربع السحري، والطوابير الطويلة للحصول إلى مكان وسط "الشباب الذهبي" كما يطلق الباريسيون على من يرتادون هذا المكان الساحر.

كانت هذه المرة الثالثة التي يزور فيها علي "لا باليت" بناء على دعوة رامي. ارتبط بالمكان بسرعة فائقة. الجلسة على التراس

المقابل، والحديث مع الجالسين من كل لون وشكل على الموائد المجاورة والكافيه بالداخل الذي جلس فيه همينجواي مرات عدة، ربما مع فيتزجرالد وباقي مجموعة الأدباء والفنانين من الجيل الضائع التي كانت تتزعمه الكاتبة الأمريكية اليهودية جرترود ستاين بعد الحرب العالمية الأولى خلال عشرينيات القرن الماضي. المكان لم يتغير منذ قرن من الزمان. حتى الجرسونات حافظوا على الجيليه الأسود فوق الكرافتة السوداء والقميص الأبيض، ثم المريلة السوداء.

"أخيرًا جيت؟ إيه يا عم... خلاص اليوم خِلِص. الساعة داخلة على واحدة" جاء الصوت من ناحية رامي وهو يحتسي كأسًا من الروزيه وأمامه زجاجة ضخمة من الروزيه المينوتي. وجلست أمامه زوجته ومي وإلى جانبه يوسف زوج مي وأمامهم شاب فرنسي لم يقابله عليّ قبل ذلك.

"يا عم إنت بتهرج؟ إيه ؟ واحدة الصبح يعني؟ ما تمثلش". أجابه علي بألفة دلت أنهما أصبحا قريبين في الفترة الأخيرة. ونظرت مي إلى صديق طفولتها وهي تبتسم بمودة كعادتها، وتبادل علي معهم السلام والقبلات، ثم جلس في مقعد شاغر بين رامي ومائدة أخرى عليها مجموعة من الفرنسيين مع إحداهن كلب يوركشير صغير وضعته على ركبتيها.

نظر يوسف إلى عليّ من خلف نظارته الطبية المستديرة، ثم أشار إلى الشخص الجالس معهم، وقال بالفرنسية "أعرفك إلى مارك يا علي. صديقنا من الحزب الجديد المناهض للرأسمالية".

أومأ عليّ محييًا مارك بابتسامة مهذبة، فبادله الأخير الابتسامة بنفس الطريقة.

"الجو روعة.. مش طبيعي.. إيه أخبارك يا علي وأخبار الكتاب؟". سألته زهرة زوجة رامي بنبرة مسترخية، لتبدأ معه الحديث وتشركه في الجلسة، فنظر علي إليها وأجابها بسرعة بدت غير طبيعية "تمام تمام... يعني" ثم نظر إلى الجرسون التونسي الذي كان قادمًا من داخل المطعم حاملًا صينية عليها تشكيلة من المزات، فرآه الرجل وهز رأسه هزة بسيطة دليلا أنه سيحضر إليه بعد أن يفرغ من وضع الطلبات على المائدة المجاورة. "عايز كاس فاضي بس، وممكن فواجرا".

خلع عليّ جاكيتته الصيفية وشمر عن ساعديه كمن يستعد لخوض معركة "استعنا على الشقى يا أستاذ رامي.. دي الإزازة نمرة كام؟".

"دي أول جثة لسه.. مستنينك يا إكسلانس".

"ربنا يستر".

نظر يوسف إلى علي ثم إلى صديقهما الفرنسي وقال كأنه يعلن عن خبر مهم "مارك كان موجود مع الأسطول التركي اللي كان متجه على غزة والإسرائيليين هاجموه".

بدا مارك شابًا نحيفًا في منتصف الثلاثينيات. كل شيء في وجهه يدل على صرامة وجدية تختلفان عن البرجوازيين الجالسين حولهم وبالأخص المائدة المجاورة، حيث وضعت الفتاة ذات الشعر الذهبي ونظارات الشمس الشانيل الكلب اليوركشير على ركبتيها.

"كنت على نفس المركب اللي اتقتل فيها تسعة أشخاص؟".

"أيوه بالضبط. حضرت العملية كلها".

"أنت اتكتب لك عمرًا جديدًا" قالها علي، ثم أدرك أنه ربما كان من الأفضل أن يقول أي شيء مختلف، فالشاب أمامه رأى بالتأكيد رفاقًا له يُقتلون، فاستدرك نفسه قائلا "آسف على اللي حصل".

لم يجب مارك، ولكنه اكتفى برشف الكأس بيده رشفة بطيئة وهو ينظر إلى الفراغ.

أراد علي أن يفكر في أي شيء مختلف. إنه في باريس. في الحي اللاتيني. في نفس المكان الذي جلس فيه الجيل الضائع من الأدباء منذ قرابة المائة عام، وحوله أجمل نساء في العالم والجو فعلا بديع، ثم إن مشكلات المنطقة لن تنتهي أبدًا، وقد رأى منها ما رأى، ولكنه لا يضمن أن يكون في هذا المكان. جالسًا في مثل هذا

التراس مرة أخرى، أو العام القادم. ربما ينتهي كل شيء. ربما لا تكون لديه الإمكانات أو يضطر إلى الرجوع إلى مصر لظرف أو لآخر. أدار وجهه تجاه الفتاة صاحبة الشعر الذهبي والكلب الذهبي الصغير، فابستمت برُكن فيها ولكنها لم تستدر، فابتسم ونظر إلى صديقة طفولته. كم يطمئنه وجودها. معرفته بها تعود إلى زمن كانت الأشياء فيها مسطحة ثنائية الأبعاد.

سارعت مي "إيه أخبارك؟ فيه أي أخبار من مصر؟".

"ولا أعرف. الدنيا زي ما هي".

"مش زي ما هي أوي يا علي. الدنيا في النازل بسرعة مش طبيعية".

"ما تنزل. تفتكري إن كلامنا هنا حيفرق في أي حاجة؟!"- ثم مكملا مستعيدًا حالة الحنق والمرارة التي لازمته قبل أن يغادر- "هيّه كده والموضوع كده. مش حنقدر نغير فيه حاجة. خالد سعيد اتقتل من كتر الضرب. هو مش أول واحد ومش حيكون آخر واحد، والناس في مصر حتنظَّم وقفات شوية وبعدين حتزهق".

تدخل رامي "ما تسيبكم من الموضوع ده دلوقت. شوف الجو حلو إزاي. مش شرط تلاقي الشمس دي بكره. انسوا وجع الدماغ شوية".

ولكن علي استطرد كلامه بالفرنسية غير مكترث "من كام يوم البوليس هنا قتل شاب غجري وبعدين ادّعوا إنه حاول يخترق كمين شرطة. بالضبط زي ما قسم سيدي جابر في إسكندرية أصر إن خالد سعيد حاول يهرب وبلع باكتة بانجو. بافتراض إن إحنا عايزين نحَصَّل العالم الحر. آهو العالم الحر قدامنا. فرنسا بعد كام ثورة لسه الشرطة فيها بتقتل ناس من غير محاكمة".

امتعض وجه مي من شحنة السلبية التي أطلقها علي، ولكنها لم تحاول أن تُعَقِّب لأن كلامه بدا حقيقيًا في هذه اللحظة. تدخَّل مارك الذي كان يتابع الحديث بالفرنسية عن كثب "ولكن هنا فيه برلمان منتخب بحق وحقيقي وانتخابات رئاسية برضه بحق وحقيقي حتى لو مش عاجبنا النتيجة".

أجابه يوسف وهو يشيح بيده باستنكار فيه شيء من المزاح، دل على ألفته مع مارك - "أنت عارف أنهم مجرد أراجوزات مش أكتر، بينفذوا اللي بيتطلب منهم. الغجر اللي هما مواطنين أوروبيين من حقهم يعيشوا في الأراضي الفرنسية زي أي أوروبي بيتطردوا. يبقى إحنا في نظام فاشي ما يفرقش حاجة عن الأنظمة بتاعتنا في العالم العربي، لكنه حاطط ميك آب أكتر بس".

لم يعترض مارك، ربما كان الغرض مما قال أن ينكش علي، ليرى مدى إيمانه وكفره بالأنظمة، أو هكذا تراءى لعلي، فليس من

الممكن أن يكون هذا الشاب قد شارك في السفينة المتجهة إلى غزة وهو لديه أدنى إيمان بنظامه!

استدارت فتاة اليوركشير على وقْع كلمات يوسف، ويبدو أنها لم ترق لها فأخذت تحسس بيديها بشكل عصبي على فروة كلبها الصغير دون أى مقاومة منه، إلا أن رامي؛ الذي لم يكن ينوي المشاركة في أي حديث جاد، نظر إليها بسخرية استرعت انتباه علي فانضم إليه مبتسمًا ورفعا كأسيهما في الهواء صائحين "في صحتك" بالفرنسية.

"تشتري كلب؟" قالها رامي بالعربية ثم أخذ يرددها "تشتري كلب؟ تشتري كلب؟"، وسط ضحكات الجميع ما عدا مارك الذي كان يحاول فهم هذه الجملة القصيرة التي تسبَّبت في هذا المرج!

نظرت إليهم زهرة وهي تُجَمِع أشياءها بعد هستيريا الضحك "ياللا باي" ثم موزّعة قبلات في الهواء "معلهش لازم أروح أكمل شغل" وموجهة كلامها إلى رامي "حتتغدى هنا؟".

هز رامي رأسه "أيوه أو في مونمارتر جنب البيت. حاشوف. على حسب. باي حبيبتي".

"طيب ياللا بينا يا يوسف إحنا كمان. نلحق نروح نعمل شوبينج البيت ونروح نحضّر العشا" - قالتها مي وهي تلملم أغراضها- فقام يوسف وأخرج ورقةِ بـ 50 يورو أعطاها لرامي ليحاسب لهم، ثم

حيوهما وذهبا تجاه محطة مترو سانت ميشيل.

"حتقعد شوية؟" سأل رامي علي ليطمئن أنه لن يبقى وحده.

"نقعد نُصاية كده، وبعدين لازم أتحرك على البيت. لسه عندي باربكيو. جيراني عاملينه، ولازم أجيب إزازة نبيذ قبلها كمان".

نادى رامي الجرسون التونسي الذي كان يمر بجوارهم دون أن يُعقّب "مهدي مهدي.. هاتلنا أختها لو سمحت".

ابتسم الجرسون ذو الجسم المكتنز لرامي وأجاب بصوت عالٍ بلهجة تونسية وهو يحاول أن يحاكي اللهجة المصرية وكأنه في قهوة بلدي "واحد روزي ماجنوم وصلحه للمصري... حبيبي".

فأخذ رامي يردد "يا هلا بالخضرا.. الخضرا... تونس الخضرا".

"ربنا يستر. باقولك عندي باربكيو... واحدة واحدة يا عم الحاج".

أجابه رامي في لا مبالاة واضحة "مش مشكلة. علشان تعرف تتعامل مع جيرانك كويس".

أدار علي وجهه مرة أخرى تجاه الفتاة الجالسة إلى جانبه. لم تكن مشغولة في أي حديث مع من يرافقونها، فأخذ يسترق النظر إليها حتى أدارت وجهها إليه بابتسامة فاترة، فرفع كأسه تجاهها "في صحتك.. في صحة اليوم الجميل ده".

تابعه رامي بابتسامة، عندما رأى الفتاة ترفع كأسها ببطء محيّية إياه دون أن تنبس بكلمة، ولكن علي لم ينتظر وأكمل "اسمي علي وعندي باربكيو لازم أروحه كمان شوية، لكن واضح إن صديقي هنا مصمم إن أنا ما اعرفش أروّح أو أروّح على تقالة".

ابتسمت الفتاة لأول مرة وأجابته "اطلب من مهدي واحد إسبريسو حيساعدك على المرواح".

وجد علي الإجابة فاترة مثل الفتاة تمامًا فأشعل سيجارة قبل أن يجيبها، ولكنه رفع رأسه تجاه ناصية شارع مازارين فتسمّر مكانه. كانت آن تمر وإلى جانبها إحدى فتيات دراكولا، تتجاذبان الحديث. بدت مختلفة بعض الشيء عما رآها ليلة كباريه العدم. ترتدي رداء قصيرًا وحذاء بكعب عالٍ. كانت أكثر أنوثة ولكنها لم ترتد هالة الغموض التي أثارته ليلتها. لم يتمالك نفسه، وانطلق تجاهها أمام دهشة رامي ومارك وفتاة اليوركشير التي أحست بالتأكيد أن السجاد ينسحب من تحتها لصالح فتاة أخرى أجمل منها فلم يرق لها هذا، وتنبّهت لأول مرة منذ بداية جلستها إلى علي بشكل كامل.

حاول أن يبطئ خطاه قبل أن تلمحه، ولكنه كان متأخرًا لأن عينيها كانتا بالفعل تحدقان في عينيه في دهشة ممزوجة بسعادة لم يرها أيضًا في عينيها المرة السابقة. "هاللو. عامل إيه؟".

"كويس. قاعد في لا باليت باخد شوية شمس... أخبارِك إنت إيه؟".

"تمام. قاعدة هنا في سانت چيرمان دلوقت مع ڤيرونيك وكيڤين في شقة واحدة" كانت تعني صديقتها التي أخذت تعبث في هاتفها على جانب الطريق دون أن تعبأ بوجوده أو تحاول أن تلقي عليه التحية - ثم مكملة حديثها تجاهه دون أن تفارق عيناها عينيه - "شكلك كويس".

ابتسم علي برضا وأجابها بكل بساطة "شكلِك إنت كمان كويس".

"أرجو ما تكونش زعلت مني المرة اللي فاتت. كانت الظروف صعبة".

"يعني خلاص موضوعِك خِلِص؟".

أومأت وسألته بجرأة أربكته "بتعمل إيه بكره بالليل؟".

"ولا حاجة. الحد بالليل.. ملل. باتفرج على التليفزيون أو باروح السينما ساعات".

"تعالى نتعشّى مع بعض.. تحب؟".

"تحبي فين؟ تجيلي منطقتي البرجوازية شوية من باب التغيير؟ الحي الـ 15 فيه مطاعم لطيفة وهادية".

"أوكي. بس على فكرة إحنا ما خدناش نمر بعض المرة اللي فاتت. هات نمرتك وحابعتلك رسالة على طول".

***

وقف روبير بجسده الضخم وسط الحوش الذي يفصل بين البنايتين العتيقتين وفي يده ريشة يُهَوِّي بها على قطع اللحم الموضوعة على الشواية بتأنٍ، وفي يده الأخرى كأس من النبيذ الأبيض. وقفت ماتيلد إلى جانبه تتبادل الحديث مع چان چاك ومع إلييت التي تقطن فوق روبير وعلي.

"علي.. إنت عارف إلييت؟" جذبه روبير قبل أن تخطو قدمه الثانية داخل الحوش. "تعالى أعرفك على الأم الروحية لشارع چيربير". قالها ثم عاد سريعًا إلى الشواية ليباشر اللحم قبل أن يحترق.

نظرت إليه السيدة المسنة من خلف نظارتها الطبية مرحّبة به.

رغم صغر حجم السيدة المسنة فإن علي لاحظ أن بها شحنة من الطاقة تتعدى عمرها الثمانيني "إحنا ما حصلش فرصة نتقابل قبل كده. مواعيدنا مختلفة شوية أظن".

جاوبها علي بشيء من الخجل الذي ينتابه عادة عندما يتحدث إلى شخص في هذه السن لا يعرفه جيدا "بيتهيّأ لي كده. حضرتِك بتنزلي بدري، باكون أنا لسه نايم ولمّا بترجعي باكون قاعد أشتغل

أو نزلت". ثم ضاحكًا "عمومًا باسمع صوت السلالم الخشب".

"طيب ما بتخرجش تسلم ليه؟" أجابته بملاطفة.

"بابقى مش عاير أزعِجك. لكن المرة الجاية وعْد أخرج أسلم على حضرتِك، ويا ريت تشرفيني تشربي معايا فنجان إسبريسو".

"بكل سرور".

حضرت إليهما ماتيلد بصحبة چان چاك وهي تصيح كعادتها "هيه.. شايفة إنِك أخيرًا بتتعرفي إلى جارنا العزيز... إلييت، لازم تحكي له عن تاريخ المبنى. علي كاتب والموضوع ده يهمه" ثم موضحة لعلي "لأنها عاصرت كل حاجة هنا".

هزت السيدة المسنة رأسها بابتسامة تأكيد، ثم مازحة "أيوه عاصرت من أواخر الحرب، لكن مش كل حاجة يا ماتيلد. العمارة موجودة من أيام ثورة 1871 وأنا مش عجوزة أوي كده!".

"يالا يالا احك له بقى".

نظرت إلييت إلى چان چاك ثم إلى على "اللي يقدر يحكيلك أكتر هو چان چاك لأن جده الكبير هو اللي بنى منطقة ڤوچيرار، وعيلته عارفة تاريخ الحي عمارة عمارة".

أجاب الشاب بعفوية "أنا أبويا بيقولي دايما إن إلييت هي موسوعة الحي التاريخية، وماتيلد هي الموسوعة المعاصرة".

"طيِّب، تعالى أوريك حاجة.." جرجرت إلييت علي من يده إلى مدخل الفناء، ثم فتحت بابًا خلفيًا بجوار مدخل العمارة أ، وسألته وهي تشير إلى أسفل "شايف القبو ده؟".

رأى علي على ضوء اللمبة الخافتة سلالم تؤدي إلى قبو صغير "القبو ده شاهد على ثورة وحربين عالميتين.. وقت ثورة 1871 النقابيون وأعضاء المحليات كانوا بييجوا يستخبوا هنا من بطش جيش نابليون الثالث، ووقت احتلال النازي، أعضاء المقاومة كانوا بيستخدموا المكان لتخبئة سلاح".

"وعُمر حد اتمسك؟".

"أيوه. لمّا أنا وصلت هنا، كنت لسه جاية من بلدي پو في الجنوب.. كان بقالي هنا سنة" لاحظ علي تغير نبرة صوتها وانكسارًا في عينيها الصغيرتين لم يلحظه قبل ذلك، ولكنها أكملت "عمرك حضرت حرب أو ثورة؟".

"أيوه، رحت القدس وقت الانتفاضة الثانية وشفت الاحتلال".

"بس ما عاشتش احتلال في بلدك؟".

"مش احتلال مباشر!".

أكملت إلييت وهي تهز رأسها بشكل يوحي أنها متفهمة لما يقول؛ "أنا مش عارفة أنا باحكيلك إنت ليه القصة دي من أول مرة،

لكن أكيد فيه سبب... كان فيه شاب من المقاومة قعد هنا واستخدم القبو ده سنة 44. كان بيقابل فيه أعضاء خليته، وبيوزعوا فيه سلاح لمقاومة النازي".

"كان عايش فيه لمدة سنة؟".

"لأ، ما كانش عايش فيه. كان بيستخدمه فقط". تخافَتَ صوت إلبيت وهي تقول الجملة الأخيرة.

ولكن علي اندمج مع القصة، فسألها باندفاع "أُمال كان مستخبي فين؟ في حتة تانية في العمارة؟".

تخافت صوتها أكثر وهي تجيبه "أيوه.. كان عايش معايا... إنت عارف إن وقتها كانت الظروف صعبة. ناس كتيرة ما كانتش بتؤيد المقاومة، وما كانش عندهم مانع من التعاون مع الألمان علشان الدنيا تمشي".

"طيب وحصل إيه؟".

"حد بلّغ عليه، والجستابو وصل للقبو ومسكوه هنا ولما رفض يبلغ عن باقي أعضاء الخلية، وعن الشخص اللي هوّه قاعد عنده اللي هو أنا، أعدموه رميًا بالرصاص في المكان اللي إنت شايفه ده، وسابوا جثته أيام. كنت باضطر أَعَدي كل يوم من قدامه وأتجاهله وأتجاهل معرفتي به حتى وهو ميت".

اخترق تيار من الهواء البارد جسم علي واقشعرّ وهي تحكي له الجزء الأخير ولم يدرِ لماذا، ولكنه لوهلةٍ أحس بوجود طاغٍ لكل هؤلاء الذين ماتوا من أجل الحرية في هذا المكان، وأيضًا أحس بالذين قتلوا باسم الحرية على الجانب الآخر من الطريق، حيث كانت تُقام حفلات الجنس الجماعي وسط رؤوس القساوسة المخلوعة من مكانها... ربما من تحكي عنه إلييت هو حبّ حياتها، وربما لهذا السبب لم تتزوج حتى الآن، ووهبت حياتها للكنيسة وللاعتناء بمن هم دون مأوى. أدرك علي أيضًا أنه ربما يقف إلى جانب قديسة. كم من القديسات والقديسين عاشوا وماتوا دون أن يعرفهم أحد.

أفاق من أفكاره على صوت روبير "يالّلا الأكل جاهز.. تعالوا اغرفوا" هكذا روبير دائمًا يعيده إلى الواقع بكل ما يحمله بشكل أو بآخر.

انقضت الساعات وهم يتجاذبون أطراف الحديث. أحس علي بألفة عجيبة وكأنه وسطَ عائلته لأول مرة منذ سنين طويلة. غريب أمر هذه الدنيا. أن يجد نفسه في هذه البناية العتيقة ويرتبط بها من أول لحظة، ثم يرتبط بجيرانه دون أن يبذل أي مجهود. الأحاديث تراوحت بين السياسة والتاريخ. وانضم إليهم جيران آخرون. زوجان اسمهما جيرالدين وفرنسوا يعملان في الصحافة، ورجل

يعيش وحده في المبنى أ اسمه تييري. كلهم كانوا ودودين معه للغاية ومهتمين بمعرفة أشياء أكثر عنه بعد أن أبلغهم روبير أن علي في باريس من أجل الانتهاء من كتابة رواية (مما جعل وجه علي يحمرّ ويتصبب عرقًا). تطرق الحديث في لحظة إلى مصر، فوجه روبير باقي الجيران إلى علي بقوله "الخبير هنا. اسألوه زي ما أنتم عايزين".

وقف علي في وسط الفناء وكأنه يُلقي محاضرة. جاء الكلام بسلاسة تحت تأثير النبيذ. وجد نفسه يستخدم مصطلحات بالفرنسية أكثر تعقيدًا لم يكن يستخدمها عادة مثل "بالطبع" و"نظرًا للظرف". قال لهم ما كان ردده قبل ذلك على روبير، وأن هناك حالة سخط عند كثيرين "موضوع خالد سعيد ابتدى ياخد حجم كبير. القوى المعارِضة كلها وعلى رأسها البرادعي متبنياه ومصممة على عقاب الجاني" ولكنه فضل أن لا يتطرق إلى موضوع الغجري الذي قتلته الشرطة الفرنسية منذ أيام، مثلما فعل في لا باليت مع أصدقائه. وفضل أن يُعطيهم نبذة تاريخية عما أدى لهذا المنحدر من بعد حرب الخليج سنة 90.

ازدادت درجة البرودة مع غياب الشمس التدريجي. كانت الساعة شارفت على السابعة مساء، فاستغل علي نقاشًا محمومًا بدأ بين ماتيلد والزوجين اللذين يعملان في الصحافة حول جدوى

استخدام فضلات العمارة من خضراوات ولحوم لتكوين سماد حيوي، وتسلق سلالم المبنى (ب) سريعًا بحجة أنه يحتاج إلى جاكيت، ثم فتح باب شقته وأخرج هاتفه من جيب بنطلونه ثم استجمع شجاعته وطلب آن دون أن يفكر كثيرًا. جاءه صوتها "آلو. أيوه.. افتكرت إن إحنا المفروض نتقابل بكره" ولكنه لم يرتبك بل أجابها بكل هدوء "بتعملي إيه دلوقت؟ فيه حفلة لطيفة عندي في العمارة. ما تيجي..".

لم تجبه لمدة ثوان، ثم جاء صوتها وكأنه يخرج من أعماق البحر أو من خلف أكوام من الوسادات بطيئًا وثقيلًا "ابعت لي عنوانك في رسالة. اديني ساعة كده وحاكون عندك".

***

جلست ماتيلد متوسطة المائدة وعن يمينها چان چاك وعلى يسارها روبير، بينما جلس علي وإلى جانبه آن في المقابل داخل مطعم الحي "لقاء الأصدقاء". اختلست ماتيلد النظرات لـ"الأمريكية" تارة ولعلي تارة أخرى، إلا أن عدد زجاجات النبيذ الأحمر الخاوية المتراصة وسطهم لم تدع مجالا لأي حديث جاد أو لأسئلة ماتيلد التي عادة ما تأتي كالسهام.

أحضر علي آن معه لأن الطقس في الفناء أصبح باردًا ولأن معظم الأماكن الأخرى في الحي كانت مغلقة، ثم إنها عندما حضرت

كانت بالفعل قد شربت قبلها قدرًا من النبيذ جعلها أكثر ليونة وتقبلا لأي فكرة يطرحها عليها.

صاحب المكان فيتنامي اسمه كيم. رجل أقرب للقصر لا يظهر عليه عمر ويرتدي نظارة طبية، وزوجته امرأة شابة آسيوية جميلة تحمل ابنهما الصغير إلى الفناء الخلفي لتطعمه ثم ترجع لتشارك زوجها وزبائنه حديثهم من وقت للآخر. يجيد كيم الفرنسية بطلاقة رغم لكنته الآسيوية، بعكس زوجته التي اكتفت بإيماءات وابتسامات لتجاري حديث أهالي الحي.

شاكسته ماتيلد كعادتها "يا أستاذ كيم النبيذ خلص هات لنا إزازة تانية سانت إميليون لو سمحت من اللي إنت مخبيها في القبو عندك تحتك... وزود عليها شوية سبرينج رولز تانيين علشان ضيفتنا الأمريكية".

أجابتها آن بأسلوبها المتحفِّظ المعتاد رغم ابتسامة غالبتها "ثانك يو أنا مش جعانة".

"خلاص مش مشكلة حنخلص إحنا السبرينج رولز وربير لأنه انشغل في الشوى وما أكلش قوي... مش كده يا مسيو روبير؟".

هز روبير رأسه موافقًا وهو يربت على كتفها، رغم أن مزاجه لم يكن رائقًا كالمعتاد. كان هناك شيء ينغِّص عليه كما لاحظ علي، ولاحظ أيضًا أنه كان وحده دون زوجته.

ذهب كيم ليلبي مطلب ماتيلد على وجه السرعة، وكان يعمل لها ألف حساب مثله مثل باقي سكان الحي الذين آثروا معظم الوقت أن يفلتوا من سلاطة لسانها، رغم أنهم أحبوها لعدم تأخرها عن مساعدة من عنده مشكلة، ولكن هذا لم يمنعها عندما عاد بالطلبات أن تشاكسه مرة أخرى وهي تحدث آن وعلي "كيم هنا ما بيفوتش قداس كل يوم أحد مع "الأم إلييت"، ثم موجِّهة حديثها لچان چاك "والأخ المقدس چان چاك".

"آخ يا ماتيلد. ما لها الكنيسة" أجابها چان چاك وهو يغالب خجله المعتاد، فأجابته بقوة صوتها المعهودة "ولا حاجة، الكنيسة كويسة وكل حاجة بس إحنا في القرن الواحد والعشرين وأنتم لسه بتتبعوا طقوس عفا عليها الزمن. ثم انفجرت ضاحكة كما يليق بحفيدة للثوار اليعقوبيين وقت الثورة الفرنسية الأولى. وكانت هناك مائدتان أخريان في المكان جلس عليهما بعض الجيران الآخرين، فاستدارا تجاهها وشاركاها الضحك من باب المجاملة ولكن بصوت أخفت منها.

تأملت آن ماتيلد والآخرين كمن يكتشف عالمًا موازيًا بانبهار ولكنها لم تغير من تعبيرات وجهها إلا أنها بدت لعلي أكثر إنسانية من يوم كباريه العدم... قابلة للضحك وللتأثر.

غالب روبير الصمت والأفكار التي كانت تسيطر عليه وسأل علي بشيء من السخرية كعادته "أخبار إيه لا باليت يا أستاذ علي؟".

"كانت لطيفة. كنت باقابل صحابًا لي من زمان" - وصف علي كل من قابلهم في لا باليت بأصدقائه "من زمان" ربما لأنه أراد أن يطمئن أصدقاءه وجيرانه الجدد أنه هو أيضا له أصدقاء قدامى، وأنه ليس مقطوعًا من شجرة تمامًا، وربما أكثر كي يطمئن آن رغم أنه لم يكن في حاجة لأن يفعل ذلك بل ربما كانت آن هي التي يجب أن تحاول أن تبعث تجاهه الطمأنينة، فتصرفاتها كلها من البداية لم تخل من غموض وغرابة.

لم يتوقف روبير واستكمل كعادته في حبه للمناكفة وسط تعبيرات وجه آن التي توحي باللا مبالاة واهتمام بالغ من ماتيلد وچان چاك "أصدقاؤك زيك يساريين برضه؟".

"أيوه طبعًا" - ثم مضيفًا ليثير اهتمامهم أكثر "واحد منهم كان على الباخرة التركي اللي انضربت قبل ما توصل غزة بالمساعدات". إلا أن أحدًا لم يُعَقِّب، وأضاف روبير دافعًا المزاح درجة "اليسار دلوقت بقى بيقعد في لا باليت. يمكن كمان عشر سنين اجتماعات اليسار تبقى في فوكتس في الشانزيليزيه!".

أجابه علي بنفس السخرية "وليه لأ؟ هوّ ما فيش غير ساركوزي واليمين اللي ممكن يتقابلوا في فوكيتس(*)".

(*) مشيرًا إلى اجتماع كافيه فوكيتس الشهير الذي عقده ساركوزي مع أعضاء من حزبه يمثلون جماعات الضغط في فرنسا قبل توليه الحكم.

لاقى كلام علي قبولًا لدى ماتيلد اليسارية، فنظرت إليه في إعجاب من ينظر إلى عضو من أعضاء قبيلته، لإحساسها بوحدتها في أيديولوجياتها وسط معقل الطبقة المتوسطة العليا في باريس، وانفجرت ضاحكة عندما استكمل علي ساخرًا "أيوه إحنا شيوعيين الفواجرا زي ما بتحبوا تسموهم هنا... في مصر بيسمونا يسار الصالونات" - ثم أضاف بعد أن فاجأ نفسه بجرأته "بس على فكرة اليسار المصري ابتدى فعلا في صالونات العباسية والزمالك على إيد ولاد الباشوات في الثلاثينات والأربعينات من القرن اللي فات، وداه ما يمنعش إنهم دفعوا التمن غالي وقضّوا سنين طويلة في المعتقلات.

ساد صمت قصير غير مريح عرف منه علي أن الآخرين يفكرون فيما قاله... وكأنه إقرار منه أنه يأتي من طبقة مختلفة عما يحاول أن يوحي به معظم الوقت.

وسأله چان چاك بشيء من البراءة "وفيه حركة يسارية قوية في مصر لسه؟

"كان فيه حركة يسارية قوية في السبعينات وبعدين ظهرت تاني في بداية الألفينات مع الانتفاضة الفلسطينية التانية وحرب العراق، بس النظام المصري أضعفها بعد مظاهرات 2003، وعمل حملة اعتقالات موسعة وبعدين أسهموا في صعود اليمين الديني من خلال

ما اتقابلنا بكام يوم. راح يعيش في نيو أورلينز. أنا قاعدة مع صاحبته السابقة لحد ما ألاقي مكان أأجره بعد ما أعمل الديفيليه الجاي".

نظر إليها وهو لا يفهم أكثر ما تقوله، لأنه لم يكن يريد أن يفهم ولم يجد أهمية لذلك في هذه اللحظة، وعندما نظر إليها مرة أخرى رأى مكان هالة الغموض التي اكتنفتها أول مرة مجرد فتاة مغلوبة على أمرها.

تساءل كيف وصلت بها الحال لما هي عليه، وهي تعمل كموديل مع جاليانو، ولكنها ربما ليست ممن يعتبرهن مصمم الأزياء من الفرز الأول، ثم لماذا يصدق أنها تعمل عارضة أزياء من الأساس؟ كل شيء في آن غامض وليس بالضرورة حقيقيًا. إنها تعيش في عالم موازٍ وهو على وشك أن ينجرف داخل هذا العالم، طواعية وبكل سرور.

فوز الإخوان المسلمين بـ 88 مقعد في إنتخابات مجلس الشعب في 2003".

***

جلس عليّ وآن يحملقان في السماء أمام الكنيسة دون أن يقولا كلمة. غالب علي النوم والمراوح الحتمية بعد ما يقرب العشر ساعات من الشرب المتواصل. بدت آن أكثر استسلامًا من قبل. وضعت رأسها بين صدره وكتفه في وضع يوحي أنها تريد أن تنام هي الأخرى. نظرت إليه وقبّلته. اتجها إلى العمارة وفتح علي الباب الرئيسي وعبرا الفناء ولكنهما توقفا مرة أخرى عند مدخل المبنى "ب" عند بداية السلالم الخشبية وغابا في حضن وقبلة طويلتين إلى أن استجمع علي رشده ونظر إليها مطولا لأنه لم يتبين من هي في البداية. ظهرت له في البداية كفتاة فرنسية أحبها وهو في التاسعة عشر من عمره، زاد من هذا الإحساس طعم اللبان بالنعناع الذي كنت تمضغه تمامًا مثل صديقته الفرنسية في الماضي، وتحولت لوهلة إلى ممرضة في الحرب العالمية الأولى، كما رآها في صورة كباريه العدم، ثم صعدا إلى شقته وجلسا على الكنبة المجاورة للنافذة وأخذا ينظران إلى الشجرة المقابلة دون أن يلفظا كلمة واحدة، إلى أن اخترقت الصمت "لازم أعترفلك بحاجة...".

عندما لم يجاوبها أضافت "كيڤين سافر من فترة. يمكن بعد

الفصل السادس

رامي واصف يسكن شارع الأبيس في مونمارتر منذ ما يقارب العشر سنوات. عندما قدم إلى باريس في بداية الألفينيات هاربًا من مصر، لم يكن يمتلك شيئًا تقريبًا. كان في البداية، مغضوبًا عليه من عائلته القريبة من النظام بسبب حكم قضائي لم يكن يتحدث عنه مع أحد، نفذ جزءًا منه ولكنه قبل النقض، عندما خرج بكفالة، تمكن من السفر خارج البلاد، ولم يعد من وقتها. عمل كل شيء حتى يستطيع أن يتعايش، ثم استغل معرفته بأحوال مصر والشرق الأوسط وإتقانه الفرنسية، فعمل في الصحافة، وتمكن من استئجار شقة صغيرة في حي مونمارتر. تعرف إلى زوجته زهرة الفلسطينية من رام الله خلال مظاهرات شتاء 2009 في ميدان الجمهورية المنددة بالقصف الإسرائيلي على غزة. كانت هي من المنظمين بحكم كونها جزءًا من اللجان المتضامنة مع فلسطين، وكان هو يحتاج أن

يكتب موضوعًا لجريدة ليبراسيون، وعن طريق زهرة تعرف إلى مي وزوجها يوسف زميليها في لجنة التضامن وأصبحوا يتقابلون على فترات.

خلال شهر أغسطس، توطدت صداقة رامي مع علي. لسبب ما رأيا أوجه تشابه بينهما. حكى له علي على الفور عن عائلته رغم أن مي كانت أعطت رامي نبذة قبل ذلك عن الموضوع بعد أن طالبته أن لا يفتحه مع علي. أما علي ففتح معه الموضوع بحذر في البداية. كانت الأحاديث عامة ما تبدأ بالمزاح المتبادل والسخرية وأحيانا قليلة تتحول للجدية رغم محاولات الاثنين تفادي الحوارات الجادة عندما يتقابلان.

مر الشهر بكل رتابته وملله تقريبًا بعد أن أصبحت باريس أقرب إلى مدينة أشباح باستثناء المناطق السياحية مثل منطقتي برج إيفيل والشانزيليزيه، حيث يتوافد السائحون الأمريكيون واليابانيون بكاميراتهم على تيراسات الكافيهات وعلى المزارات السياحية.

اتصل رامي بعلي ذات صباح سبت كعادته "بتعمل إيه؟ ياللا تعالى نروح نتغدّى في سان چيرمان".

جاء صوت علي مترددًا على غير عادته "مش عارف.. طيب استنى.. حاشوف مع آن إيه نظامها. مكسلين شوية".

"ما تهرجش بلاش كسل. الجو حلو وبعدين هات آن وتعالى".

"طيب أوكي.. نتقابل على الساعة 3 كده؟".

"إنت عايز تتعشى والّا إيه؟ سيبك من النظام المصري ده بقى، وتعالى نتغدى الساعة واحدة علشان نستفيد من اليوم".

جاء صوت علي ضاحكًا رغم أن مزاجه لم يكن رائقًا بعد أن أوشكت نقوده على النفاد مرة أخرى ولم يدر ماذا سيكون مصيره بعد ذلك أو مصير صديقته التي تتقاسم معه مسكنه وطعامه. تبقى معه من العمولة 2000 يورو بعد دفع الإيجارات وتسديد دينه لإجلال.

"طيب خلاص استناني الساعة واحدة. عايز تتغدى فين؟ والّا تفطر!".

"تعالى لي في ريستوران لو چيرمان في تقاطع شارع بوسي وشارع السين، وهات آن معاك. زهرة جاية برضه".

"خلاص أشوفك كمان شوية".

أنهى علي المكالمة واتجه إلى حجرة النوم، حيث كانت آن ما زالت تغط في سبات عميق. ربت بيده على كتفها المكشوف من تحت اللحاف "تحبي تصحي؟ الجو حلو وممكن نروح نتغدى في سان چيرمان مع رامي وزهرة".

فتحت عينيها نصف فتحة "الساعة كام؟".

"عشرة".

"اممم.. طيب حنام شوية كمان.. ممكن تصحيني كمان ساعة؟".

"أوكي".

اتجه مرة أخرى إلى غرفة المعيشة عند المائدة الصغيرة المجاورة للنافذة، حيث كانت أوراق روايته مبعثرة يمينًا وشمالا. جلس وأخذ يقلب فيما كتب. وضع ورقًا أبيض أمامه ليكتب، ولكنه لم يتمكن من كتابة شيء. انشغل تفكيره بالأزمة المقبلة عليه. من الممكن أن ينتهي من كل مشاكله لو اتصل بأبيه الآن وطالبه بمساعدة، ولكنه لم يفعل وفتح النافذة لينظر إلى شجرته وإلى الكنيسة ومن تبقى من أهل الحي فيما أصبح مدينة للأشباح في شهر أغسطس. أشعل سيجارة وأخذته أفكاره بعيدًا إلى ماضيه في مصر، عندما كان يدير شركتين ومكتبًا كبيرًا مليئًا بالموظفين ويعيش وحيدًا في منزله ولديه خادم وسائق، ولكنه لم يكن سعيدًا. في البداية أغلق عمله وانزوى في شقته ثم أغلق شقته وغادر. كل هذا يبدو له بعيدًا. خلافاته مع والده وحنقه على نفاق المجتمع الذي كان يعيش فيه. عندما اقترب أبوه من دوائر صنع القرار، ظهر له كثيرون يريدون مشاركته. كان يضطر كل يوم تقريبًا لإفهام أحدهم أنه ليس لديه النية في البدء في أي عمل جديد. في البداية، كان يفهمهم بهدوء. أحيانًا كانت تستهويه فكرة لمشروع ويرى نفسه وقد قام بهذا المشروع ودرّ عليه أموالا

طائلة، وبالتدريج علم أن ليس هذا ما يريده من حياته. حاول أن يتقمص الدور من خلال مكتبه وموظفيه ولكنه لم ينجح، فكانت الفترة الأخيرة له في مصر، فترة تدميرية وكأنه كان يخرج لسانه لكل النفاق الذي استشعره من حوله، ولكنه أخرج لسانه لنفسه قبل أي شيء. كان هؤلاء الناس على قدر من السطحية لم يسمح لهم أن يتحروا عنه وعن قناعاته قبل أن يحاولوا إقناعه، فانتهى به الأمر أن يصدهم بعنف، وأن يقلل من دائرة أصدقائه ويتمسك بأصدقائه القدامى فقط. تذكر كيف جاءه أحدهم في حفلة ذات مرة، واعترف له صراحة أن آخرين دفعوه للتقرب من علي وضمه إليهم في أعمالهم. على الأقل، كان هذا الشخص أكثر صراحة من الآخرين. كان هذا من جانب التجار لأنهم لم يعرفوا أما الآخرون (الأجهزة الأمنية) فكان على قناعة أنهم كانوا غير راضين عنه، وأنهم كانوا يستغلون حياته الخاصة لينقلوا إلى والده أن سلوكه مشين. بالطبع لم تكن الحفلات هي ما يزعجهم بقدر معرفتهم به من الماضي ومعرفتهم بآرائه السياسية التي لا تتفق مع مكانة والده الحالية من الرجل الكبير. ولكن فليرم كل هذا في أول صندوق قمامة. هو هنا الآن لديه هذه الشجرة أمامه وفتاة جميلة تنام في غرفته بالداخل. أما ما حدث بالأمس، فهو ليس بالضرورة فخورًا به، ولكنه حدث ولن يستطيع تغييره الآن. ربما يستطيع التأثير على غده، رغم أنه يشك في إمكانية أي شيء الآن.

جاءه جرس هاتفه ليقطع عليه أفكاره. الرقم من مصر. من ذا الذي يتصل به من مصر الآن؟. لم يعد يتلقى أي مكالمات إلا من أهله منذ أن عرف أغلب الناس أنه لم يعد موجودًا وليس من ورائه جدوى. تكلم بحذر بالغ بلهجة المتسائل بالفرنسية "آلو. أيوه. مين معايا؟".

جاءه صوت مصري "إزيك يا علي. أنا سليم رياض. أخبارك إيه؟".

أول ما ورد إليه كان إجلال. لم تربطه بسليم صداقة وقت المدرسة والجامعة.. مجرد زمالة. أعَلِم سليم بعلاقته العابرة مع إجلال؟ ولكن ثم ماذا لو علم؟

"سليم! إيه أخبارك؟ عاش من سمع صوتك".

"تمام تمام يا علي. جيت على بالي أخيرًا فقلت أسأل عليك. إنت عارف إن أنا رجعت من لندن من فترة". ثم مضيفًا ببساطة الغرض منها تقريب المسافات مع زميل دراسته القديم "أنا رجعت وأنت مشيت".

لم يرغب علي في إبداء مفاجأته بهذا الخبر حتى لا يظهر ككاذب إن كان سليم يعلم أي شيء عن موضوع إجلال. إن كانا ما زالا على اتصال، فبالتأكيد ستحكي له أنها أعلمت علي بعلاقتهما

وبعودة سليم إلى مصر، وإن لم تكن أعلمته فمن الأفضل أن يبدي مفاجأة بسيطة. اكتفى علي بالتأكيد بشيء من البلاهة المصطنعة "أيوه أيوه شفت إزاي. لكن إيه اللي رجّعك؟".

"دي حكاية طويلة. المهم أنت عارف أنا باشتغل فين دلوقت؟ مع والدك".

إذن هذا هو سر هذه المكالمة. مستفيد آخر ممن كانوا يحاضرونه قبل ذلك، إلا أنه فوجئ بصوت سليم يؤكد له عكس ذلك وهو يقول مازحًا "بقالي شوية في الشركة، ودلوقت عرفت أنت سافرت ليه".

ورد إلى عليّ أنه ليس بتلك الحميمية والقرب اللتين تسمحان لمحدثه أن يخوض معه في قصته هو وأبيه.

خيب سليم ظنه مرة أخرى "الناس اللي حواليه صعبين جدًا. هو التعامل معاه كويس، لكن اللي حواليه. الشركة ممكن تعمل شغل أحسن من كده بمراحل. لكنهم رافضين أي تغيير علشان خايفين على مراكزهم".

أجابه علي ضاحكًا لأول مرة "اللـه معك... أهلًا بيك". وأضاف "لكن قُل لي. أنت جِبت نمرتي منين؟".

"تفتكر منين يعني؟ فكر شوية كده. صديقنا المشترك الصحفي".

انفجر علي ضاحكًا "أيوه هوّه.. ما فيش غيره. الواد ريفو. عامل إيه الفَقَري ده؟"

"زي ما هوّه. بيلعب درامز مع فرقته بالليل والصبح بيجري على أي خبر يكتبه. بنتقابل في وسط البلد. بنروح الأفتر إيت ساعات وأوقات تانية بنروح إستوريل".

"والدنيا عاملة إيه غير كده يا سليم؟" سأله علي بتأثر حاول أن يخفيه.

"والله يا علي ما فيش حاجة بتحصل أوي. أكن الزمن واقف. تحس بحاجة تقيلة لكن الناس ما بتتكلمش. تحس إنهم ماشيين في الشارع مِسَهّمين. اللي يقدر يكون مش موجود دلوقت زيك كده يبقى أحسن له".

ساد بينهما صمت للحظات ثم تبادلا السلام على وعد أن يبقيا الاتصالات مفتوحة بينهما.

"خلينا على اتصال وسلم لي على ريفو".

"أنت طبعا مش ناوي تيجي قريب".

"لا يا سليم مش ناوي خالص. أشوفك على خير".

***

جلس رامي في مقابل علي وآن على تراس كافيه لو بوسي. قاربت الساعة على السادسة مساء. رحلت زهرة بعد الغداء مباشرة لتحضر اجتماع لجنة من لجان التضامن مع فلسطين. كانوا قد أنهوا زجاجتين من النبيذ الوردي عندما صاح رامي وكأنه عثر على فكرة جديدة "إزازة تانية والّا بُص كفاية روزي. تيجوا نطلب إزازة شمبانيا؟".

نظر علي إلى آن متسائلا بعينيه ولكنها لم تجبه فقط أومأت. لم تكن آن من النوعية التي تقول لا لأي شيء بالذات لو تعلق الموضوع بأي مكيفات.

"أوكي. ليه لأ. بس حانحتفل بإيه بالضبط؟".

"يووه فيه مليون حاجة نحتفل بيها. حاقول لك على عشرة أسباب دلوقت" قالها رامي بلسان ثقيل إلى حد ما ثم أضاف وهو ينظر إلى آن ويرفع ذراعه في اتجاهها مرحبًا" أول سبب هو إن معانا آن دلوقت. إنها معاك". قالها وابتسم ثم وضع يده على بطنه الصغير مثلما يفعل الناس المستريحون مع أنفسهم حتى بعد أي شطحات، لمعرفتهم أن كل شيء ينبع من نية صافية بعد وجبة دسمة وشراب من نوعية جيدة.

ابتسما - آن وعلي - للإطراءة، ثم أخفت وجهها بعض الشيء وهي تزيح إسدالة شعرها الكستنائي، فأضاف ذلك إلى جمال وجهها

الذي أصبح منذ انتقلت للعيش مع علي أقرب إلى جمال طفل شقي قام بعمل كارثة ويحاول أن يجد لنفسه مخبأ.

"طيب والسبب التاني؟".

"إن إحنا قاعدين هنا في أحلى مدينة في العالم وبعدين فيه سبب تالت".

"قول علشان نلحق نطلب قبل ما المحل يقفل!".

"السبب التالت إن ما فيش باريسيين. أهل البلد سافروا. بُص حواليك ما فيش غير سياح في كل حتة".

"ما عندك آن آهو. باريسية درجة أولى. صح يا آن؟".

بدا عليها بعض التململ ولكنها ابتسمت ابتسامة باهتة وأجابته "لأ، أنا سايحة زيي زي الناس اللي أنت شايفهم حوالينا دول. تلاقي أغلبهم جايين من كاليفورنيا أو من نيويورك يعيشوا فيلم جين كيلي، أمريكي في باريس. بيقعدوا يصوروا صور كتير ويروحوا يتفرجوا على الشو بتاع الليدو، وبعدين يطلعوا كنيسة القلب المقدس، بس وبعدين يرجعوا للمكنة اللي جايين منها".

"شوفت بقى إن آن مش منهم. يبقى ده هو السبب الرابع".

"أنت بتغش، وبعدين مش مشكلة... ميتر عايزين إزازة شمبانيا".

قالها علي وهو يعلم بداخله أنه يقترب من النهاية الحتمية لحلمه، وأنه ليس بحوزته كم النقود الذي يسمح له أن يعيش هذه الحياة. بالتأكيد لن يُبدي لهما أي شيء. تمتم وهو يبتسم ابتسامة صغيرة وينظر إلى الأرض مثل يوم كافيه ڤوچيرار مع إجلال "ياللا.. بايظة بايظة"، ولكن رامي لم يسمعه. كان مشغولا بتفحص المارة وبانتظار زجاجة الشمبانيا ونسي كل شيء عن الأسباب العشرة التي كان بدأها.

أحضرت النادلة زجاجة مويت إي شوندون داخل الشامبنييره وفتحت الغطاء، فأصدر صوت الفرقعة، والتفت رواد المقهى الآخرون وهم يبتسمون وكأنهم يشاركون علي وأصدقاءه لحظات فرحتهم رغم أن علي لم يجد سببًا لذلك، فإنه أراد أن يُكمل اللعبة التي بدأها مع رامي، فسأله بكل بساطة "السبب الخامس".

نظر إليه رامي فاتحًا فاهه ومبتسمًا. حتى آن كانت قد بدأت اللعبة تروق لها فربتت على كتف رامي وصاحت بصوت أسمع الموائد من حولهم "أيوه عايزين السبب الخامس علشان نشرب في صحته".

وقف رامي ممسكًا بكأسه وكأنه يُعلن عن شيء غاية في الأهمية "السبب الخامس هو إن علي معانا النهارده.." ثم ناظرًا إلى علي

بجدية خارجة عن السياق العام للجلسة "إن علي جه من مصر وقاعد في باريس.. في صِحِتك يا صديقي".

وقف علي ونظر حوله كأنه يتم تكريمه وصاح بتأثر "في صِحّتك يا رامي".

"والسبب السادس حاقولكم عليه من غير ما تسألوا... السبب السادس لسعادتنا النهارده هو" ثم صمت ثواني ليُشوِّقهم لما سيأتي ثم صاح "السبب السادس هو مصر.. أيوه مصر. إن إحنا النهارده مش في مصر. إن إحنا بعيد.." صمت علي ومط شفتيه كعادته عندما يتأزَّم من شيء ثم رفع كأسه دون أن يقول شيئًا رغم موافقته على ما قال رامي.

سرحت آن ببصرها في اتجاه شارع مازارين ووقفت فجأة متمتمة "ثانية واحدة".

مد علي بصره في الاتجاه الذي سلكته، فوجدها تقبّل فتاة بحميمية وبدأت معها حديثًا بدت له فيه جدية لم يتفهمها. تعرف إلى صديقتها فيرونيك، فتاة كيڤين. استغرق الحديث خمس دقائق، رجعت بعدها آن ودون مقدمات مدت يدها إلى كرسيها لتجذب حقيبة يدها وقالت لعلي بكل هدوء "حاروح مع صاحبة كيڤين شوية بيتها هنا. عايزاني في موضوع".

لم ترق له النظرة الخائفة التي رآها في عينيها واكتفى بهز رأسه على مضض "طيب أنا قاعد شوية هنا مع رامي وبعدين حارَوح. أنت معاكِ مفتاح البيت".

"أوكي. باي سويتي" قبّلته على فاهه سريعًا ثم اتجهت لرامي وقبّلته على وجنتيه مودعة وغادرت في اتجاه صديقتها دون أن تلتفت إليهما مرة أخرى.

نظر إليه رامي نظرة الفاهم لبواطن الأمور، وقال له بكل هدوء "عايز تعرف السبب التامن؟".

"مش أوي، وبعدين أنت ما قلتليش السبب السابع أصلا".

"مش لازم السبب السابع، علشان نعرف نخلص الأسباب قبل ما نروّح! حاقولك على سبب الاحتفال التامن حالا". ودون أن يعطي علي فرصة ليعلق، أضاف "السبب هو إن أنا وأنت ما فيش حاجة ممكن تهزنا دلوقت بعد اللي عدينا فيه قبل كده. بالذات الستات. صح؟".

"صح يا صديقي" وضاحكًا بشيء من الفتور والمرارة اللتين كان يظن أنه تركهما وراءه في القاهرة عند مغادرته "عندك حق.. المفروض نكون بعد كل ده اتعلمنا، لكن واضح إن العلام ما بيخلصش".

"لأ ما بيخلصش، والدليل إن أنا قاعد هنا بقالي عشر سنين باتعلم".

"ما فيش أخبار عندك من هناك؟ إنك ممكن ترجع؟".

"لأ لسه القضية ما اتقفلتش. وبعدين لو اتقفلت.. مش عارف لو عايز أرجع والّا لأ وإنت مع أبوك فيه أي جديد؟".

"ما فيش وما حاولتش".

"طيب والشغل حاتعمل إيه علشان تعيش؟".

لم يكن هذا الموضوع هو ما يريد علي الخوض فيه بالضرورة، فقرر أن يجعله أكثر عمومية "طول ما هوّه حواليه نفس الدواير من الانتهازيين والمستفيدين يبقى ما فيش أي جدوى من الكلام معاه. وبعدين أبويا مش من النوع اللي بيواجه. ما عندناش مواجهات في العيلة أوي".

"ولا إحنا. الظاهر إن دي سمة مشتركة بين الناس اللي قريبة من النظام. ما بيتكلموش كتير وما بيواجهوش. وإحنا بندفع التمن من سكات. عرفت ليه أنا مش عايز أرجع دلوقت حتى لو القضية اتقَفلِّت؟ حارجع أعمل إيه بعد عشر سنين حتى لو في زيارة؟".

نفخ علي في سيجارته في ضجر "بُص أنا برضه مش راجع حتى لو غسلت أطباق هنا".

نظر إليه رامي نظرة لم تخلُ من سخرية "صدقني غسيل الأطباق مش زي ما أنت فاكر وبعدين أنا لما جيت كان عندي عشرين سنة. في الثلاثينيات البهدلة مش بالساهل زي في العشرينيات".

ساد صمت لفترة بين الاثنين إلا أن صاح رامي "الحساب يا مدموازيل لو سمحتِ". ثم موجِّهًا كلامه لعلي "يا دوبك أرجع أريح شوية".

***

سلك علي شارع دوفين إلى البولفار سان چيرمان، ولكنه بدلا من أن يتجه إلى فتحة محطة مترو مابييون، قرر أن يهيم على وجهه بعض الوقت. الأضواء من حوله غمرته بإحساس بالأمان كان يفتقده الليلة. إنه يعلم أنه سيذهب إلى منزله ويبقى وحده فريسة لأفكاره، وأن فرص أن لا ترجع آن الليلة أكبر من فرص رجوعها. إحساسه يقول له ذلك وهو على حق.

عبر شارع سان چيرمان حتى سيفر بابيلون. كانت بعض الكافيهات لا تزال مفتوحة، وعلى تراساتها جلس بعض الرواد المتبقين، وبعض السيّاح الذين انتهوا من زياراتهم. أحس بلفحة برد خفيفة تضربه في وجهه، ولم يمانع لحاجته لعامل خارجي يفيقه بعض الشيء. "اختفاء آن المباغت اليوم ليس وليد المصادفة، كذلك ظهور صديقتها الغريبة. لا بد أنهما كانتا تتفقان قبلها من

خلال رسائل هاتفها، بينما هو مستغرق في الحديث مع رامي. تُرى ما السبب وراء اختفائها؟ أهو سبب مادي؟ بالتأكيد قد أحست أنه ليس معه كم النقود التي كانت معه قبل ذلك. هذه أشياء تُحس دائمًا. ولكن أيحبها أم هي مجرد هنا لتملأ فراغًا ولا تتركه مع وحدته؟ الوحدة قاسية، ولكنه كان أكثر وحدة قبل أن يغادر القاهرة رغم التفاف أصدقائه حوله. كان يشعر بفراغ يحاول أن يملأه عن طريق صرف نقوده على أشياء يعتقد أنها ستجلب له متعة تعوضه عن هذا الفراغ. قصة حب أخرى فاشلة. ثم ماذا؟ مرت عليه قبل ذلك قصص كثيرة مماثلة ومختلفة. إن كان اختفاؤها الليلة لسبب مادي، فلتفعل ما تفعل. كل شيء سيتبين له إن لم يكن الليلة فغدًا. حدث له ذلك مرارًا قبلها، وها هو يحدث ثانية، وقد يحدث بعد ذلك. الميزة مع إجلال هو أنه لم تكن لديهما أي توقعات. صداقة قبل أي شيء. جاءه وقت كان يجني أموالا لا بأس بها، صرفها عن بكرة أبيها إلى أن انفض المولد. ثار على الأوضاع فانتقم من نفسه فقط، والآن فإنه يُعاقب وبالفعل ليس لديه مانع أن يُعاقب. لم يصرف نقوده كلها فقط، ولكن أخلاقه كانت انحدرت بشكل غير مسبوق. انعكس ذلك على تعاملاته مع الناس معه في المكتب قبل أن يغلقه. كان يفقد أعصابه كثيرًا ويثور لأتفه سبب. أقل موظف في الشركة عند أبيه التي كان يديرها في وقت من الأوقات يجني أكثر منه اليوم، وهو لا يعلم كيف سيدفع إيجاره أول الشهر أو كيف سيأكل بعد أسبوع.

تلك هي العدالة الإلهية وهو يتقبّلها، ولكنه يعجز عن فهم ما أوصله لذلك. لماذا تم إبعاده بهذا الشكل؟ إنه ليس شخصًا سيئًا في النهاية. لقد أخطأ، ولكنهم أخطأوا أيضًا. الفارق الأساسي هو أنه يعترف بذلك ويتقبله اليوم وسيُكمل حياته كما يرغب.

عندما استيقظ علي في اليوم التالي، لم تكن أي من هذه الأفكار ما زالت موجودة. فقط أن آن لم ترجع بالفعل. بالتأكيد، سترجع، فأغراضها موجودة، ثم سيتظاهر وكأن شيئًا لم يكن. شرب قهوته، ثم اتصل بأحمد كمال ودون أن يستغرق معه في حديث طويل وبعد أن سأله عن أحوال العائلة، عرض عليه الأب أن يرسل له مبلغًا شهريًا يستطيع من خلاله تدبر أمره، فلم يعترض وشكره.

الفصل السابع

انقضت شهور وسليم يعمل في مكتب أحمد كمال. يرتدي بذلته كل صباح ويتجه من منزله في المعادي إلى الشركة في المهندسين. يحاول أن يتأقلم بصعوبة على طبيعة العمل في مصر وعلى حياته في منزل عائلته من جديد. يرسل آخر كل شهر جزءًا من مرتبه إلى زوجته السابقة في لندن من أجل مصاريف ابنه الدراسية والمعيشية، ويرسل لابنه إيميلًا كل أسبوع إن لم يتمكن من التحدث معه بسبب اختلاف مواعيدهما. أفنى نفسه في العمل لينسى، وقضى ليالي طويلة في عمل تقييم لشركة العقارات التي سيتم الاستحواذ عليها من الشركة التي يعمل فيها، من أجل إعادة طرحها في السوق مرة أخرى. كان يقابل أمينة باستمرار وأيضا أحمد رأفت. اجتمعوا في إستوريل مساء وأحيانًا اتجهوا إلى "الأفتر إيت" أو إلى منزل رأفت في شارع هدى شعراوي.

نفس الجو الثقيل خيم على القاهرة، كل شيء دل أن الماء المغلي داخل القارورة على وشك أن ينسكب ويغرق كل ما حوله. الجميع كانوا يعرفون، ولكن أحدًا لم يلتفت. بقي الأمر كما هو في السنوات العشر الأخيرة.

أحمد كمال رأى القطار قادمًا في وجهه، ولكنه لم يفعل شيئًا. أدرك أن الوقت تأخر وأنه لن يستطيع فعل أي شيء. هكذا طبيعته. لا يعطي أي ردود أفعال من شأنها تغيير مسار مرتبط بالشأن العام. يتدخل فقط في مجريات أمر عمله وبشدة وحزم في كثير من الأحيان، لأنه رأى أنه هكذا لا يدافع فقط عن مصالحه ومصالح عائلته بل هي مسألة بقاء لا هوادة فيها. وهو طفل شهد والده يفقد كل شيء بعد أن قام نظام يوليو بتأميم الشركات والأفراد. بقيَ هذا الشبح يسكن أفكاره. مشهد أبيه وهو عائد من عمله ذات يوم لا يقف له بواب منزلهم، لأنه لم يتمكن من دفع شهريته بعد أن تم تأميم أسهم يمتلكها. رأى جده يُصاب بالشلل قبل أن يموت جراء إذلال الإصلاح الزراعي له واستدعائه كل أسبوع ليتأكدوا من أن حجم أرضه لا يتعدى المسموح به، دون مراعاة لسنه. حارب حياته كلها كي لا يتكرر هذا المشهد ولم يتورع أن يخرج مخالبه وقت اللزوم. ترك السلك الدبلوماسي، وبعد وفاة والده، استلم الشركة وهي أقل من المتوسطة وتوسع فيها دون أن يغش أو يسرق، ولكنه لم يتهاود مع المنافسة، أو مع أي شيء يُعطل سير العمل، وعندما

انضم إليه علي بعد أن أقنعه بترك الصحافة والسياسة، ثم وجد أنه يضيِّع الوقت في تساؤلات وفي أفعال بدت له كارثية وبعيدة كل البعد عن جوهر العمل، لم يتورع عن إبعاده. عندما حاول علي إعادة هيكلة الشركة اصطدم بالهيكل الوظيفي القديم ولم يأخذ أحمد كمال جانبه.

داخل شركة أحمد كمال لم يقم بأي تغيير يُذكر في الهيكل الوظيفي الذي عمل به منذ ثلاثين عامًا. عندما يتوفَّى أحد الموظفين المخلصين يتأكد من توظيف أحد أولاده وهكذا. مديرة مكتبه كانت هي الآمر الناهي. ينتظر الناس عندها وتحدد هي من يحظى بالدخول أو ينتظر أحيانًا لأكثر من يوم. تلتف حولها مجموعة من الموظفين الذين لا يبرحون منطقة الاستقبال ولا يعبأون بالانتظار ولو على حساب إنتاجهم ما دام سيضمن لهم هذا أن يحظوا آخر اليوم بالاقتراب من صاحب العمل.

في بداية استلام سليم لعمله، كان يدخل كل صباح إلى مكتب أحمد كمال، فنظر إليه الجميع بحيْطة وترقب. عرفوا أنه كان صاحب عمل في أوروبا قبل ذلك، مما كان كفيلا وحده بأن يجعله يحظى بهيبة، وعلموا أيضا أنه زميل علي، فزاد ذلك من حيطتهم، وكان أحمد كمال عند وصوله مكتبه، وبعد أن يحتسي فنجان قهوته الصباحي، يفتتح يومه بمقابلة سليم في نحو الساعة التاسعة والنصف ليتناقشا

في خطة الاستحواذ على شركة العقارات التي تمتلك أراضي في مدينة نصر وفي التجمع الخامس، وعلى ما سيتبعها من عمل خطة لإعمارها ودراسات للسوق ثم طرحها من خلال شركة أوراق مالية. أعجب أحمد كمال بسرعة بديهة سليم وسرعة تحليله للأرقام، إلا أن اتصلت بسليم مديرة المكتب على خطه الداخلي ذات يوم في بداية ديسمبر لتدعوه إلى سرعة التوجه لمكتب رئيسه. استعجب سليم لأنه كان قد قابل أحمد كمال منذ بضع ساعات ولم يكن هناك ما يستدعي أن يطلبه مرة أخرى. اتجه إلى الاستقبال فأشارت المرأة إليه بالدخول على عجل ولم يفهم ذلك أيضًا. لم يرتح منذ أول يوم لهذه السيدة التي تدير المكتب وفي "الربَّاطية" التي تحيط نفسها بها، إلا أنه تحامل على نفسه لأنه أحب والد علي واحترم عقليته.

فتح الباب ليجد أحمد كمال منهمْكًا مع شخص لم يتبينه في البداية لجلوسه في مقابل المكتب وإعطائه ظهره للمدخل.

"سـليم. تعالى عايز أعرفك على حد حيسـاعدنا في المشروع بتاعنا".

التفت الشاب الجالس ووقف، فرجع سليم قليلا إلى الوراء عندما تبين كريم، خطيب فرح ابنة نهلة قريبته. وقف كريم يتفحص سليم وهو ماد يده ويبتسم ابتسامة ترحيب لم تنطل على الأخير.

"كريم حيشتغل معانا على التقييم، وشركته هي اللي حتقوم بطرح

السهم في السوق. الشهرين دول حيبقى معانا في المكتب لحد ما نطرح على آخر يناير".

تفحص سليم خطيب قريبته. كل شيء فيه يذكره بنسر يستعد للانقضاض على فريسته. أنفه المدبب وعينيه اللتين لا يستطيع تمييز نظراتهما إلى ماذا ترميان.

مد سليم يده بشكل آلي. لم يستطع منع نفسه من تذكر الحديث الذي سمعه من هذا الشخص الواقف أمامه خلال حفل خطوبته على ابنة قريبته، ولكه تدارك سريعًا "أهلًا أهلًا كريم" ثم موجهًا كلامه لرئيسه "طبعًا كريم مش غريب. ده خاطب بنت بنت خالتي.... فرصة سعيدة".

بادله الشاب التحية بشيء من الفتور ولم يشر إلى علاقة النسب "فرصة سعيدة يا سليم".

لم يلحظ أحمد كمال الكهرباء الوليدة في الأجواء. كعادته انصب تركيزه كله على العملية التي يقودها، وأضاف بكل بساطة وهو ينظر إلى ورق على مكتبه ويتأهب للعودة إلى عمله وإمضاء شيكات موضوعة أمامه، ثم وهو ينظر مرة أخرى إليهما "يا ريت تحددوا ميعادًا مع بعض بكره الصبح علشان تراجعوا المركز المالي والتدفق النقدي بتاع الشركة".

نظر إليه سليم وهو يضع يده على وجهه بشكل لا إرادي وأجابه وهو يحاول أن يظهر حماسة غير موجودة "حاضر، بكره إن شاء الله نبتدي شغل. حاكون مجهز الورق اللي عندي لكريم". ثم موجهًا كلامه لكريم وهو يشير إلى باب المكتب إيذانًا بخروجهما، استجابة لرغبة رئيسه "اتفضل. اتفضل يا كريم. تعالى أورّيك المكتب تاخد فكرة".

في اليوم التالي، تقابل سليم مع كريم في غرفة الاجتماعات الخاصة بالشركة، كما اتفقا في اليوم السابق... أحضر له كل الأوراق المطلوبة، وتبادلا التحية ثم نظر إليه كريم كمن يقول "أنا عارف إنك ما بتحبنيش لكن ده قدرك. أنا معاك سواء حبّيت أو لأ. أنا عارف إنك أكثر كفاءة، لكن الشغلانة دي محتاْجة واحد زيي يعرف يسَلّك الدنيا أكتر ما هيَ محتاجة كفاءة". فهم سليم كل ذلك من خلال نظرة الشاب أمامه وعينيه اللامعتين الجاهزتين للانقضاض على أول فريسة تقابله.

سارعه كريم "دلوقت الموضوع ده حيحتاج شغل كتير وأنا عارف إنك مشغول بالشركة هنا برضه. صح؟".

ما هذا الكلام الذي يقوله؟ إنه بالتأكيد يعلم أن سليم مُعين في الشركة لتقييم هذا المشروع فقط. أجابه دون أن ينظر إليه "لأ مش

صحيح. أنا ما وراييش حاجة تانية غير تقييم المشروع".

"الحقيقة أنا شايف إن أنا وإنت مش كفاية على الموضوع ده، وعلشان كده اتفقت مع اتنين من الشركة عندي علشان ييجوا ينضموا لينا من بكره".

"بس ده مش الاتفاق مع أحمد بك".

"لا لا ما فيش مشكلة. هو مدّيني كارت بلانش علشان الموضوع ما يتأخرش إن أنا أَكَوِّن التيم بتاعي".

ثم صمت لحظات وهو يتفحص سليم واستطرد "بُص، أحمد بك حكى لي عن خبرتك وعن شغلك في لندن، وأنا كمان سمعت عنك من ناس صحابي شغالين في كناري وورف في لندن. عارف إنك كنت بتدير محافظ بمليارات، وإنك كويس في المجال ده" ثم نظر إليه مليًا وكأنه على وشك أن يُجهز عليه كليةً، وأضاف "وعارف الظروف اللي حصلتلك مع الأزمة في 2008. معلهش هارد لاك.... لكن طريقة الشغل هنا مختلفة شوية، وعلشان ننجح في طرح السهم لازم....".

لم يستوعب سليم ما يسمع. لم يعد يرى غريمه ولا يسمع ما يقول. تزايدت ضربات قلبه وهو يتمتم "ثانية واحدة. حاوصل الحمام"، وخرج متجهًا إلى الحمام. في الطريق، تسارعت الأفكار

في ذهنه بسرعة لم يتبينها "هل يمكن أن يكون هناك ناس بهذه الخسة؟ هذا الشاب لا يتجاوز الثلاثين من عمره، ولا يرتاد إلا مجالس صفوة المجتمع.. من أين أتى بهذه الخسة والوضاعة؟ كيف سيتزوج هذا الحيوان من الفتاة شبه الملاك ابنة قريبته؟ لقد علم أن سليم موجود في هذا المشروع، وقبل حتى أن يقابله سارع بالبحث والتنقيب عنه وعن ماضيه. لو كان انتظر دقيقة واحدة أكثر من ذلك داخل قاعة الاجتماعات، لا شك أنه كان سيبدأ الخوض في حياته الخاصة. لديه خطة واضحة وأهداف يريد أن يحققها، وسيدمر أي شيء أمامه في سبيل ذلك.

استجمع سليم قواه وهو في دورة المياه رغم أن ضربات قلبه استمرت تدق بشدة وتصبب العرق من جبينه رغم إلقائه الماء البارد على وجهه مرة وراء الأخرى. رجع إلى قاعة الاجتماعات ونظر إلى غريمه. كان ما زال جالسًا كما هو على كرسيه، وكأن شيئًا لم يحدث... توقف سليم أمامه ونظر إليه بتحدٍّ قائلا "طيب الورق عندك. خد وقتك. أنا طلع لي حاجة مهمة لازم أعملها النهارده. نتقابل بكره في نفس الميعاد. سلام".

***

خرج سليم من المكتب بعد أن فك كرافتته واتجه إلى سيارته وأخذ يقودها دون جهة محددة لمدة ساعات. ما يحدث الآن معناه

أن هناك إمكانية أن يفقد عمله. لن يستطيع التعامل مع هذا الشخص المغرور. إنهما يتبعان مدرستين مختلفتين تمامًا. هو، سليم يحسب كل شيء بالورقة والقلم ويتأكد من قيمتها الحقيقية، أما هذا الشخص فله أجندة وخطة ومعه ناس آخرون وهناك اتفاقات مسبقة وسليم بالتأكيد ليس جزءًا منها.. وماذا عن أحمد كمال؟ هل سيأخذ موقفًا؟ أم يقتنع بكلام هذا الشاب المغرور؟ قد يقتنع... لسبب واحد وهو أن كريم هذا يعرف جيدًا كيف يقدم بضاعته ويُغَلِّفها بشكل لا يضع مجالا للشك في قيمة ما يقول، وهو - سليم - لا يعلم تلك الحيل ولا يُتقنها. وماذا لو فقد هذا العمل؟ كان يُدِر عليه دخلا إضافيًا يسمح له بإرسال مبلغ إضافي إلى ابنه شريف. آه. شريف.. كم يفتقده.. الحياة ليس لها معنى دونه، يفتقد قضاء عطلة نهاية الأسبوع معه ومشاهدته وهو يلعب كرة القدم. ولكن ما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟ لديه إيراد الأرض يستطيع أن يتدبر منه أمره حتى يجد عملًا آخر إن استقال، ويستطيع أن يستمر في ارسال مبلغًا شهريًا إلى شريف من الإيراد.. سيكون أقل بالطبع ولكنه لن يقطع ما يرسله وسيزيده مرة أخرى قريبًا.

توقف بسيارته على كورنيش المنيل الضيق، وخرج منها ثم أشعل سيجارة وهو يلقي ببصره على الجانب الآخر من النيل. وقف هكذا لمدة عشر دقائق. رأى فلوكة تمر. بها عروسان يحتفلان

وسط أهليهما. انبعثت الموسيقى الصاخبة من المركب، وأخذ من فيها يرقصون على إيقاع موسيقى غريب عليه. لم تكن حركاتهم متناسقة بالضرورة، ولكن بدت عليهم جميعًا سعادة كان قد نسيها باستثناء اللحظات التي كان يقضيها مع أمينة. أخرج هاتفه من جيبه وبحركة تلقائية كتب اسم إجلال، فرن هاتفها وجاء صوتها مرحِّبًا كعادته "سليم... وحِشتني".

"وأنت.. أخبارِك إيه يا إجلال؟".

"مال صوتك؟ فيه حاجة والّا إيه؟".

"لا أبدًا.. بس جِيتي على بالي وعايز أعرف أخبارك إيه؟ لندن عاملة إيه؟".

"اسمع أنا عارفاك كويس وعارفة صوتك. فيه حاجة مش مظبوطة. شريف كويس؟".

"أيوه الموضوع مش شريف. مشاكل في الشغل. فيه ناس زبالة في كل حتة يا إجلال. ما بيخلصوش".

سرد لها سليم تفاصيل قصة عمله مع أحمد كمال، فتوقفت للحظات عند سماعها الاسم، ولكنه لم يعر ذلك انتباهًا وأكمل قصته مع كريم، وبعد أن فرغ عرضت عليه بكل بساطة "تحب آجي أقضي أسبوعًا في مصر نعمل أي حاجة تغيير؟". ولكنه سارع

برفض عرضها متحججًا بأنه يجب أن يركز في العمل ويعطيه آخر فرصة قبل أن.يقرر مغادرته نهائيًا.

"طيب إوعدني تكلمني تاني لو محتاج تتكلم مع حد".

***

في المساء، اتجه سليم بسيارته إلى وسط البلد، وبعد أن ركن السيارة أمام نادي السيارات، عبر شارع قصر النيل ومنه إلى ممر إستوريل الضيق. جلس أحمد رأفت على إحدى المناضد وبصحبته أمينة. انفرجت أساريرها عندما رأت وجه سليم الأسمر يطل من خلف الباب المزلاج، وبدت أجمل مما كانت قبلها بخمس دقائق، وهي تتبادل مع رأفت تحليلاتهما لما سيحدث بعد نتيجة انتخابات مجلس الشعب، وكذلك أحمد رأفت. كان ينظر دائمًا لسليم بإجلال، فانعكس هذا على جسمه الصغير المكتنز ويديه الصغيرتين اللتين تحركتا في كل مكان ترحيبًا بصديقه.

لم تنتظر أمينة أن يجلس وسارعته "إيه أخيرًا جيت ؟ إيه حكايتك النهارده؟ الراجل أحمد كمال ده مستعبدك".

جلس سليم على الدكة بجانب أمينة كمن ينفض عن كاهله حملًا ثقيلًا ورفع يده طالبًا زجاجة بيرة ستلا، ثم وضع يده فوق كتف أمينة وقال لها بكل هدوء وهو ينظر أمامه للفراغ "ما شكلهاش

يا أمينة.. أحمد كمال شكله بِخ قريب".

تدخل رأفت "إيه؟ ليه إيه اللي حصل؟ فيه مضايقات؟".

"حاجة كده يا ريفو. الظاهر ما فيش فايدة".

لم تستطع أمينة أن تكتم ما في داخلها أكثر من ذلك، وتدخلت بعنف "ما أنا قلت لك من الأول يا سليم. الناس دي نظامها صعب".

"إزاي يا أمينة؟ مش شغل؟ هوّه سيستم واحد. الراجل طلب مني حاجة محددة في صميم خبرتي، ورحت أنفذها له زي ما نفذت عمليات مشابهة مليون مرة قبل كده فيَ إنجلترا".

قاطعه ريفو بسرعة من يريد أن ينقذ موقفًا فيبدأ في التلطيش يمينًا ويسارًا "طيب وبعدين.. طيب قلت لعلي كمال؟ أنا باكلمه ساعات؟ تيجي نكلمه دلوقت؟".

ابتسم سليم لأول مرة منذ دخوله إستوريل على ما يقوله صديقه "أنت بتهرج؟ يعني أنت مش عارف علاقة علي بأبوه إيه؟".

تدخلت أمينة مرة أخرى كمن لم يسمع أي شيء من الحديث السابق "طيب إيه اللي حصل؟ إديلنا فكرة".

نظر إليها سليم بتململ وأجاب مختصرًا "ولا حاجة واحد جديد جه بيشتغل بطريقة مختلفة عنّي".

سادت لحظات من الصمت أوحت إلى سليم أنهما فهما ما كان يرمي إليه، ولكن أمينة كالقطار لم تتوقف "وبعدين طبعًا مش فارق حاجة مع الناس دي بعد نتيجة انتخابات مجلس الشعب".

نظر إليها سليم بحسم وتذمر لم ترهما في وجهه قبل ذلك "إيه اللي دخل انتخابات مجلس الشعب وزفت دلوقت؟ باكلمكم في حاجة مالية بحتة".

تدخل رأفت وربت بيده البضة الصغيرة على ذراع سليم ليهدئه، ولكن الآخر لم يتوقف وأكمل بصوت أسمع جالسين آخرين من حولهم "الموضوع منافسة بحتة وتضارب مصالح".

اندهش سليم أكثر من صديقيه برد فعله المبالغ فيه. لم يكن يفقد أعصابه بسهولة، ولكنه هذه المرة أحس بضغط لم يشعر به حتى بعد أن فقد ثروته في إنجلترا. لم يعرف أساس هذا الشعور. إجلال فهمته أكثر من أمينة. طبيعة عملها المشابه له تجعلها ترى هذه المواضيع مثله من زاوية مالية بحتة، وترى صراع المصالح واضحًا. ولكن أمتأكد هو أن أمينة لا ترى الأشياء أكثر وضوحًا هذه المرة؟ هل لهذه الدرجة الموضوعات كلها مرتبطة ببعضها؟ على كل حال سيرى غدًا الصورة كاملة.

***

في الأيام التالية تحققت لسليم ظنونه. كريم كان يعمل على تقييم السهم بأعلى من قيمته. قالها له صراحة وهو متربع في قاعة الاجتماعات بقوة وجبروت لا يقبلان نقاشًا، ووسط نظرات رضاء اثنين من مساعديه جلسا يُرتبان الأرقام بعناية على أجهزتهما.

عندما كان يخرج من مكتبه كان أحيانًا يجد كريم واقفًا يتودد لمديرة المكتب، ويراها تضحك ملء شدقيها بشكل لم يره عليها قبل ذلك.

حاول دخول مكتب أحمد كمال أكثر من مرة، ولكن مديرة مكتبه كانت في كل مرة تجيبه بشيء من التعالي الممزوج بالشفقة المصطنعة "معلهش أحمد بك عنده زيارة من الصبح ومش عارفة حتخلص إمتى" أو بنبرة لا تخلو من إحساس بأهميتها وأهمية رئيسها "معلهش عنده ناس من الحزب وشكلهم مش حيمشوا دلوقت". كانت تتأكد من أن يكون صوتها مسموعًا لزملائها الذين يلتفون حول مكتب الاستقبال لاصطياد أي أخبار أو محاولة توصيل أي أخبار بشكل غير مباشر لصاحب العمل.

في يوم لم يلحظوا مروره، فسمعهم يتحدثون عن علي. كان هناك أحد الموظفين، المخلصاتى، واقفًا متكئًا على مكتب كبيرة السكرتيرات وكان يتباهى بأنه استطاع من أول يوم أن يرى أوجه التشابه بين سليم وعلي "مش فالح زيه. دي عيال عايزة تشتغل بالشوكة والسكينة. مش بتاعة بهدلة"

في نهاية الأسبوع، ترك سليم استقالة غير مسبَّبة لمديرة المكتب وجمع بعض الأوراق الخاصة بعمله وخرج من مكاتب الشركة، دون أن يودع أحدًا وأخذ نفسًا عميقًا وهو يستقل سيارته للمرة الأخيرة من أمام مبنى مكتب أحمد كمال.

الفصل الثامن

لم يتغير شيء في حياة علي كمال لمدة شهور. بقيت آن معه في شقته. تختفي أحيانًا لفترات قصيرة ثم ترجع مرة أخرى دون أن يحاول معرفة سبب غيابها. قبل الاختفاءات، كان يرى على وجهها نفس الهالة الغامضة التي رآها في أول لقاء لهما يوم كباريه العدم مشوبة بنظرات فيها شيء من العنف، وعند رجوعها تصبح كطفلة أليفة أذنبت دون أن يكون هذا في نيتها من البداية، وتحتاج لحضن تستعيض به عن أشياء لا تستطيع أن تصفها. لم يمانع علي ذلك لأنه كان يعلم بداخله أن حكايته معها هي مجرد محطة في حياته، ولأنه لم يكن يمانع أن يخلو له المنزل ليحاول الكتابة.

في البداية بدأ الرواية بالإنجليزية، وبعد أربعة فصول اكتشف أن فرنسيته أصبحت بفضل الممارسة اليومية أكثر تعبيرًا عما يريد أن يكتب من إنجليزيته، فبدأ الكتابة مرة أخرى بالفرنسية. حاول

أن يجد عملًا، فلم ينجح، أو نجح مرة واحدة في إيجاد عمل بشركة عقارات، ولكنه ذهب أول يوم ولم يرجع مرة أخرى، وتناقش جديًا مع روبير في أحد لقاءاتهما أنه يريد وينوي العمل في مطبخ لمطعم يغسل الصحون. كان روبير قد حكى له أنه فعل ذلك لمدة أسبوع، وسمح له بذلك أن يتجاوز أزمة نفسية كانت لديه. بالطبع كان كل هذا كلامًا ولم يتغير شيء.

بقيَ روتينه كما هو. يذهب صالة الچيم ويتدرب على الملاكمة مع مدربه أنطوان ليخرج الشحنة المحجوزة بداخله، ويقابل جيرانه أحيانا في منازلهم أو في المطعم الصغير المجاور، وأحيانًا أخرى يقابل رامي ومي وزوجها يوسف في سان چيرمان أو في مونمارتر. تكررت لقاءاته مع روبير أكثر بعد أن انفصل الأخير عن زوجته، وأصبح لديه وقت أكثر متاح، أحيانًا في كافيه ڤوچيرار وحدهما صباحًا لاحتساء فنجان من القهوة قبل بداية اليوم وأحيانًا أخرى مع ماتيلد وچان چاك وإلييت.

تقدُّم الشتاء جعله أكثر عزوفًا عن الخروج. يقضي لياليَ طويلة أمام النافذة يشاهد الكنيسة والشجرة المقابلة والمارة القليلين الذين يتحدون الثلج والسقيع، ومجموعة ممن بلا مأوى يتدفأون بكونياك رخيص، ويتخذون من مدخل كنيسة سانت لامبير حاجزًا من الهواء وأحيانًا يصرخون تحت تأثير الخمر بفرنسية ليس لها معنى.

أضرم بوعزيزي النيران في نفسه، فاندلعت المظاهرات في تونس، وتابع علي ما يحدث من خلال مي ويوسف، ثم رحل يوسف إلى تونس، وبقيت مي قلقة.

***

ذات ليلة وهو يحمل أكياس مشترياته المنزلية ويصعد السلالم الخشبية المؤدية لشقته، رن هاتفه، ففتح شقته في عُجالة، وأخرج تليفونه من جيبه ليجد عمه إبراهيم على الجانب الآخر بصوته القوي المرح يحييه "يا واد يا علي واحشني. هو اللي يسافر باريس يختفي كده؟".

قفز علي من الفرحة. كان يحتاج صوتًا مألوفًا يُخرجه من الوحشة التي بدأت تغزو حياته رغم وجود آن معه.

"عمي إبراهيم! إنت فين؟ إيه أخبارك؟ ما تقوليش إنك حاتيجي تزورني..".

"أنا فعلا جاي باريس. بس مش علشان أزورك ولا حاجة" ثم قهقه عاليًا واستكمل "عندي مواعيد شغل وحجزت في الجراند هوتيل. بس حاشوفك طبعًا واطمّن عليك. أنا قاعد أسبوع".

أحس وكأنه طفل صغير وهو يصيح "أيوه كده... قُدامك أد إيه وتيجي.. قل لي".

"يوم 10 يناير. ما تجيش تاخدني من المطار" - ثم ضاحكا مرة أخرى بسخرية من ابن شقيقه - "مع إني عارف إنك مش حتيجي.. حتيجي إزاى يعني؟ وأنت لاقي تاكل؟! حاقابلك تاني يوم وصولي في الأوتيل ونخرج نتغدى مع بعض." - ثم وكأنه يحدث طفلًا فعلا - اعمل حسابك نقضِّي الكام يوم دول مع بعض بعد مواعيد شغلي. تحكي لي عن أحوالك شوية".

انتبهت آن لتعبيرات وجه علي، فنظرت إليه بشيء من الفضول ولكنه لم يُعقب على المكالمة باستثناء قوله "عمي.. عمي". فأجابته بعدم اكتراث "تيجي نتمشّى شوية؟".

"حاخش أغيَّر وننزل نتمشَّى. أنت جاهزة؟".

ابتسمت له بشفتيها الدقيقتين وعينيها الضيقتين اللامعتين منبئتين بليلة من تلك الليالي التي يعبر فيها إلى الجانب الآخر حيث الرجوع يستغرق منه أيامًا. هكذا هي. هذا دورها معه تأخذه إلى الجانب الآخر منذ أول يوم قابلها حتى الآن، ولا يسأل أسئلة كثيرة.

وضعا معطفيهما الثقيلين، وضع هو بيريه وهي قبعتها السوداء. تلك التي كانت ترتديها أول يوم وتلفحا بكوفيتيهما وأغلقا الأضواء ثم الباب. رائحة السلالم الخشبية امتزجت بالهواء الذي لفحهما عند دخولهما الحوش الذي يفصل بين البنايتين، وضوضاء السيارات القادمة من الشارع الرئيسي ڤوچيرار بدأ في الوصول إلى أذنيهما.

عند الباب الرئيسي وجدا ماتيلد قادمة من الخارج وتغلق بالمفتاح. قبّلته واكتفت بتحية آن بيدها من بعيد "أنت فين يا علي؟ ما شوفتكش من أسبوعين. افتكرتك نزلت مصر اجازة لحد ما إلبيت أكدت لي إنها بتسمع صوت عندك في الشقة".

"ما باخرجش أوي. بنقعد نتفرج على أفلام".

نظرت إليه ماتيلد وهي تلهث وأعطته نظرة معناها "أحبك ولكن البنت اللي معاك لأ" ثم دون أن تلتفت إلى آن وبلهجة من لا يقبل اعتراضًا، أمسكت بيدها المليئة كتف علي وقالت له "بكره ليلة الكريسماس. جايلي قرايبي. ليلة رأس السنة إنت أكيد حاتخرج. لكن قبل الخروجة تعالى" ثم ناظرة كالمضطرة لآن "تعالوا أنتما الاتنين قبل الخروجة اشربوا حاجة معايا وبعدين كملوا خروجتكم" ثم وهي تهز رأسها "أوكي؟" وتهز رأسها مرة أخرى (دون أن تعطيه فرصة للإجابة) بالإيجاب لنفسها "أوكي" ... "ياللا باي".

ابتسم علي لآن وبادلته الابتسامة، لأنها رغم إحساسها أن الجارة لا تحبها فإنها كانت تضحكها بجسدها الممتلئ وحركات يديها وطريقة كلامها، فلم تعترض وابتسمت.

الشوارع كانت مغطاة ببعض بقع الثلج وأبقت المحلات أضواءها لتظهر شجرات الكريسماس بداخلها وبعرض شارع ڤوچيرار إلى شارع سيفر عُلقت زينات الكريسماس من نجوم وأضواء بين

العمارات المقابلة. تمشيا متشابكي اليد. أحس علي ببهجة لم يعلم مصدرها، وبسحر في الجو لم يستطع أو يحاول تفسيره. الصقيع أعطى وجهها نضارة لم يرها منذ قابلها أول مرة، فوضع يده على وجهها وكرر هذا محاولا تحسس نضارته، فابتسمت. كان سعيدًا أنها إلى جواره رغم يقينه أنها ليست له، ولكن ثم ماذا إن اختفت من حياته غدًا؟ اللحظة غطت على أي شيء آخر. هذه اللحظة التي يعيشها. قد لا تتكرر ولكنها ستبقى أقوى من أي شيء حدث وسيحدث قبل ذلك. وهما متشابكا الأيدى والدنيا كلها تحتفل من حولهما وقلوبهما صغيرة. تلك لحظة كفيلة بتحدي رتابة أو قسوة أي أحداث عاشها أو سيعيشها. ستُخزَّن في مكان ما في الكون إلى الأبد. قد تكون هناك لحظات أخرى عاشها وسيعيشها ولكن قوة الحاضر أسكرته، فود لو أنه أكمل هذه النزهة دون أن يلتفت أو يرجع أبدًا.

وقفا عند سيفر بابيلون أمام محل بون مارشيه العتيق. الزينات خلف زجاج المحل العملاق بالعرائس الميكانيكية التي ترقص على أغاني الكريسماس في هذا الوقت من العام كانت لا تقل جمالا عن مثيله الجاليري لافاييت في الأوبرا.

"مش عايز تشرب حاجة؟".

"أيوه بس نفسي أكمِّل مشي معاكِ أكتر من أي حاجة تانية دلوقت".

جذبته من يده بدلال بعد أن طبعت قبلة على شفتيه "لأ أنا قررت ما فيش مشي شوية. حنقعد في بار ونشرب حاجة.. باقول لك إيه النهارده ليلة البلاك كالفادوس. فيه حفلة هناك. تيجي ناخد تاكسي للحي التامن؟".

قفزا داخل سيارة أجرة "شارع بيير الأول دو صيربي، لو سمحت".

كانت الساعة شارفت على التاسعة مساء وما زالت الشوارع مليئة بباريسيين يحاولون أن يملأوا خزينهم من الطعام والشراب للأعياد قبل أن تُغلق أغلب المحلات خلال الإجازة الممتدة، ولكن التاكسي عبر البر الغربي إلى البر الشرقي بسرعة فائقة. السائق كان شابًا جزائريًا عرف أن علي له أصول عربية أيضًا وبعدما أبلغه الأخير بحذر أنه مصري، تبادلا حديثًا وديًا عن كرة القادم بعد أن أكد علي أول شيء "إنه ما لوش أوي في الكرة".

"الشعوب بتاعتنا ما لهاش دعوة يا أخي. هيه الحكومات اللي عملت المشكلة بتاعة الكرة دي".

تفادى علي الحديث في هذه المشكلة في أي مكان عام منذ قدم إلى باريس تحسبًا لأي مشاكل مع الجزائريين، ولكنه أجابه بشكل تلقائي "الكورة أفيون شعوبنا".

"الناس ما كانتش فاهمة.. لكن دلوقت يا أخي الغشاوة اتشالت من على عينيهم".

"تفتكر يا أخي؟" وشدد علي على كلمة "أخي".

عندما تذكر علي أنه انفعل وقت أحداث المباراة لوهلة حتى أفاقته مي عندما اتصلت به من باريس لتؤكد له أن موضوع المباراة هذا هراء. عندما تذكر ذلك أحس بالخجل وبشيء من النفاق.

"نعم نعم أفتكر أوي. حكامنا مش حيقدروا يخلونا مغيّبين كده على طول. مصلحتهم الخلافات تزداد علشان الناس تتلهى بحاجات تانية. صدقني يا أخي حتشوف قريب إن شاء الله".

نظر علي إلى عيني السائق في المرآة العمومية للسيارة فرأى فيهما شيئًا من البراءة لم يتخيله من صوته فقط، فتأثر دون أن يدري لماذا. السائق لم يتجاوز بدايات العشرينيات بكل حال من الأحوال. هذا العمر حين تظهر في الأعين براءة تتجاوز الأفعال وتختفي في الثلاثينيات حين تتجاوز الأفعال ما يخرج من نظرات من الأعين.

كانوا قد وصلوا إلى شارع بيير الأول أمام البلاك كالفادوس حيث وقف الحراس الضخام وأمامهم طوابير من الزبائن الذين ينتظرون أن يُقبلوا للدخول بعد أن يتفحصهم إدجار من خلف شُراع ويعطي الإشارة للحراس بالرفض أو القبول.

حيّا علي سائق التاكسي الجزائري الشاب بعد أن دفع له أجرته وأخذ آن من يدها وعبرا البوابة دون أن ينتظرا دقيقة واحدة، بعد أن صافح الحراس.

مكثا قليلا في البلاك كالفادوس، ثم خرجا بعد أن ألح علي أن يكملا طريقهما وسط كور الثلج المتناثرة والاحتفاليات في الشارع، وتوجها إلى الشانزيليزيه. لم يكن علي يغامر بالذهاب إلى الشان في أي وقت ليتفادى مقابلة أي مصريين. معظم المصريين الذين يزورون باريس لا يبرحون الشانزيليزيه، فينتهي بهم المطاف إلى مقابلة بعضهم، ويصبح الشارع في أوقات الأعياد المصرية ملتقى للنخبة المصرية، تتبادل فيه النساء المشورة عن أماكن التسوق القريبة وينتظرهن الرجال على تراسات الكافيهات السياحية ليملأوا أعينهم بالجميلات اللاتي يرتدن الشارع. منهن فتيات هوى كثيرات، يعلمن أن بإمكانهن اصطياد زبائن من الكافيهات في آخر الليل عندما لا يبقى إلا هذا الشارع متيقظًا في باريس بروّاده من البلاد العربية.

اصطفت الدكاكين الخشبية الصغيرة على جانبي الشانزيليزيه إلى الإليزيه وصولا إلى الكونكورد. جاء فرنسيون من مناطق ريفية مختلفة يعرضون بضاعتهم من حلويات وطعام ونبيذ ساخن. وقفا عند أحد الدكاكين وأخرج علي ورقة بعشرة يورو لفتاة شقراء ذات وجنتين حمراوين كلون النبيذ الذي تبيعه، فصبّت لهما في

كوبين من البلاستيك، وأكملا طريقهما بعد أن ارتشفا منه وغمرهما دفء، جعل علي يتصبب عرقًا خفيفًا. ثم جلسا على إحدى الدكك على الرصيف ولف ذراعه حول كتفها، فمالت برأسها وأغمضت عينيها بعض الشيء، فقال لها "باقولِك إيه.. تيجي نسافر أي حتة كام يوم؟".

فَتَحت عينيها وأعطته نظرة شك "نسافر فين يا علي؟. إحنا بالعافية عارفين ندفع الإيجار ونخرج..".

أخذ نفسا عميقًا "أوووف. ما تقلقيش حاتصرف".

"عايز تروح فين؟".

"أمريكا اللاتينية. الأرجنتين. أنا كنت ناوي تبقى دي وجهتي التانية بعد ما آجي باريس شوية. كفاية على باريس كده. ما فيش حاجة بتتحرك أوي هنا".

"طيب ما تيجي معايا نيو أورلينز. كيڤين هناك بيبعت لي وبيلعب في البارات مزيكة" قالتها وبعدها غيَّرت من وضع جلوسها، فوضعت ركبتيها فوق ركبتيه ولفت ذراعها فوق رقبته.

نظر إليها بنصف ابتسامة "وبعدين إحنا حنعمل إيه؟ أنا ما بعرفش ألعب مزيكة".

"مش مشكلة. أنا حاغني وحارقص كمان".

"هايـــل وأنا حابقى مديـــر أعمالك... صح؟" ثـــم أخذ يضحك باســـتخفاف قبل أن يقـــف ويجـــذب يديها مرة أخرى ليســـتكملا مشيهما.

قالت له بنبرة استرحام "كفاية كده مش قادرة أمشي".

"باقولك إيه، عمي حبيبجي باريس قريب".

قالت له بشيء من الريبة "وحيقعد فين؟".

فهم ما ترمي إليه فسارع بالتأكيد أن عمه حجز غرفة في الجراند هوتيل.

من أسباب سعادته في هذه الليلة كان مجيء عمه إبراهيم. اشتاق عليٌّ لأسرته، ولكنه كان في حالة إنكار منذ غادر. لعمه مكانة خاصة، فهو شقيق أبيه الأصغر. كان على عكس أحمد كمال يعيش حياة من دون حسابات. يزرع أرضه ويصدِّر الخضراوات والفاكهة التي يزرعها، وله أصدقاء يزورونه في أرضه، يقضون الليالي في المزاح. كان صخبًا في مزاحه. يحب ابن شقيقه علي بشكل خاص. عندما كانت تضيق الحياة بعلي كان يهرب من المدينة ويذهب مع عمه إلى أرضه، مع الفلاحين هناك الذين كانوا يحبونه كثيرًا لأنه كان يعاملهم كعائلته. تذكر علي وهو جالس، ليالي الشتاء الباردة في مزرعة عمه حين كانوا يوقدون المدفأة ويشوون أبو فروة بعد أن ينثروا أغصانًا جافة من الجزورين المحيط بالأرض إلى جانب

الحطب، ثم يتجاذبوا أطراف الحديث في كل ما يدور حولهم من أحوال العائلة إلى أحوال البلد. إبراهيم كمال كان أكثر غضبًا من ابن شقيقه وينقد كل شيء وينتقد تقرب أخيه من السلطة، ويزدرئ المجتمع والطبقة الجديدة التي تسلقت وكونت درجات خاصة بها. ثم تذكر أيضًا وهو جالس في أحضان آن حين كانت أقصى درجات سعادته في منزل جده، وهو طفل أن يشوي أبو فروة على الفرن في الشتاء، ثم يأكله بعد أن ينزع القشر عنه وجدّه ينظر إليه بكل سعادة.

***

"برافو چان چاك. برافر برفو" انطلقت ماتيلد وهي تحيي ابنها الروحي، ثم موجّهة حديثها لعلي وكأنها تقنع نفسها "شوفت؟ الكنيسة ساعات بتنفع في حاجات.. يعني غير القُداس وكده. أنا فخورة بچان چاك".

نظر إليها الشاب وهو يتحسس نظارته الطبية بشيء من الخجل المعتاد "ميرسي ماتيلد.. على فكرة ده عادي. إحنا بنعمل المارود باستمرار".

انطلق علي بدوره "طيب أنا عايز آجي معاكم. عندي شوية وقت قبل ما أقابل صحابي في مونمارتر.... آن لسه بتجهز".

ابتسمت ماتيلد وهي تستدير تجاه علي مرة أخرى "ياللا روح أنت كمان. أنا فخورة بيك أنت كمان".

"بس فهمني حنعمل إيه بالضبط يا چان چاك؟".

"حنلف على الناس اللي من غير مأوى. نعمل لهم شوربة سخنة ويمكن واحدة صاحبتنا تلعب لهم جيتار وتغني وبعدين كل واحد فينا يروح الحفلة بتاعته".

"ياللا روحوا يا ولاد... بتفكّروني بأيام كولوش ومطاعم القلب". كانت تشير إلى المطاعم التي كان صديقها كولوش يشرف عليها في السبعينيات يقدم فيها وجبات وشوربة ساخنة للفقراء الذين ليس لهم مأوى".

افتقد علي أن يكون في مهمة. أي مهمة. كان يعشق القيام بمهام تكسر رتابة حياته، والآن بدأ يجد نفسه يواجه نفس الرتابة، فأراد أن يقوم بأي شيء فيه تغيير.

انطلق الاثنان بأكياس الخبز والشوربة. يقفزان السلالم الخشبية وكأنهما طفلان على وشك أن يذهبا في مغامرة في غابة مسحورة. قابلتهما على ناصية شارع چيربير فتاة عرّفها چان چاك لعلي بـ"ڤاليري" كانت تحمل جيتارًا في يدها وتركت شعرها الطويل البني على كتفيها، وارتدت ملابس بسيطة. بدت له وكأنها خارجة من الستينيات بمظهرها الهيبي.

"حنروح مركز إميل أنطوان الرياضي جنب برج إيفيل. همه

بييقوا هناك علشان بيتدفوا بين المبنيين بتوع المركز الرياضي". قالها چان چاك بلهجة العارف التي لا تقبل النقاش.

أجابته الفتاة "طيب كويس وحنلاقي في سكتنا أكيد".

مروا من شارع بلوميه إلى شارع الأميرال روسين ولم يجدوا أحدًا جالسًا في الصقيع. أحس علي بالصقيع يخترق معطفه الثقيل والهواء يضرب في وجهه، ولكنه استمتع بكل خطوة وزاد إصراره أن يكمل مع رفيقيه إلى أن عبروا شارع الكروا نيفير الذي يخترق الحي الخامس عشر ومنه جاريبالدي إلى أفنيو سوفرين وأخيرًا بعد أن أحس بأطرافه على وشك أن تتجمَّد، وصلوا إلى المركز الرياضي، ووجدوهم. كان هناك ثلاثة منهم يجلسون القرفصاء بجانب حائط المبنى ويتغطّون ببطاطين من الصوف الخشن. تراوحت أعمارهم بين العشرين والخمسين، ولكنهم بالتأكيد بدوا أكبر من أعمارهم. تغطت وجوههم بذقون ألوانها تغيرت إلى الأغمق من قلة الحموم. اقترب منهم ثلاثتهم، ثم أشارت الفتاة ڤاليري لعلي وچان چاك أن لا يقتربا أكثر قائلة "أنا لي طريقتي معاهم علشان بيتخضُّوا من الناس الغرب". واقتربت هي منهم أكثر واستغرقت في حديث هامس لمدة خمس دقائق إلى أن بدأ أحدهم في هز رأسه إيجابًا، فأشارت لهما أن يقتربا.

حيّاهم چان چاك بأدب جم "بونسوار مسيو".

كان أصغرهم سنًّا يغط في نوم عميق، وأحدهم يتفادى النظر إلى القادمين ويشرب من زجاجة نبيذ بلاستيكية وهو ينظر إلى العدم، أما أكبرهم سنا فكان أكثر مرحًا من زميله الآخر. كل شيء فيه مستدير. وجهه ووجنتيه التي اكتست بالحمار إثر النبيذ رغم جفاف باقي وجهه.

"بونسوار يا أساتذة" قالها وهو ينحني برأسه بابتسامة طفولية وكأنه ينحني لمسئول مهم في مناسبة رسمية.

سارع چان چاك "كل سنة وأنت طيب. إحنا من المنطقة وجايين نعيِّد عليك. عيد ميلاد سعيد".

وضع الرجل يده على وجنته اليسرى وهز رأسه "كل سنة وأنتم طيبين. بارك اللـه في السيد المسيح".

"إحنا معانا ساندويتشات نحب تشاركونا فيها". قالها چان چاك بشيء من الخجل وهو يمد له أحد الأكياس، ولاحظ الرجل خجله، فشكره وسارع بتقبل الكيس وأخرج ساندويتشًا ومده إلى زميله المستيقظ، ولكن الأخير دفع يده بضجر فاكتفى الرجل بوضع الساندويتش في حجره.

أشارت ڤاليري إلى الجيتار ثم قالت له "إحنا كمان عايزين نلعب لك أغنية ونغني. تحب تسمع إيه؟".

"هاهاهاها وكمان حتلعبولي مزيكا". - ثم إلى صديقه المستاء من وجود غرباء - "شفت يا جيرار. حيلعبولنا مزيكا كمان. عايز تسمع إيه؟".

أشاح صديقه بيده مرة أخرى في تململ ثم صاح "سيبونا في حالنا". وبدأ يسب في الوافدين وينعتهم بكل الأسماء هم والكنيسة التي يتبعونها.

"معلهش معلهش. جيرار متضايق شوية علشان الأذى اللي لسه حاصل لينا".

نظر إليه علي بقلق "إيه اللي حصل ليكم؟ تحب تحكي والّا مش وقته".

تفحصه الرجل "حاحكيلك حاحكيلك.. بس أنت منين؟ شكلك مش من الكنيسة".

"أنا مش من الكنيسة لكن من الحي هنا. صديق چان چاك".

"بيطلع علينا ناس يضربونا. آخر مرة كنا في الحديقة العامة هناك وطلعوا علينا ضربونا جامد. جيرار اتعور جامد". قالها الرجل وارتسمت على وجهه تعبيرات ألم وتعاسة لم يرها علي منذ زمن. وإن كان رآها قبل ذلك على وجوه أناس قابلهم في الماضي إلا أنه لم يرها لهذه الدرجة. تبدلت تعبيرات الرجل من الفرحة الطفولية برؤى

ناس يُعيرونه أي اهتمام إلى نظرات توحي بالمهانة والانكسار.

شمر زميله عن البلوفر الرث الذي يرتديه، فظهرت علامات وكأنه تم تشريحه. أدار وجهه وهو يريهم إصاباته، ثم في ركبته وكذلك رفيقه.

ارتسمت على وجوه علي ومرافقيه علامات الدهشة الممزوجة ببعض الفزع، ولم يستطع علي أن يمنع نفسه من سؤالهم "مين؟ مين عمل فيكم كده؟".

نظر إليه چان چاك كمن يستدركه وهمس في أذنه "بعدين بعدين حاشرحلك. بيطلع عليهم شباب من اليمين المتطرف بدعوى إنهم عايزين يطهَّروا المنطقة وبيضربونهم ضربًا شديدًا".

ربتت ڤاليري على كتف محدثهم "أنا باعتذر لك بالنيابة عنهم.. معلهش دول مش بني آدمين". وأخرجت من حقيبتها مطهرًا وأخذت تطهر جروح الاثنين وأخرجت شاشًا وبلاستير ووضعته على الجروح، ثم قالت وكأنها تُنَفِّض الأفكار السيئة عن الجمع "ودلوقت حنغني. وأخذت تمرر أصابعها الصغيرة على أوتار جيتارها وتصدر ألحانًا هادئة وهي وچان چاك يشدوان بأغاني الميلاد بينما أخذ علي يصفق من وقت للآخر، حتى إن جيرار الذي كان عازفًا في البداية عن التحية أخذ هو الآخر مع رفيقه الأكبر يشاركان في الغناء، واستيقظ ثالثهم ونظر إليهم في البداية بشيء

من التعجب ولكن فيرونيك سارعت بالابتسام في وجهه لتطمئنه وتوقفت عن الغناء حتى أعطته ساندويتشًا، فأخذه منها وأحنى رأسه بإباء وتركه إلى جانبه حتى يشارك في الغناء.

تمعن علي النظر إلى ثالثهم. لم يكن تعدى العشرين من عمره بأي حال من الأحوال. بدت ملامحه أقرب إلى الطفولة، ونظرة عينيه البريئة توحي أنه لا يدري سبب وجوده في الشارع، ولماذا تم الاعتداء عليه هو والآخرين؟ ومن هم هؤلاء الناس؟ ولكنه لم يبد أي اعتراض، بل بدت عليه سعادة الأطفال وشارك في الغناء أكثر من زميليه، فبدا في نظر علي أقرب إلى الطفولة أكثر من البداية.

وقف أكبرهم سنًا معلنًا أنه سيغني الآن إكرامًا لـ"ضيوفه"، ثم بدأ في غناء أغنية للمتسولين ترجع إلى ما بين الحربين العالميتين، وكأنه واقف على خشبة مسرح أمام جمهور عريض:

"متسولو باريس

من مونمارتر للباستي

يهيمون في ظلام الليل

في هدوم رثة

على أبواب الكباريهات

مهنتهم ما لهاش أهمية

طالما بتوصل الماعون
لمتسولي باريس
آخرين نايمين على حجر
نوم هادئ غامض
في أحلامهم وحوش
تكشَّف لهم جزء من السما
في الشتا مع الصقيع
والهوا يلسع في أجسامهم
لما البرد يعذبهم.
الألم لا يتركهم
متسولو باريس العواجيز
المستشفى ليهم ضياع
همهم الأول الحرية
ولما تيجي الساعة الأخيرة
في الشارع يحبوا يموتوا
زي الكلاب من غير صلاة
ينتهي ألمهم".

لم يستطع علي نسيان نظرات التيه في وجه الشاب الصغير وهو في طريق عودته أو نظرة الكلب الخائف المضروب المُهان على وجه أكبر المتسولين، أو نظرات التحدي في عيني رفيقهم الثالث التي كانت وكأنها تقول لزائريه "أنتم لستم في مكاننا فلا تحاولوا أن تدّعوا غير ذلك، لأن هذا ليس حقيقيًا. ستعانون من البرد ساعة لكي تحسوا أنكم فعلتم خير عشية العام الجديد، ولكننا كُتب علينا هذا إلى الأبد، ولن يتغير حتى نموت بالضبط مثل كلمات الأغنية التي تسمعونها من رفيقي العجوز".

حان الوقت أن يبدأ عام جديد ويحتفل به مع الجمع الذي ينتظره في مونمارتر مع أنه لا يرى للاحتفال جدوى، ولا يرى في العام الجديد ما يستحق الاحتفال به، فالإنسانية في كل ثانية تكشف له أنها لا تستحق أن يحتفل بها الإنسان، ولكنه من الممكن أن يحتفل على أنقاضها. نعم، هو ذاهب للاحتفال فوق تلك الأنقاض لأن كل ما شَب وهو مؤمن به انكشف كشيء آخر تمامًا. العائلة والوطن والحب... كلها توصيفات لأشياء هي بالفعل مجرد أساس لخيبة الظن والرجاء، ولكنه على الأقل لديه سقف يأويه وبعض النقود ينفقها لبعض الوقت. كان من الممكن أن يكون وضعه أسوأ من هذا بكثير بعد الحياة الوعرة التي عاشها، ومع ذلك فهو في وضع أفضل من هؤلاء الذين تركهم الآن في الصقيع، وهو ليس لديه فضل في ذلك (تألم من هذه الفكرة أكثر من أي شيء آخر). أخذ

يحمد اللـه في سرِّه، وأكمل طريقه ليلحق بأصدقائه وبآن التي سبقته إلى كافيه الكاريون في مونمارتر.

***

وقف بيير صاحب الكاريون بجسمه الضخم يرتدي المريلة المنسدلة من رقبته بعد أن خلع قميصه رغم الصقيع القادم من الأبواب الجرارة المفتوحة، ووقفت إلى جانبه زوجته الهندية خلف البار يُحَضِّران الكوكتيلات، وخيّمت أجواء الاحتفال برأس سنة 2011 في المطعم الصغير بإضاءته الخافتة أعلى الحيّ في قلب مونمارتر. انتشر في أرجاء المكان الصغير وخارجه بعض الرسامين من الذين يعملون حول كنيسة القلب المقدس، وانطلقت الأغاني الفرنسية القديمة ثم أغاني روك التسعينيات من خلال السماعات المتهالكة، وغدت "سهيبة"، الدراج كوين التي تعمل في الكباريه في أول شارع الأبيس، بأكتافها العريضة وردائها الأحمر بشيفونه المتهالك، إيابًا وذهابًا في المكان تلاطف الزبائن وتلقي النكات اللاذعة.

جلس علي وآن ومي وزهرة على إحدى الموائد الملاصقة للحائط. كانت الساعة شارفت على الحادية عشرة وارتطمت كؤوس الشمبانيا في بعضها مرة تلو الأخرى، وتعالت الصيحات في صحة كل شيء وأي شيء... في صحة تونس والمظاهرات هناك التي

لا تخمد وفي صحة يوسف الذي يناضل هناك.

نسي علي المتسولين الذين قضى معهم أولى ساعات ليلة رأس السنة، ولكن بقيت بداخله غضة في حلقه لم يعلم مصدرها.

جلست مي ساهمة حتى أخرجها علي من أفكارها بسؤاله "فيه أي أخبار من يوسف؟".

"آهو... مشغول وبيحشد وكلامه قليل. الموضوع عمال يكبر".

تدخل رامي "سمعت إن بن علي بعد ما زار بوعزيزي في المستشفى، اتوعد مثيري الشغب... جوزِك بقى من مثيري الشغب.. شفتي إزاي؟".

ابتسمت مي لأول مرة ابتسامة خفيفة تحاول بها مغالبة القلق الذي تعيش فيه منذ غادر زوجها إلى تونس".

كانوا يحاولون أن يكون الحديث بالإنجليزية كي تفهم آن، ولكنه بعد قليل من المحاولات أصبح خليطًا من الثلاث لغات مجتمعة، وغلبت اللغة الفرنسية، ولم تمانع آن. كانت تتحدث الفرنسية بشكل مقبول.وحاولت زهرة تغيير الموضوع فسألت بعفوية "تفتكروا سنة 2011 حتبقى عاملة إزاي؟". قالتها بالفرنسية بصوت عالٍ، فالتفت أغلب رواد المكان الصغير ومعهم بيير وزوجته وسهيبة الدراج كوين.

أجابها علي بتلقائية وهو ينظر إلى ركن السقف "مش عارف... ما شكلهاش زي 2010، على العموم" - ثم موجهًا كلامه لآن "قولي لنا أنت بمناسبة إن جدك الكبير كان ساحر من قبيلة التاراهومارا".

ضحكت آن وضربته على كتفه "أنت بتقول أي كلام. بَطَّل بقى" ثم موجهة كلامها لباقي الحضور وهي ترفع ذراعيها الاثنتين وتقلب عينيها وكأنها تستحضر روحًا "2011 ما حدش فينا حيكون في مكانه.. كلنا حنسافر من هنا. ما عدا رامي وزهرة".

"دلوقت أنا اللي باقول أي كلام يا حاجة؟"، قالها علي بالعربية بسخرية، فانفجر الباقون في الضحك ولحقت بهم آن رغم أنها لم تفهم الكلمة، ولكنها أخذت تردد "حاجة حاجة" بلكنتها الكاليفورنية وسط ضحكات رامي وزوجته ومي.

وقف رسامان اثنان متوسطا العمر، أصدقاء لصاحب المكان إلى جانب البار، لم يُفوتا شيئًا من الحديث الدائر إلى جانبهما. أحدهما لم تغادر آن عينيه ولاحظت هي ذلك فبدت أكثر حيوية في حديثها. باغتهم هذا الأخير قائلا بصوت ثقيل "أنتم كلكم عرب صح؟".

نظروا إليه بشيء من الانزعاج وأجابه علي باقتطاب "أيوه.. بس مش فاهم سؤالك..".

"ولا حاجة باسأل علشان أجاوب عن السؤال بتاع صاحبتكم". ووقف الرسام وكأس النبيذ في يده وكأنه سيُعلن عن شيء مهم للغاية "2011 عندكم حتكون زي 1871 عندنا".

أجابه رامي ساخرًا، وهو يحبس ضحكته "اشمعنى 1871؟ اشمعنى ثورة الكومون ومش الثورة الأولى ثورة 1789؟".

أجابه الرجل بكل بساطة وزميله يهز رأسه موافقًا "لأنكم مشكلتكم الأولى في بلادكم مع الجيش زي ثوار 1871 في باريس، بس أنتم عارفين الثورة دي خلصت إزاي..".

قاطعه علي "أيوه خلصت بجمهورية جديدة وانتهاء الإمبراطورية".

نظر إليه الرجل بتحدٍّ "لكن قبلها فيه 40.000 واحد اتقتلوا في كام يوم. الجثث كانت مغطية السين".

قاطعه رامي ليريح نفسه من حديث الرجل "عامة إحنا ما عندناش ثورة ولا حاجة. هي شوية مظاهرات في تونس وحتخلص ومش حايحصل حاجة".

وانشغلوا مرة أخرى في حديثهم خافتين أصواتهم بقدر الإمكان بسبب صخب الموسيقى ليتجنبوا تدخل رواد الحانة مرة أخرى، ولكن جيرانهم في المائدة المجاورة ظلوا يحاولون متابعة حديثهم،

وتابع الرجل الذي تحدث معهم النظر إلى آن، فتبدلت حيويتها الأولى إثر نظراته لشيء من التململ ولاحظ علي ذلك، وتجنب النظر إلى الرجل الذي لم يرق له منذ أول نظرة.

قاربت الساعة على منتصف الليل، وبدا كل من في المكان على درجة عالية من الثمالة، وبدأت مي في التأهب للرحيل. قضت معظم الوقت في صمت ولم تفلح محاولات رامي وعلي في إخراجها من شرود أفكارها، وحضرت إليهم سهيبة الدراج كوين لتحييهم (كانت تعرف رامي وزهرة من الحي) وأخذت تشدو بإحدى أغانيها التي تشدو بها في الكباريه المجاور، فانصرف إليها الجمع، وأخذت تغمز لهم واحدًا وراء الآخر فازداد ضحكهم، وقام بيير صاحب المكان بخلع المريلة ووقف فوق البار يرقص على أغنية "أي أوف ذى تيجر" وزوجته تصفِّق له بكل سرور وسط ضحك الجميع، ودقت ساعات السنة الجديدة، فأطفئ النور، ووقفوا يتبادلون القبلات والتحية، وأشعلت الإضاءة مرة أخرى، وكان علي يحتضن أصدقاءه، فوجد الرسام الذي كان يحادثهم يحاول تقبيل آن وهي تتأفف، فاستدار ورجع إلى الوراء بكتفه ثم إلى الأمام ولكمه بشماله بشدة، فتعالت الصرخات من كل صوب، وجرى بيير ورامي تجاه زملاء الرسام الذين كانوا يحاولون التدخل ليمنعوهم، وجذبت آن رامي إلى خارج المكان، وهو يلهث وهي تردد "ليه؟ ليه عملت كده؟ أنا أقدر أدافع عن نفسي".

جرى خلفه رامي ومي وزهرة. حاول علي الرجوع إلى الداخل ليكمل معركته إلا أن رامي تأكد من عدم تركه يدخل. وتأكد من آن أن تأخذه سريعًا إلى محطة انتظار سيارات الأجرة القريبة في شارع بيجال.

أخذ يردد شيئًا واحدًا في طريق العودة "عرفتو 2011 حتكون إزاي؟ أنا عرفت".

الفصل التاسع

ما حدث منذ أول يناير، يصعب على أي شخص من الذين عاشوا الأحداث من قريب أو من بعيد، تقييمه. بقدر ما كانت 2010 وتيرتها بطيئة بقدر ما تسارعت وتيرة الأحداث في 2011 إلى الدرجة التي جعلت الناس (باختلاف توجهاتهم وفهمهم للأمور) عاجزين عن فهمها. علي كان واحدًا ضمن الملايين الذي تأثرت حياته بما حدث. بالطبع لم يتسن له أن يتعرف على ذلك إلا بعد أن كانت حياته انقلبت رأسًا على عقب مرة أخرى. لم تكن هذه المرة الأولى، ولم تكن الأقوى، ولكنها كانت الفاصلة.

انصبّت حياته كلها وماضيه داخل قالب لم يفهمه كلية، ولكنه بدا له منطقيًا. أخيرًا، أصبح هناك معنى أو شبه معنى وتفسير لغضبه كل هذه السنوات.

***

استيقظ في اليوم التالي بعد الكاريون على موسيقى چاز قادمة من غرفة المعيشة وهو يحس بصداع شديد وقرف مما حدث. استيقظت آن قبله عكس المعتاد. خرج من غرفة النوم، ووجدها مرتدية ملابسها وجالسة على الكنبة الملاصقة للنافذة الكبيرة تنفخ في سيجارة ويظهر عليها القلق. نظر إليها وهو يدعك عينيه نصف المغمضتين ويتثاءب "إيه ده؟ إنت خارجة؟".

استدارت تجاهه وعلامات القلق لا تغادر وجهها "لا.. مستنياك. لما تفطر وتاخد دوشك، ننزل ناخد لفة في الشارع تحت".

"طيب طيب. أوكي. إديني نص ساعة كدة.

شرب قهوته وسيجارته الصباحية واتجه إلى الحمام، ولكنه سرعان ما سمع طرقًا على الباب فسألها ماذا تريد وأجابته "فيه حاجة حصلت في مصر لسه سامعاها في الأخبار. لازم أقولك عليها".

خرج علي بسرعة من الحمام "إيه؟ خير؟ فيه إيه؟".

"انفجار في كنيسة في إسكندرية وناس كتير ماتت".

نظر إليها غير مصدق "كام واحد مات؟ عندك فكرة؟".

أجابته كمن تريد أن تُنفض عن نفسها المسئولية سريعًا "لسه مش عارفين. بس بيقولوا عشرات القتلى".

وضع علي يديه على وجهه غير مصدق وأخذ يتمتم "تاني؟ تاني؟ الكشح ونجح حمادي وبعدين دلوقت. بس المرة دي الموضوع أقوى".

كان علي قد قرر منذ شهور أن يغلق حسابه على فيسبوك لينفصل تمامًا عن كل ما يحدث في مصر، ولكنه سارع إلى جهازه وأعاد تشغيله مرة أخرى ونظر إلى التعليقات ولم يجد ما يُشفي لهفته، فأمسك هاتفه واتصل بأحمد رأفت، وجاء صوت الأخير على الجانب الآخر مرتعدًا "أيوه الموضوع كبير. لسه أنا رايح على هناك. الكلام متضارب. ما حدش عارف مين لسه طبعًا".

"طيب خليني في الصورة يا ريفو، لما تعرف أي حاجة، وخد بالك على نفسك".

اتصل برامي فأجابه بصوت مهزوز "أيوه أيوه عرفت. المدير المالي أستاذ ميشيل اللي شغال مع أبويا بقاله أكتر من تلاتين سنة كان هناك. راح يعيّد على قرايبه وحضر معاهم القُدّاس ومات".

"الله يرحمه".

أخذ يفكر في أبيه وفي أهله. فكر في الاتصال بأبيه ولكنه تراجع كالعادة. صور الأقباط المقتولين في الكنيسة لم تبرح مخيلته باقي النهار، وبدا شاردًا إلى أن ذهبوا إلى القُدّاس على أرواح شهداء

القديسين بعدها بثلاثة أيام في كنيسة نوتردام مع رامي وباقي المجموعة، وعرف من مي أن محمد بوعزيزي مات في هذا اليوم متأثرًا بحروقه.

***

جلس علي أمام عمه إبراهيم يتناولان العشاء في مطعم ليب في سان چيرمان. غلب اللون الأحمر على المطعم الذي احتفظ بروح أربعينيات القرن الماضي. الحوائط والشاندليرات العملاقة في السقف وحتى الأضواء بدت تجمع بين لونها الطبيعي وبعض الحَمار، وغدا الميتر دوتيل ببذلته السوداء والبابيون ذهابًا وإيابًا يأخذ الطلبات بدقة متناهية وبنفس الابتسامة المرسومة بعناية فائقة، وامتزجت أصوات السكاكين والشوك بأحاديث صفوة المجتمع الباريسي في هذه الليلة، 14 يناير.

ارتدى إبراهيم كمال بذلته كاملة ومن تحتها الصديري والكرافتة وبدا أنيقًا أناقة ولّت منذ زمن، وبدا عليه الوقار بشعره الرمادي الذي غطى رأسه وجلسته بظهره مفرودًا أمام ابن شقيقه. تفحص علي عمه بحب وسعادة بوجوده معه. رغم هروبه من مصر بكل ما فيها فإن وجود عمه بالذات كان مطمئنًا له بعد أن غلب عليه تفضيله الانزواء بعيدًا خلال الأعوام السابقة لمجيئه باريس، وازداد هذا الشعور مع الغربة.

"قول لي بآه. ما بتكلمش أبوك ليه؟" قالها العم بأسلوبه المرح المعتاد ليعطي فرصة لابن شقيقه ليجاوبه.

"مين قال كده يا عمي؟ بنتكلم من وقت للتاني صدّقني".

"طيب عيني في عينك كده". ونظر إلى عيني علي، فأدار الأخير وجهه، ثم نظر إلى عمه مرة أخرى وضحكا، واستطرد العم "أنا عارف إنه مش سهل. اسألني أنا. لكن معلهش أنت الصغير برضه".

"باقول إيه يا عمي ما بلاش كلام في الموضوع ده. خلينا في القعدة الحلوة اللي قاعدينها".

قاطعه إبراهيم كمال بحسم لم يره منذ تقابلا "لأ نخلص الموضوع ده وبعدين نتكلم في أي حاجة تانية أنت عايزها. لازم تكلم أبوك".

أجابه علي بضجر وخنقة ظهرت في صوته "أنا ماعملتلوش حاجة. وبعدين أنا باكلمه. هوّه ما بيحاولش يتكلم خالص. قُربه من... والا مش عايز أتكلم".

رجع عمه إلى نبرة غلب عليها الحنان مرة أخرى تجاه ابن شقيقه "لأ قول.. من ساعة ما قرب من الناس اللي في الحكم؟ صح؟ على فكرة أنا معاك.. أنا نفسي اتصالي بيه قل.. لكن ده أبوك والسكينة سارقاه... إوعدني إنك تعمل شوية مجهود".

أومأ علي موافقًا وأصر على تغيير الموضوع "لكن قل لي أنت أخبارك إيه يا عمي والولاد؟ خلصت الشغل اللي كنت جاي له؟".

نظر إليه العم لأول مرة بارتباك على وجهه فاجأ ابن شقيقه "أيوه الشغل خلص، لكن حاقعد كام يوم زيادة في باريس".

لم يصدق علي عمه وسأله في تحدٍ "لأ فيه حاجة. قل لي فيه إيه؟".

قاطع الجرسون علي وهو يحضر الأطباق ليضعها على المائدة "اتنين فيليه شاتوبرياند...".

رفع العم رأسه مبتسمًا للرجل بمودة "أيوه الميديوم رار عندي والميديوم ويل عند مسيو".

"ياللا ناكل دلوقت وبعدين نكمل موضوعنا".

في المائدة المجاورة جلست سيدتان في أواخر الخمسينيات من عمرهما. إحداهما ذات طابع فرنسي أما الأخرى فبدت ملامحها أكثر شرق أوسطية. كانتا تتحدثان بلكنة الحي السادس عشر ونويي. ظهر ذلك من طريقة إخراجهما للحروف وتمييز كل كلمة عن الأخرى. أما يداهما المرصعتان بفصوص من الألماظ الصغيرة فكانتا تتحركان مع الكلام بحساب شديد. جلست السيدة الشرق أوسطية ناحية إبراهيم كمال ونظرت إلى علي بمودة ثم استكملت حديثها مع صديقتها الفرنسية

"خلاص أكيد هوّه ساب تونس ووصل السعودية. القذافي إداله طيارته".

سألتها صديقتها الفرنسية "وجوزِك عامل إيه دلوقت؟".

أجابتها السيدة التونسية "أكن هم وانزاح. ما رضيش يسيب تونس من أول يناير. بس دلوقت بينظموا لجان شعبية في العاصمة. بلطجية بن علي انطلقوا في الشوارع وبيضربوا نار على أي حد".

نظرت إليها السيدة الفرنسية باستهجان "وإنت جوزِك سنُّه تسمح بكده يا نادية؟".

أشاحت نادية بيديها يمينًا ويسارًا "ما تفكرينيش يا جيزو.. ما تفكرينيش. قلت له واللـه من أسبوع فات ييجي يحصلني هنا لكنه مصمم يقعد هناك ومعاه حسن ابني... حسن واقف في واحدة من اللجان الشعبية اللي اتكونت دلوقت مع أبيه".

سرحت جيزو بعينيها قليلا وهزت رأسها وهي تقول "ومين كان ممكن يتخيل إن ده يحصل من شهر فات؟ حكومتنا هنا في موقف مؤسف. ولا كلمة مساندة للثورة ولا بيان ولا حاجة وفضايح زيارات سرية لوزرا فرنساويين لبن علي".

نظر إبراهيم كمال إلى السيدة التونسية وهو يبتسم بتلك الطريقة الطبيعية التي يعرفها فقط من تعامل مع سيدات مجتمع منذ صغره. ابتسامة لا تحمل في طياتها أي غرض آخر غير ذاك الذي يظهره، وفهمت نادية ذلك فابتسمت وهنّأها العم بلكنته الفرنسية الكلاسيكية، تلك اللكنة التي كانت تُستخدم فقط في صالونات القاهرة حتى ستينيات القرن الماضي، "مبروك عليكم يا توانسة. أنتم تستحقوا فعلا الحرية".

أجابته المرأة بنفس الابتسامة المتفهّمة "أيوه مشي أخيرًا، لكن مراته راحت البنك المركزي قبل ما يمشوا واستولت على سبايك دهب. بيقولوا حتبيعها في دبي".

تدخّل علي في الحديث "معلهش طالما سافر. ممكن تبتدوا من جديد".

هزت نادية رأسها غير مصدّقة..

أضاف علي "صحابنا التوانسة لسه هناك ما رجعوش. الله معكم".

نظرت إليه المرأة بشيء من الإعجاب وسألته ماذا يفعل في باريس، فأجابها بتردد أنه كاتب، وأضاف أنه كان يعمل في البيزنس قبل ذلك.

"ومتجوز يا ترى؟".

ابتسم علي وهو يهز رأسه بالنفي.

فأضافت دون مواراة "ومش ناوي تتجوز؟".

فضحك علي وأجابها أنه ليس لديه مانع وسألها مازحًا إن كان لديها عروس.

"تعالى أورّيك صورة بنتي. مِخَلصة جامعة هنا في السوربون، لكن مغلِّباني. بتشتغل في تونس ورافضة تتجوز خالص دلوقت.

أخرجت السيدة هاتفها المحمول ثم اقتربت من علي وبدأت تعرض عليه صور ابنتها. كانت شديدة الشبه بها. الأم كانت لا شك شبيهة كلوديا كاردينالي في شبابها، وكانت الفتاة في الصورة كذلك فائقة الجمال.

انتبه العم للخجل الذي اعتلى وجه ابن شقيقه فابتسم مرة أخرى، وسأله بصوت خافت "فيه صاحبة والّا خيابة؟

نظر إليه علي ومط شفتيه "تفتكر إيه يا عمي يعني؟".

"أكيد طبعا مِقَضِّيها... إيه جنسيتها إيه؟".

"أمريكانية".

"تعالى أعزمكم على الغدا بُكره أو بعده. زي ما تحب".

"هوّه إنت مسافر إمتى؟ كان بيتهيأ لي إنك راجع اليومين الجايين".

تأهبت السيدتان للرحيل بعد أن حاسبتا على الطعام، فوقف إبراهيم كمال وابن شقيقه وانحنى العم انحناءة خفيفة، فابتسمت السيدتان ابتسامة الممتن لمقابلة أحد من دوائر مشابهة لدوائره، وأحضر لهما الميتر دوتيل معاطفهما، وقال العم للسيدة التونسية "بالتوفيق بالتوفيق". وأضاف علي "فرصة سعيدة". وتوجهتا ناحية المدخل.

"ياللا يا ولد. حاحاسب ونتمشّى نشرب سيجارة في الهوا".

أجابه علي مازحًا "ما تخلّيني أنا المرة دي يا عمي. إنت ضيف عندنا برضه".

قهقه إبراهيم كمال وأجابه مازحًا "تاني؟ ما إحنا متفقين إنك مش لاقي تاكل". فضحك ابن شقيقه ملء شدقيه.

تمشّى الرجلان في بولفار سان چيرمان يرتديان معطفيهما الأسودين، وارتدى العم قبعة سوداء، وأخذا يدخنان سيجارة وراء الأخرى.

"تحب نقعد في كافيه يا عمي نشرب حاجة".

"لا، معلهش يا علي أنا يا دوبك أرجع الأوتيل أريّح.... قل لي..

إنت مش ناوي ترجع مصر خالص دلوقت. صح؟".

"لا خالص. أرجع أعمل إيه؟".

"على فكرة أنا موافقك تمام. بس لازم تلاقي شغل".

نظر إليه علي "ما أنا قاعد باكتب رواية".

التفت إبراهيم كمال إليه وحدجه وقال "حلو أوي. بس أنا باتكلم بجد. لازم تلاقي شغلانة بحق وحقيقي تاكل منها عيش".

"عندك حق. بس الشغل هنا مش سهل. أنا ابتديت أبص على العقارات. يمكن أبتدي شغل سمسرة عقارات لوحدي. لكن مش حاتوظف يا عمي لو ده قصدك، ومش حارجع أشتغل في مكتب تاني".

وقف العم مرة أخرى وربت على كتف ابن شقيقه "تجربة الشغل مع أبوك عقّدتك. عندك حق ما أقدرش ألومك".

تشجع علي بعد أن وقفا عند كنيسة سان چيرمان فنظر إلى عمه وسأله "بس عايزك تقول لي إيه الموضوع. فيه حاجة مش مظبوطة".

سكت إبراهيم كمال لمدة ثوانٍ ثم أجاب ابن شقيقه بكل هدوء "الدكتور في مصر قال احتمال تكون عندي حاجة في الرئة... جيت هنا. قلت أخلص شغل وأعمل شوية فحوصات تاني علشان أتطمن...

ممكن ما يطلعش فيه حاجة، ما فيش داعي للقلق دلوقت".

نزل الخبر كالصاعقة على علي. تفحص عمه غير مصدق وتغرغرت عيناه ولكن الظلام لم يظهرهما، وقرر التماسك، فسأله "وأخدت المواعيد مع الدكاترة وكل حاجة؟".

"أيوه قابلت دكتور وطلب مني أقعد أسبوع كمان علشان أعمل تحاليل شاملة". وبابتسامة باهتة استطاع علي أن يميزها على ضوء مصباح الشارع رغم حلكة الليل حولهما "دلوقت يا علوة. عايز منك خدمة واحدة. تلاقيلي شقة أأجرها لمدة شهر أو أكتر. آهو ما حدش عارف الظروف".

هز علي رأسه وكأنه فقد القدرة على الكلام وتمتم "حاضر حاضر".

***

في الأيام اللاحقة، تأكد إبراهيم كمال من إصابته بسرطان الرئة وأنه في مرحلة متقدمة، وأن الأطباء في مصر لم يُشَخِّصوا حالته في الوقت المناسب. في البداية، أُصيب العم بحالة من الخوف على نفسه دعته إلى الاتصال بزوجته وأولاده، ثم اتصل بأصدقائه الأقارب، وانتهى به الأمر أن اتصل بالفلاحين في أرضه ليُبلغهم أنه مصاب بالمرض القاتل. كان في حالة من عدم التصديق. لم

يغادره ابن شقيقه وأخذ يُطمئنه بأن هناك حالات تُشفى بفضل العلاج الكيماوي، وأنه ليس هناك شيء بعيد على اللـه.

وجد علي لعمه ستديو صغيرًا في الحي السادس العاشر للإيجار، ونقل حاجاته من الجراند هوتيل. كانا يمضيان ساعات في التنزه في شارع پاسي والتسكع من كافيه للآخر ويتبادلان تذمرهما من الأحوال في مصر. بالطبع أقلع العم عن التدخين فور علمه بمرضه، ومع الأيام بدأ يتأقلم على فكرة مرضه واسترد بعض الأمل بعد أن أخذ أول موعد لجلسات العلاج الكيميائي خلال آخر شهر يناير، وأخذ علي يردد عليه "آدينا مع بعض. مونِّسني واللـه في باريس".

قابل إبراهيم كمال آن بضع مرات، ولكن شيئًا فيها لم يطمئنه، وأحست الفتاة بذلك فتجنَّبت الذهاب مع علي إلى مواعيده مع عمه.

انتشرت دعوات للنزول يوم 25 يناير يوم عيد الشرطة، وأخبار عن مصريين قاموا بإضرام النيران في أنفسهم في الإسكندرية وأمام مجلس الشعب مثل بوعزيزي، ونظر علي إلى كل ذلك بحيْطة، وفضّل البقاء في عزلته مع آن أو في مناقشاته مع عمه في كافيهات باسي. وحتى لو حدثت مظاهرات في مصر واسعة، الأجهزة الأمنية هناك أقوى من تونس... لا داعي لآمال كاذبة.

الفصل العاشر

استيقظ سليم يوم 25 يناير مبكرًا كعادته رغم أنه ليس لديه مكتب يذهب إليه. بدأ اليوم ثقيلا وخرج إلى الحديقة ليتنفس نسيم صباح الشتاء، ويملأ عينيه بالندى المتساقط من أوراق الشجر، وأذنيه بتغريد العصافير. أخذ يجوب الحديقة ويقف عند كل شجرة بعض الوقت يتأمل في أغصانها وأوراقها. تذكر والده بقوة. هنا كان يجلس ويشرب قهوته ويتصفح الجرائد صباحًا قبل أن يذهب إلى عمله. كان يمر عليه مرتديًا يونيفورم المدرسة قبل أن يتجه إلى أتوبيس المدرسة. يقف معه بضع دقائق مع أخيه. يتفحصهما الأب ويعطيهما ملاحظاته على مظهرهما، ثم يقبلانه ويغادران المنزل. وتحت هذه الشجرة ليلا في الخفاء قبّل أول فتاة أحبها. كم كان كل شيء بسيطًا ودون قيود. لماذا لا تعود هذه الأيام؟

سمع صوت أمه من ناحية باب الشارع تحيّي الجنايني وتدعوه للدخول. هناك أشياء لا تتغير رغم كل ما حدث وكل ما سيحدث. صوت أمه يبعث فيه طمأنينة لا يستطيع تفسيرها. نعم الحياة تمر ببطء معظم الوقت في هذا البلد. أحيانًا يود لو أن لديه الإمكانية أن يترك كل شيء خلفه ويذهب إلى مكان بعيد لا يعرفه أحد ويختفي تمامًا ويخفي ماضيه إلى الأبد.

اليوم دعوة التظاهر في عيد الشرطة. أمينة لم تفعل شيئًا إلا التحدث عنها خلال الأسبوع الماضي كله، إلى أن مل وأصبح يُفضل قضاء معظم وقته في البيت بعيدًا عن نقاشاتها هي وأحمد رأفت التي لا تنتهي وتوقعاتهما.

رن جرس هاتفه. انطلقت أمينة "إحنا حنتقابل عند جامع مصطفى محمود، والمسيرة حتتحرك من هناك. ريفو حيتحرك مع مسيرة شبرا. أنا قلت أقول لك لو عايز تغير رأيك وتيجي معانا".

إنها تعلم جيدًا أنه ليس بجبان. هو فقد اهتمامه بأي شيء. هذا ما في الموضوع. ومع ذلك فهي تتحداه. ماذا لو تجاهل صديقيه وجلس في حديقته واستمتع بتغريد العصافير وقرأ كتابًا وتجاذب أطراف الحديث مع عم حسين الجنايني؟ ثم ماذا لو ذهب بالفعل وشارك في هذه المظاهرة؟ هل سيعيد ذلك خالد سعيد ويقضي على الظلم المتفشي؟ هل سيمكنه ذلك من استرداد ابنه وحياته التي فقدها

في إنجلترا؟ هراء كل هذا وأضغاث أحلام لا تعنيه.

لم يستطع سليم أن يجاري أفكاره طويلا. لم يدر كم من الوقت مكث في هذه الدوامة قبل أن يقفز داخل الدوش ويخرج ليرتدي ملابسه في عجالة. جلست أمه في غرفة المعيشة تجري مكالمة كعادتها مع شقيقتها كل صباح. سمعها تتحدث عن المظاهرات المرتقبة اليوم وعن التجهيزات الأمنية. كانت تردد "ربنا يجيب العواقب سليمة". نظرت إليه وهو في طريقه إلى المدخل ورفعت رأسها بشيء من القلق متسائلة "إيه رايح فين يا سليم؟".

"عندي معاد في المهندسين".

"معاد إيه؟ النهارده اجازة، وبعدين بيقولوا إن فيه حاجة بتحصل. مش عارفة... الظاهر فيه قلق".

"ما تقلقيش يا ماما رايح أقابل أمينة".

نظرت إليه أمه غير مصدقة وهزت رأسها ثم قالت له مستسلمة "طيب أرجوك خد بالك على نفسك".

ملأ عينيه من أمه مرة أخيرة وهو يطمئنها. ربما لا يستطيع الرجوع اليوم أو غدًا وربما لا يستطيع الرجوع أبدًا. ليس هناك ما يجنيه من الخروج، ولكن ليس هناك شيء يخسره أيضًا.

***

كانت القاهرة كمدينة أموات هذا الصباح. قاد سليم سيارته من المعادي إلى وسط المدينة في أقل من 15 دقيقة. ترك السيارة في جاردن سيتي خلف السفارة الكندية، وتمشَّى في شارع قصر العيني. شارفت الساعة على الحادية عشرة. عند مدخل شارع الشيخ ريحان رأى بعض الضباط وأفراد الداخلية بملابسهم الميري يترقبون شيئًا. أكمل طريقه وهو ليس متأكدًا من جهته. اعترضه داخل الميدان رجلان بملابس مدنية، نظرا إليه شذرًا وتهامسا ولكنه لم يعرهما أي انتباه. قدماه كانتا تقودانه دون أي تدخل إرادي منه. وصل إلى مدخل كوبري قصر النيل بعد الأسدين، ووقف يتأمل مياه النيل ومركبًا بشراع تمر من أسفل الكوبري. جلست فتاة صغيرة بضفيرتين بنيَّتين تُسَلِّك شِباك الصيد ومعها رجل - ربما والدها - يجهز الشاي على سبرتاية وُضعت على طرف المركب الأبيض الصغيرة.

قد تحدث مظاهرات ضخمة اليوم وربما لا تحدث وتهتز الدنيا أو تبقى على حالها. أما النيل بمياهه الثقيلة العكرة التي تتدفق من الجنوب بسرعتها المعتادة، وكل ما يرقد في قاعِ النهر ويختلط بطميه، هذا لن يتغير. والفتاة مع أبيها وهي تُسَلِّك شبكة الصيد وكلهما أمل في أن يعودا آخر النهار ومعهما ما يقتاتان به أو يبيعانه في السوق. هذا أيضًا لم يتغير ولن يتغير. منذ مائة عام أو أقل كانت هناك أيضًا فتاة تمر مع أبيها داخل مركب مشابهة بملابس

رثة مشابهة تحت كوبري قصر النيل ناحية ميدان الإسماعيلية، كما كان يُطلق على التحرير وقتها، ولا يكترثان لما يحدث. ربما وقف شاب في نفس موضعه هو سليم يتساءل عما عساه يفعل. هل ينضم إلى مسيرات أم يوئد الشر في مهده ويرجع إلى منزله بجوار أمه؟ ربما كان هذا الشاب أيضًا قد عاش في إنجلترا واكتوى بنار ذكائه المفرط في وجه الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس.

رفعت الفتاة رأسها وابتسمت له، فابتسم لأول مرة في هذا اليوم وشاور لها بيده فبادلته المشاورة، وأكمل مشيه في اتجاه الزمالك.

لم يدر سليم كم مر من الوقت قبل أن يجد نفسه وسط كتلة من المتظاهرين آتية من كل صوب تجاه كوبري قصر النيل. مد بصره إلى وسط البلد والكورنيش وإلى الكوبري - حيث كان يقف عندما رأى مركب الصيادين منذ قليل - فلم يلحظ تغيّر شيء على الإطلاق. واصل التقدم دون أن يعير أي اهتمام لتحذيرات أطلقها بعض المتظاهرين من حوله من أن يجدوا أنفسهم محاصرين من مدخلي الكوبري. "حيعملوا علينا كماشة" صرخ أحدهم وأضاف آخر "بيستدرجونا، خلينا مكاننا لحد ما نشوف". ولكنه أكمل تقدمه. كل شيء في حياته تلخص في هذه اللحظة في ضرورة الوصول إلى الميدان. لم يكن يتخيل منذ بضع ساعات أنه سيجد نفسه وسط هذا الحشد يقفز بالتاريخ قفزة لا يعرف هو أو من حوله إلى أين تذهب بهم. كل شيء الآن بسيط وغير معقد. ليس هناك مجال

للتفكير في أي تعقيدات. يكفي أن تستسلم لحركة الجموع، تحركك الطاقة إلى المحطة التالية.

وصل سليم إلى مدخل الميدان هو ومن معه دون عناء. بحث عن أمينة وأحمد رأفت دون أن يبذل مجهودًا حقيقيًا فلم يحاول الاتصال بهما واستلقى على النجيل في الصينية وسط الميدان ينظر إلى السماء في سعادة لم يعلم مصدرها. لم يدر كم من الوقت مر وهو يحدق في السماء سارحًا بأفكاره بعيدًا أو ماذا جال في خاطره بالتحديد. لم يستطع أن يتحرك من موضعه وأحس أنه جزء من هذه الأرض، وتحسس بعض أعشاب النجيلة المتناثرة من حوله، فغمرته راحة لم يحسها منذ طفولته في كنف أبيه، ومر الناس من حوله، فنظر إليهم كأنه ينظر إلى حلم بعيد، ولم يخرجه من هذه الحالة إلا رائحة الغاز المسيل للدموع المنبعث في الهواء التي أجبرته على الجري مع الجموع في اتجاه تمثال عمر مكرم ثم المجمّع عند مدخل شارع قصر العيني.

عند شارع الشيخ ريحان - حيث مر في الصباح - وجد مكان الضباط الذين رآهم قبل ذلك تشكيلات، وبعض أشخاص بملابس مدنية، يرشقون المتظاهرين بالحجارة. تقدم سليم والطوب يطير من حوله في كل اتجاه. ووقف في لا مبالاة.

اشتدت المعارك عند مجمع التحرير وعند مدخل شارع قصر

العيني، وتراشق الجانبان بالطوب. لم يقو سليم على الانضمام مرة أخرى إلى المعركة، فانزوى داخل الصينية مرة أخرى في وسط الميدان ليلتقط أنفاسه. أخرج هاتفه من جيب بنطلونه واتصل بأمينة ثم بأحمد رأفت ولكنهما لم يجيباه. كرر المحاولة ولكن شيئًا ما حدث لشبكة الاتصالات. لم يعد في استطاعته الاتصال بأي أحد ولا أمه لطمأنتها. التقط أنفاسه وأحس بعطش شديد. مرت إلى جانبه مجموعة صغيرة من الشباب يهتفون "ارحل... ارحل". أحدهم أمسك بزجاجة من المياه. شاور له سليم، فرمى له بالزجاجة، فارتشف رشفتين وقذف بها للشاب ثم أشعل سيجارة في هدوء.

أوشك الليل أن يخيم وسليم جالس في مكانه لم يبرحه. مر من أمامه العشرات والمئات من المتظاهرين. حاول أن يتبين أصدقاءه ولكنه لم ير أي وجه مألوف. مجرد أناس يمرون. استجمع قواه مرة أخرى ومشى بخطًى متثاقلة في اتجاه شارع قصر العيني. عند وصوله إلى مدخل شارع الشيخ ريحان كاد يسقط من تدفق كتلة من الناس كانوا يجرون وخلفهم رجال بزيٍّ مدني بعصيان. انتبه وجرى للخلف ولكن قبل أن يصل إلى قلب الميدان مرة أخرى أحس بنغزة عنيفة على رأسه فتحسسه بيده ووضعها أمام عينه ووجدها ملطَّخة بالدماء. أدرك أنه أُصيب بطوبة وغرق وجهه بالدماء حتى كاد لا يرى أمامه. تضاربت الأفكار بداخله. ماذا عساه فاعل؟ هل سيُغمَى عليه قبل أن يستطيع الفرار والوصول

إلى أي مستشفى لعمل الإسعافات الأولية؟ أحس بغدر من يرمونهم بالحجارة، فغلى الدم في رأسه وبدلًا من التراجع، تقدمَ سليم إلى أول شارع قصر العيني وأمسك بحجارة التقطها من الأرض وأخذ يرميها في الهواء في اتجاه قوات الشرطة بعزم قوته. وعندما فرغ من الحجارة وأحس أنه سيقع من الإنهاك، مشى متثاقلا بهدوء في الاتجاه المقابل.

عند الصينية تراءى له وجه مألوف وسط مجموعة تفترش الأرض. إنها أمينة أخيرًا. سيحاول أن يبذل آخر مجهود حتى يصل لها. خطوتين أخريين. ولكنها لا تراه في الظلام. تبدو منشغلة بالحديث مع آخرين. خطوة أخرى. ثم بآخر ما يمتلك من طاقة، اقترب من حافة الصينية وسط الميدان. وأخيرًا استطاع أن يقترب منها ويمد لها ذراعه وابتسامة تكسو وجهه رغم شحوبه. استدارت أمينة وأخذت في الصراخ بكلام غير مفهوم غير مصدقة "إيه ده... إيه اللي جابك؟ اللــه... إنت كنت فين؟ إيه الدم ده كله؟" ثم صارخة بصوت أعلى "يا جماعة إسعاف... إسعاف.... عايزين مستشفى".

***

في اليوم التالي، استيقظ سليم على رنين هاتفه وعلى ألم في

رأسه في ازدياد بعد انسحاب مفعول المسكنات. ظهر رقم بكود فرنسي ولم يتبين باقي الرقم. نظره كان لا يزال مشوشًا بعض الشيء. جاءه صوت علي هادئًا ومكسورًا أكثر من المرة السابقة "سليم، إزيكم، طمّنني. حاولت أكلم أحمد رأفت لكن تليفونه مقفول من إمبارح".

أجابه بصعوبة - سليم كان ما زال في مرحلة تجميع أحداث الأمس ولم يفهم كيف وصل إلى سريره بعد - "علي، إزيك.. كويسين. إنت أكيد متابع من عندك. صح؟".

"متابع الجزيرة والنت، لكن عايز أطمّن منكم. أنا عارف إن ريفو كان ناوي ينزل. إنت نزلت برضه؟".

ارتفع صوت سليم بالضحك فأحس بالألم مرة أخرى في رأسه "آه آه نِزلت".

"طيب إيه؟ إحكى لي. مهما كان الموضوع من هنا مش زي ما تكون موجود". ظهر من صوت علي كم كان يتحرّق شوقًا لأن يكون موجودًا.

استرجع سليم أحداث الأمس كلها وهو يحكي لعلي. كيف انضم للاشتباكات وكيف أُصيب في رأسه، ثم تذكر كيف قابل أمينة والصعوبات التي قابلوها كي يدخل مستشفى "كلِّمت طارق السيد. فاكره؟ كان دفعتنا. هو سهّل لي الدخول لمستشفى قصر العيني

الفرنساوي. بيقولوا فيه مصابين راحوا يتعالجوا في قصر العيني واتقبض عليهم من هناك.. تصور! إدولي تلت غرز في راسي على الواقف ولا أشعة ولا حاجة".

"طيب وقل لي.. الواد ريفو فين في كل ده؟".

"اتقبض عليه في باب اللوق امبارح بالليل.. صحابه اللي معاه في فرقته بلغونا". تذكر سليم هذا أيضًا، فانزعج.

"يا نهار إسود.. طيب وبعدين حتعملوا إيه؟ حد عارف هوّه فين؟".

"الدنيا كلها مش واضحة لسه. أمينة صاحبتي صحفية زيه. هي كلمت كل المحامين والمراكز الحقوقية اللي تعرفهم اللي شغالين في الموضوع ده. المفروض يكونوا جابولها عقاد نافع النهارده. فيه ناس كتير اتمسكوا من وسط البلد إمبارح الظاهر".

ساد بينهما صمت قصير كالذي ساد في المرة الأولى عندما تحدثا في التليفون منذ بضعة شهور. قاطع علي الصمت بصوت مهزوز "تفتكر أرجع دلوقت؟".

أجابه سليم بتردد "تعالى لو عايز... لكن..".

"عارف أبويا.. صح.. الموضوع صعب.. أوووف.. طيب يا سليم طمنوني على ريفو أول بأول، وأنا حاتصل بيكم كل شوية أعرف

أخباركم... فيه دعوات لبعد بكره. مسميينها جمعة الغضب".

"أيوه عارف...".

"نازل؟".

"مش عارف لسه. حاشوف الجرح بتاعي أخباره إيه".

***

قضى علي يومه يضرب أخماسًا في أسداس. لم يخرج من شقته. تارة يجلس أمام الكمبيوتر ليراقب الأخبار ثم يذهب إلى النافذة ليدخن، وهكذا. لأول مرة منذ جاء فقد كل شيء حوله معناه. لم تعد الشجرة المقابلة للنافذة تستهويه. نظر إليها فأحس بالغربة. بدا على آن التذمر. منذ انفجار كنيسة القديسين، ظهرت بينهما هوة ولم يبذل علي أي مجهود لمعرفة أسبابها. سادت بينهما لحظات صمت تكررت كثيرًا خلال اليوم. أصبح علي كالحاضر الغائب وانصرفت هي بقدر الإمكان، تتعلل بأي شيء لتغادر المنزل. مرة بحجة مشتريات يحتاجانها لملء الثلاجة، ومرة أخرى بأنها ستقابل صاحبة كيڤين لتناول فنجان قهوة في كافيه مجاور. مضى على 25 يناير يومان، وأخذت العلاقة منعطفًا جديدًا. لم يعد علي حاضرًا بالمرة وهو معها.

شارفت الساعة على الثالثة. جلست آن تتصفح مجلة فوج.

ارتـــدي علي معطفه وودّعها وخرج. الجـــو كان أكثر رمادية من المعتاد أو هو رآه هكذا. تمشّى إلى ساحة أدولف شيريو الملاصقة لشارع منزله. فتح بابًا صغيرًا للحديقة التي تتوسط الساحة وجلس على دكة وفرد رجليه وأشـــعل سيجارة. كانت الساحة خالية إلا من بعـــض الأطفال في طريق عودتهم من المدرســـة حاملين حقائبهم الصغيرة. مرت عليه حياته كشريط سينمائي. كم يود لو كان هناك الآن. ومـــاذا عن أبيه؟ ولكن أبـــاه اختار طريقه وحياته، وهو ليس فيهـــا. من حقه أيضًا الاختيار. ما يحـــدث في مصر الآن هو بداية للتخلص من سنوات من السلطوية الأبوية بكل ما تحمله في طياتها. مبارك تعامل كأب مع الشـــعب فاســـتباح لنفسه أن يتجاوز الشعب وكأن الجميع أطفـــال يحق له عقابهم عندما يرى أنهم تجاوزوا في حقه. صور له من حولـــه أن ذلك من حقه، ووقفوا يتفرجون على الشعب كأطفال ليس من حقهم شـــيء. ولكن الأطفال كانت تموت فـــي القطارات والعبّارات والطرق دون أن تعرف لماذا ماتت. هل يحق للأب أن يتســـبب في مقتـــل أولاده لأنه يعتقد أنهم لا يعرفون ما يعرفه؟ هكذا النظرة الســـلطوية للأشـــياء.. نحن نعلم أكثر منك إذن فـــلا يحق لك التدخل في مجريات الأمور. مُت في صمت ولا تزعجنا ونحن مشغولون بالبحث عن الصالح العام، وكأن الصالح العام لا يشـــمل النـــاس. الصالح العام لهم هـــو مفهوم مطلق قاموا بتفريغه من محتواه ببراعة فائقة.

أخرج هاتفه بصعوبة من جيبه بعد أن خلع قفازه من يده اليسرى واتصل بأحمد كمال بشكل تلقائي. جاءه صوته مختلفًا عن المرة السابقة. بدا له مرتبكًا بعض الشيء وهو يؤكد له أن كل شيء على ما يرام، فأجابه علي دون تفكير "لأ ما فيش حاجة تمام".

بدا الانزعاج في نبرة الأب، وهو يؤكد مرة أخرى "الموضوع حيهدى على طول".

أصر علي "لأ مش حيخلص على طول". وكأنه يقول له "إنك لا تقرأ حقيقة ما يحدث كما لم تقرأه من قبل".

غيَّر الأب الموضوع "أخبار عمك إيه؟ واخد بالك منه كويس؟ عامل معاه اللازم؟".

"ما تقلقش يا بابا. إن شاء الله خير". كان يعني عمه بـ"خير" ولكنها جاءت وكأنه يعنيها لما يحدث في مصر.

سأله الأب بغتة "وإنت ناوي تعمل إيه؟ مش حتيجي؟".

هل يتوقع منه أن يحضر ويقف إلى جانبه دون أن يأخذ موقفًا من الأحداث؟ هل يعقل أنه بعد كل هذه السنوات لم يتكبد عناء فهم موقف ابنه من شيء حيوي كهذا؟ هل نسيَ الأحداث التي شارك فيها علي منذ عشر سنوات. لقد تناسى بكل بساطة كما تناسى موقفه المعارض، هو أحمد كمال قبل ذلك بسنوات.

"مش عارف. حاشوف لسه".

أنهى المكالمة وقام واتجه نحو باب الحديقة الصغير. عند ناصية شارع بوسيه المؤدي لشارع چيربير. كاد يرتطم برووبير الذي كان عائدًا من عمله مبكرًا. نظر إليه رووبير بنظرته المتفحصة ودون مقدمات باغته "الدنيا في مصر مولعة؟".

"أيوه المظاهرات ما بطلتش".

"أهلك كويسين؟".

هز علي رأسه ودعاه رووبير لفنجان قهوة في كافيه لوفيرني أمام مبنى العمودية، فتردد قليلا ثم وافق. في الطريق رن هاتفه. جاءه صوت رامي واصف متحمسًا. كان بصحبة زوجته ومي ويوسف زوجها بعد أن عاد من تونس "ياللا تعالى. إحنا متجهين كلنا على السفارة. مستنيينك هناك".

***

أخفى علي وجهه من الكاميرات التي تصور من كل جهة وهو واقف أمام السفارة يهتف مع من يهتفون "الشعب يريد إسقاط النظام". البرد اخترق أجسامهم وهم واقفون بين صفين من قوات مكافحة الشغب الفرنسية في أفنيو ديينا. تعالت صيحات "ثورة ثورة عربية" غلبت لكنة شمال أفريقية على الهتافات و"ديجاج

موباراك". لم تعجب علي الهتافات وأحس أنها بعيدة عن الواقع وعن الأحداث كما نقلها له من في مصر.

"آهو خرج... بيبُص لنا من الشباك.... اخرج.. اخرج". تعالت صيحات المتظاهرين عندما فُتحت ستائر النافذة الكبيرة فوق البوابة الرئيسية الخشبية للسفارة وفوق العلم المصري. بدا أن السفير على وشك الخروج لتهدئة الجمع ولكنه لم يفعل. مر الوقت ببطء وتململ علي إلا أن رامي والباقين انصهروا مع الهتافات وأخذوا يصوِّرون بهواتفهم المحمولة ما يحدث.

كانت هناك مجموعة من المصريين تقود الهتافات يبدو عليهم أنهم ممن يعملون في النقاشة والبناء. أحيانًا أخرى كانت تظهر مجموعة عربية تبدأ في الهتاف بالفرنسية. بدا أن هناك نوعًا من التنافس بينهما لم يفهمه علي، فانزوى في ركن من الشارع وحده يحاول أن يستشف ما يحدث في مصر من خلال فيسبوك على هاتفه. مجرد دعوات لليوم التالي. يبدو أن الأشياء هدأت قليلا.

جاءه رامي ومي من جانب السفارة. لم يستطع مشاركتهما في حماسهما. ناداه رامي "قاعد لوحدك ليه؟ ما تيجي. الناس عمالة تزيد".

"معلهش أنا هنا كويس.. إديني شوية كده".

نظر إليه رامي وكأنه يقول له "إزاي مش حاسس باللي إحنا فيه؟ إزاي فايتك حالة النشوة دي؟". ثم قال له "أخيرًا فيه حاجة بتحصل كنا مستنيينها أنا وإنت في المنفى هنا.. ياللا تعالى ما تتأخرش".

رجع رامي في اتجاه الحشد المحيط بالسفارة، وجلست مي إلى جانب علي على الرصيف المقابل ونظرت إليه متسائلة كما كانت تفعل وهم أطفال - لم تتغير منذ صغرهم بجسدها المكتنز بعض الشيء والابتسامة التي لا تفارق وجهها المستدير. اعتبرها علي كالحجر الذي ترتطم عليه تساؤلاته وشكوكه التي يستكين إليها أحيانًا. سألته "مالك؟ فيه إيه؟".

نظر إليها ولم يجب على الفور ثم قال وهو يدير وجهه في الاتجاه الآخر "أبويا يا مي. إنت فاهمة".

"وأبوك ما له يا علي؟ حيعمل إيه يعني؟".

"مش حيعمل حاجة. بس الموضوع بالنسبة لي صعب".

"هوّه مش أخد قراره؟ هل رجع لك قبل ما ياخده؟".

وضع يديه على وجهه ثم أزاحهما بحركة مباغتة وأجابها وكأنه على وشك الصراخ "لأ ما حصلش. ليه دايمًا لازم أكون محطوط في موقف زي ده؟ ليه؟ ليه؟". وضحك فضحكت مي وأجابته

بعفوية "قدرك كده. إنت مش مسئول عن قرارات حد، لكن مسئول عن قراراتك بس ودي نقطة فارقة".

ربَت على كتفها وقام بتثاقل "ياللا بينا".

ذهبا إلى البوابة فوجدا صوت صياح. اخترقت مجموعة من المصريين الحواجز واقتربوا من البوابة وحاولوا الدخول ليقدموا مطالبهم للسفير، ولكن أمن السفارة اعترضهم. فتعالت صيحات "ارفع صوتك قول للناس إحنا كرهنا الظلم خلاص". واقتربت قوات مكافحة الشغب، ولكنها وقفت على مساحة من المتظاهرين ولم تتدخل.

كان البرد لا يُحتمل، فاقترب رامي من علي "تيجي نروح لا باليت شوية".

"ياللا بينا بس حنقعد جوه طبعًا".

***

في اليوم التالي انقطعت الاتصالات تقريبًا بمصر. لم يعد ممكنًا معرفة ما يحدث إلا من خلال الفضائيات. اتصل أحمد رأفت بعلي الليلة السابقة وطمأنه أنهم أطلقوا سراحه بعد أن احتجزوه لمدة يومين في جهة غير معلومة (كان معصوب العينين أغلب الوقت). حكى له أنهم سألوه عن علاقته بالإخوان وبالبرادعي، وأطلقوا

سراحه عندما أكد لهم و"حلف مائة يمين وأخرج لهم كارنيه نقابة الصحفيين" أنه صحفي. تركوه أيضًا في مكان لا يعرفه في صحراء التجمع دون هاتفه المحمول، واضطر لإيقاف سيارة نقل لتُقربه للقاهرة.

***

ذهب علي ظهرًا في هذا اليوم لمنزل رامي وزهرة. كانا جالسين يشاهدان الجزيرة في حالة عدم تصديق لما يحدث. تحركت المسيرات من كل أنحاء مصر. أظهرت قناة الجزيرة اشتباكات متفرقة في الجيزة وفوق كوبري قصر النيل وفوق كوبري 6 آكتوبر، وظهر في التيكر أعداد القتلى. عشرة شهداء... 20 شهيدًا.. وهكذا مع مرور اليوم. في البداية تفاعل ثلاثتهم مع ما يحدث وتعالت صيحاتهم مع كل خبر جديد. ثم فقدوا القدرة على الكلام.

انقطاع الاتصالات جعل علي ورامي يستسلمان ويتلقيان ما يحدث أمامها دون محاولة التعليق. مرت الساعات بطيئة وظهرت صور لاحتراق مبنى الحزب الوطني العملاق على كورنيش النيل وسيارات للأمن المركزي تدهس ناسًا في أماكن متفرقة، ثم سيارة بيضاء تابعة للسفارة الأمريكية تدهس أناسًا آخرين قي شارع قصر العيني. احتبست دموعهما وهما يشاهدان بعجز ما يحدث إلى أن وقف رامي ورفع يديه "ياللا بينا.. فيه وقفة في شاتليه".

***

خرج علي من محطة مترو ڤوچيرار متثاقلا بخطى بطيئة. أخذ يفكر في المصريين الذين قابلهم مع مي. اتفقوا على تكوين لجنة في فرنسا للتضامن مع الشعب المصري، وأن يتقابلوا في اليوم التالي من أجل وضع خطة موحدة للتأثير على الرأي العام في فرنسا والتنسيق للفاعليات القادمة كلها في باريس.. وقف أمام الكافيه المقابل لمحطة المترو عند بائع الفطائر العربي وطلب منه فطيرة بالسكر والتهمها في طريقه للمنزل. على الرصيف الملاصق للبناية وجد إلييت وچان چاك خارجين من القداس المسائي في الكنيسة. نظرا إليه باهتمام مبالغ فيه. نعم إنه "علي" في مركز الأحداث بالنسبة لهم حتى لو لم يكن هو هناك، ولكنه بالتأكيد عنده دراية بما يحدث. "جاري العزيز. تعالى هنا احكِ لنا إيه اللي بيحصل في بلدك".

أحس علي باحتياجه لهذه العاطفة الأمومية من السيدة العجوز التي ليست له بها أي صلة، ولكنها ربما تتفهم ما يدور بداخله أكثر من أناس تربطهم به صلة الدم في هذه اللحظة. أجابها وهو يتساقط على الدكة "لازم يمشي. فيه ناس كتير ماتت النهارده".

"عارفة يا علي. أنا شوفت ثورات قبل كده". قالتها السيدة العجوز بصوت خافت وربتت عليه بحنان.

لم يكن علي قد وصف ما يحدث بثورة بعد، ولم يستخدم هذه

الكلمة قبل ذلك في وصفه للأحداث، فباغته التعبير. إنها حقًا بداية لثورة. تغيير نظام بكل ما يحمل وتغيير أساليب الحياة التي تدور حول هذا النظام. سيتأثر هو وأهله وأصدقاؤه بشكل لم يكن يتخيله. هو جزء مما يحدث سواء شاء أم أبى. سواء بقيَ في عزلته أم رجع ليواجه.

"وبعدين يا إلييت. تفتكري إيه اللي حيحصل؟ مش عارف أرجع ولا لأ..".

حدّقت في عينيه من خلال زرقة عينيها اللتين تحديتا تجعدات وجهها الشاحب، فبدا لمعانهما وكأنه لمعان عيني فتاة جريئة مثابرة "أنا عارفة إن أهلك حيتأثروا بالموضوع. ما تحاولش تقول حاجة. كلنا أنا وربير وماتيلد عارفين". نظر إليها وهمَّ أن يتحدث ولكنها أكملت كلامها بإصرار "التغيير لازم يحصل وله تمن يا علي. وقت الحساب جه. الأسباب اللي خليتك تيجي هنا، جه الأوان إنك تواجهها".

هز چان چاك رأسه موافقًا ولكنه تدخل قائلا "ما يمنعش إن الموضوع أكبر من كده". ثم موجهًا كلامه لإلييت "الأمريكان بيلعبوا. وليهم دور في اللي بيحصل".

تجاهلت إلييت ما قاله چان چاك لتوه، ونظرت لعلي نظرة تؤكد له من خلالها أنها متفهمة لما يمر به.

***

فتح علي باب شقته فوجد آن مستلقية بملابسها كاملة على الأريكة المجاورة للنافذة الكبيرة تكتب رسالة في هاتفها. أطفأت معظم أنوار الشقة وتركت إضاءة خافتة منبعثة من أباجورة جانبية. انعكست الإضاءة على جانب من وجهها فبدت له غامضة مثل أول يوم التقاها في البلاك كالفادوس. انسدلت خصلة صغيرة من شعرها الكستنائي على عينيها المسحوبتين فلم يتبين نظرتها له وهي تدير وجهها. اقترب منها وطبع قُبلة على وجهها وجلس على الكرسي المواجه للمائدة المستديرة الصغيرة التي يعمل عليها وفتح اللاب توب الخاص به.

"عارف تعمل ستريمينج من عندك للأخبار؟" سألته دون أن ترفع وجهها من هاتفها.

"باشوف آهه. حاحاول أجيب الجزيرة أو العربية. بتيجي بصعوبة".

"أنا اتفرجت على الس إن إن من شوية. بيقولوا إن فيه هجوم على المتحف المصري ومحاولات لسرقته".

لم يجبها علي واكتفى بهز رأسه ثم انهمك في قراءة الأخبار والصياح كل فترة "السجون اتفتحت. يا نهار إسود". أو "خلاص خلاص" في حالة من عدم التصديق وهو يسقط رأسه بين كفيه.

رن جرس هاتفه فالتقطه بسرعة. لم يظهر رقم. جاءه صوت أبيه هادئًا كما لم يسمعه من قبل "علي، أخبارك إيه؟".

"أنا أخباري إيه؟ إنتم عاملين إيه يا بابا؟ إيه الأخبار عندكم؟".

"الدنيا مش كويسة خالص يا علي. الشرطة اختفت من الشوارع. كونّا لجنة شعبية ونزلت مع جيراننا مرة وحانزل مرة تانية نلف في الشارع".

"مُسلحين كلكم؟".

"الناس كلها مُسَلحة. الزمالك فيها كمية سلاح مش طبيعية، واللي ما معاهوش بينزل بسكاكين أو شوم. قابلت حماده صاحبك ماشي قدام النادي بساطور من شوية".

ضحك علي كما لم يضحك منذ سنوات مع أبيه، ثم اقشعرّ جسده وهو يتخيل الزمالك وقد أصبحت ميدانًا للحرب. مرعى طفولته وشبابه. الجزيرة التي يعرفها كظهر يده. أصدقاؤه وأقاربه يدافعون عنها وهو هنا عاجز مكتوف اليد.

"وإيه اللي بيحصل في باقي مصر؟".

أجابه الأب (وكانت هذه أطول مدة يتحدثان فيها منذ سنوات) "السجون اتفتحت زي ما أنت عارف. دخلوا على أركاديا وحرقوا محلات والسوق الحرة في شارع جامعة الدول اتدمرت... مستشفى

أبو الريش بتاع الأطفال، استولوا على الأجهزة. سمعت من مصادري إن فيه حالات اغتصاب كتيرة حصلت".

سأله علي بجرأة غير معهودة مع أبيه "ومين اللي فتح السجون؟".

"الموضوع أكبر مما نتخيَّل يا علي. فيه مساجين من حماس وحزب الله هربوا. فيه خطة مُحكمة بتتنفذ".

أجابه علي بنفس الجرأة "لكن اللي أنا فاهمه هو إن الداخلية هي اللي فتحت السجون وانسحبوا من الشوارع.. إستراتيجية الأرض المحروقة..".

فقد الأب أعصابه لأول مرة وصاح "بلاش كلام فارغ.. أنا عارف أنا باقول إيه".

لم يتمكن علي من تمالك أعصابه "وأنا عارف أنا باقول إيه. البلد خربانة، والداخلية مجرمة والناس الغلابة هي اللي بتدفع التمن".

أكمل أحمد كمال صياحه "مين الناس اللي بتدفع التمن؟ وإنت فين من كل ده؟ ما تيجي هنا بدل ما أنت قاعد هربان في باريس".

كانت هذه الجملة التي أخرجها الأب وندم عليها فورًا بمثابة إنهاء للمحادثة. أغلق علي هاتفه بعدها وفتح النافذة وأشعل سيجارة ثم رجع إلى جهازه، وبدأ سيل من المشاهد يغزو الشاشة.. أناس

يجرون في الشارع ومعهم أجهزة كهربائية وحرائق في أماكن مختلفة. لم يلتفت لآن مرة واحدة حتى بعد إنهاء المكالمة.

وقفت آن فجأة وقد بدا على وجهها الضجر "أنا نازلة شوية... مش قادرة".

"حتتمشّي دلوقت؟" لم يكن يريد الجلوس وحيدًا ولكنه لم يكن يريد محادثة أحد أيضًا.

"أيوه مش قادرة. حاسيبك إنت تتابع الأخبار. أنا مش قادرة. لازم أغيّر جوًا".

"زي ما تحبي. باي".

أغلقت آن الباب وراءها وجلس علي لمدة دقائق وهو ينظر للسقف ويتنفس بصعوبة، ثم قرر أن ينزل وراءها. شيء بداخله يقول له أن هناك سرًا تخفيه. حدْسه عادة ما يقوده للحقيقة. قد يتجاهله كثيرًا ابتغاء لراحة البال، ولكن هناك بداخله احتياجًا مباغتًا الآن لمواجهة حقيقة. أي حقيقة كانت. قفز فوق السلالم الخشبية بسرعة فائقة وعبر الحوش بخطوات سريعة. عند البوابة الرئيسية للبناية وجد ماتيلد وفي يدها أكياس على وشك أن تصعد إلى منزلها. حيّاها باقتضاب وخرج إلى الشارع. رأى آن تأخذ يسارًا في شارع چيربير. أسرع الخطى وراءها في شارع ڤوچيرار حتى محطة

مترو الكونقونسيون. تسع محطات قضاها متخفيًا في آخر العربة التي استقلتها آن. في محطة سيفر - بابيلون فتحت الباب ونزلت على رصيف المحطة وهي تنظر إلى هاتفها، وغيرت الرصيف إلى اتجاه محطة سانت لازار. "إذن هي ذاهبة إلى سانت چيرمان". محطتان أخريان في نفس العربة ونزلت آن متبوعة من علي في محطة مابييون وخرجت وهو وراءها إلى بولفار سانت چيرمان. سلكت شارع بوسي ومنه أزقة الحي اللاتيني الصغيرة حتى وصلت إلى رصيف موتيبيلو أمام كنيسة نوتردام. كانت الشوارع والبارات مليئة والمارة يتدفقون على سانت چيرمان "الحياة تمضي كما هي. تموت شعوب وشعوب أخرى لا ترى. ما يحدث في مصر لا يخص أحدًا هنا، وكذلك آن لا يخصها. طبيعي أن تتذمر ولكن ليس طبيعيًا أن تتركني في هذه الظروف. وقفت آن أمام النهر في مكان خالٍ من المارة ثم أخرجت هاتفها وأجرت اتصالًا سريع وأشعلت سيجارة. بدا له أنها لا تلمحه في الظلام، وظهر رجل خمسيني قادمًا من اتجاه جزيرة سانت لويس. اقترب علي أكثر مخاطرًا أن يرياه رغم انهماكهما في حديث هامس. وقف الرجل يتودد إليها واقترب منها. كان يرتدي معطفًا أسود طويلًا وفي يده سيجار. إنه على يقين أنه رآه قبل ذلك ولكنه لا يتذكر أين... "آه.. نعم.. نعم.. إنه الرجل الذي رآه في الصور ليلة شقة جزيرة سانت لويس. هو الرجل الروسي الذي هجرها". أخذ نفسه بصعوبة بالغة، وأحس بضربات

قلبه تتسارع، فانزوى بجانب مدخل إحدى العمارات واستدار بعد أن رآهما يتجهان إلى جزيرة سانت لويس.

لم ينم علي كمال هذه الليلة. لم ترجع آن. كان يعلم أنها لن ترجع هذه الليلة. حاول أكثر من مرة أن يدخل سريره ويخلد إلى النوم. أغلق عينيه بضع دقائق. تسارعت صور في مخيلته كثيرة غير متناسقة. رأى جده وهو واقف أمامه وعلي يرتدي اليونيفورم ويحمل حقيبة المدرسة. كان الجد ينهره لأنه بعيد وليس حاضرًا للدفاع عن بلده، فاستيقظ وهو يتصبب عرقًا وأغلق عينيه مرة أخرى فرأى الرجل الروسي يطارح آن الغرام بعنف، ثم رأى قتلى وأشلاء فاستيقظ مرة أخيرة، وجلس في غرفة المعيشة، يراقب الأخبار مرة أخرى من خلال جهاز اللاب توب ويدخن سيجارة وراء الأخرى.

في الصباح، فكر في حجز تذكرة طيران إلى القاهرة، ولكنه علم أن المطارات أغلقت، فأخذ يفكر في أفكار هلامية ليست لها صلة بالواقع. "إنه سيرحل إلى ليبيا ويعبر الحدود من السلوم وينضم لأصدقائه في التحرير دون أن يدري أحد". ثم أفاق من أفكاره وقاوم التعب وأخذ "دوشًا" وارتدى ملابسه وذهب ليرى عمه.

***

لم تمنع أول جلسة كيمياء والمشقة المصاحبة لها، إبراهيم كمال من استقبال ابن أخيه بابتسامة عريضة من على باب المسكن الذي قام بإيجاره. ارتدى بذلته كاملة وكرافتة ومعطفًا داكن اللون فظهر وكأنه لم يهتز لما يمر به، رغم أنه في البداية انتابته حالة من القلق الشديد على نفسه "إيه؟ تحب ننزل نتمشّى شوية ونقعد في كافيه أيرو في باسي والّا نبعد ونروح نتغدى في حتة تانية؟".

"لا يا عمي.. عايزك تعزمني على الغدا وعايز نروح كافيه دو لا بى في الجراند هوتيل، زي زمان مع أبويا ومع باقي العيلة" قالها علي مبتسمًا.

ضحك العم ضحكته المميزة العالية "هي هي.. ياللا بينا شكلك تعبان ومحتاج تفضفض".

استقلا سيارة أجرة من باسي إلى ميدان الأوبرا. فتح لهما الميتر دوتيل وانتظرا خمس دقائق قبل أن يجهز لهما مائدة صغيرة خلف زجاج الواجهة المطلة على ميدان الأوبرا. طلب العم سمك موسى مقليًا، وطلب علي سمكة سانت چاك، وجلس ينظر إلى عمّه في سعادة قبل أن يسأله إبراهيم كمال "أخبار مصر إيه؟".

"كلمت أبويا إمبارح".

ابتسم العم بدوره "عارف واتخانقتم".

"لحق قال لك؟".

هز الرجل رأسه "اسمع يا علي، أنا عايز أقول لك على حاجة مهمة".

نظر إليه علي في ترقب، فقال له العم بجدية "خناقتك مش مع أبيك. معركتك أكبر من كده بكتير".

تنهد علي "أنا ما با قتش عارف حاجة يا عمي. ما فيش حاجة واضحة".

نظر إليه العم وقال له بثبات "لأ كل حاجة واضحة. فيه ناس مش عايزة تشوف. ده كل ما في الموضوع.." ونظر العم من خلف الزجاج بعيدًا قبل أن ينظر إلى علي في عينيه، ويكمل "فيه ظلم حصل، إنت عارفه وأنا عارفه. الظلم ده طال ناسًا كثيرًا. طالك أنت برضه يا علي. فيه تغيير بيحصل وأنت جزء منه".

قاطعه علي "جزء منه إزاي بس؟ أنا باحاول أرجع ومش عارف".

"وقت رجوعك لسه ما جاش لكن قرّب".

"إيه وحاسيبك هنا لوحدك؟".

هز العم رأسه "أيوه حتسيبني وترجع، بس مش دلوقت. باقولك إيه لما تروح بَيِّن إنك مع الحق لأنك حتكون بتتخانق علشان الحق فعلا وما تخليش اسمك عائق بينك وبين استكمال المعركة".

أحضر الجرسون الطعام، فتوقفا عن الكلام وبدآ في الأكل ولكن إبراهيم كمال كانت لديه أشياء أخرى يريد أن يقولها لعلي. نظر إليه مرة أخرى بتمعّن وقال له "أنت عارف إن المعركة دي حتبقى طويلة. الجيش مش حيسيبها بسهولة".

"طيب والإخوان يا عمي....".

هز الرجل رأسه بالنفي "الإخوان كالعادة حيجروا ورا الغنايم وحيُقعوا بسرعة.... لكن لازم يبقى فيه حاجة جديدة. مقاومة بحق وحقيقي منظمة". ثم سرح بنظره بعيدًا مرة أخرى وقال بضيق: "لكن الجيش مش حيسيبها بسهولة بعد حكم ستين سنة".

أجابه علي "عارف يا عمي عارف".

"اسمع... لما ترجع حتكون دي خناقتك. مصر مش حتقوم من غير حكم مدني. معركتك مش مع أفراد. معركتك مع نظام".

"وأبويا...".

"قلت لك.. معركتك مش مع أشخاص ولازم أبوك يفهم ده كويس. في يوم مش حاكون ولا أنا ولا هوَّ موجودين. يمكن أنت

يكون عندك عيلة ويمكن أنت تنجح إنك تعيّشهم في بلد مختلف عن اللي إحنا كبرنا فيه... إنت ما شوفتش يا علي الستينيات.. ما شوفتش الحقبة الناصرية في عزها. لما الحيطان كان ليها ودان. إحنا شوفنا أهالينا وهما خايفين. كبرنا على الخوف. لازم تفهم ده قبل ما تحكم على أبيك". ثم وهو يشيح بوجهه إلى الخارج مرة أخرى "أنا ما بقاش عندي حاجة أخسرها. لو كنت في مصر دلوقت كنت نزلت مع الناس اللي بينضرب عليهم نار ومسيل للدموع في التحرير".

***

انهمك علي في كتابة بيان باللغة الفرنسية لإرساله إلى وسائل الإعلام المختلفة، عندما سمع صوت المفتاح يدور في كالون الباب وظهرت آن أمامه. نظر إليها سريعًا وأدار وجهه مرة أخرى نحو شاشة الكمبيوتر وكأنها لم تحضر. وضعت حقيبة يدها على الأريكة ووقفت تنظر إليه دون أن تنبس بكلمة، ثم قالت له بكل بساطة "تعالى نتمشّى شوية. إنت محتاج تغير... ياللا بينا".

***

جلسا متلاصقين وملتحفين بمعطفيهما فوق قوالب الطوب العتيق لرصيف النهر، مستندين على الحائط العملاق الذي يفصلهما عن الشارع. اكتفيا في البداية بمراقبة مياه نهر السين تتدفق حالكة

وتنعكس عليها أضواء أعمدة النور من مسافة ثم تنعكس على أحرف الـ N المحاطة بإكليل قيصر المنقوشة فوق أعمدة كوبري نابليون الثالث.

"آن عايز أكلمك في حاجة مهمة". قالها علي وهو ينظر أمامه دون أن يلتفت إليها.

أجابته بلا مبالاة واضحة في صوتها "قول يا علي.. إيه؟".

"أنا راجع مصر".

"كنت متأكدة". وبعد لحظات من الصمت "ما كنتش متخيلاك مرتبط للدرجة دي بهناك. إدتني في الأول انطباع إنك قفلت صفحة من حياتك خلاص وبتفتح واحدة جديدة".

"كنت فاكر كده لكن اللي بيحصل خلاني أكتشف إن صعب... لأ مستحيل إني أقفل الصفحة دي قبل ما أواجه حاجات معينة".

"حتواجه إيه؟" استدارت وحدّقت فجأة في عينيه "عيلتك؟ صح؟".

"يمكن ويمكن لأ. يمكن يكون الموضوع ده جزء من اللي أنا حا أواجهه ويمكن يكون الموضوع منتهي".

"مشيت ورايا ليه إمبارح يا علي؟" باغتته آن بذلك، وتحول وجهها - كأول يوم عندما طالبته بمغادرة الشقة في سانت لويس -

بعيدًا وقاسيًا وكأنها غريبة، عنه وكأنها لم تشاركه فراشه كل هذه الشهور.

استجمع قوته وصاح فيها "عملتِ كده ليه؟".

حدّق فيها فلم يلمح أي تغيير في تعبيرات وجهها وهي تقول له "كنت عايزني أعمل إيه؟ أعيش منين؟ أنت بتصرف على نفسك بالعافية بالكام يورو اللي أبوك بيبعتها لك كل شهر بعد ما تدفع الإيجار لروبير".

أشاح علي بوجهه عنها وتضاربت الأفكار بداخله ولعن في سره عجزه.

احتضنته آن فاحتضنها حضنًا أخيرًا ولم يدر كم من الوقت لبث هكذا قبل أن يفترقا كل إلى طريقه على أن تحضر إليه في اليوم التالي لتأخذ ملابسها من الشقة.

الفصل الحادي عشر

قضى علي كمال سنوات من عمره يحلم بأن يكون في مسيرة تتمكن من المرور من غرب ضفة النيل إلى شرقه أو العكس. من التوحد مع الحشود المتدفقة من الجانب الآخر. باءت كل محاولاته بخيبة الأمل. تارة، كانت قوات الأمن تهاجم مسيرة هو فيها قبل أن تبلغ كوبري الجامعة ببضع دقائق أو تنتهي المسيرة على الجانب الآخر قبل بلوغها كوبري قصر النيل، كما حدث وقت مظاهرات التنديد بحرب العراق، عندما انطلقت قوات الأمن من كل صوب في ميدان التحرير، ولم يشفع للمتظاهرين اختباؤهم في محطات المترو أو في أزقة وسط المدينة.

ولكن علي كان ما زال في باريس عندما تحقق حلمه من دونه، بينما شهده سليم رياض الذي لم تكن تراوده الفكرة على الإطلاق، ولم يهتم بهذه التحركات عندما كان في لندن يشتري الأسهم ويبيعها

ويحسب قيمة المحافظ المالية التي يديرها، أو حتى عندما رجع إلى القاهرة ليزاول حياته البسيطة مع أمه قبل يوم مروره الأول من فوق كوبري قصر النيل يوم 25 يناير وإصابته.

ما حدث يوم 28 يناير ليس له أي تفسير منطقي. لم يدر بخلد من شاركوا في المسيرات بعد صلاة الجمعة يومها أنهم سيتمكنون من عبور ضفة إلى الأخرى، ولم يتوقعوا أن الأجهزة الأمنية التي روعت ملايين المصريين لمدة أكثر من ستة عقود ستقع خلال بضع ساعات، وإن لم يكن هذا الوقوع بالحاسم على المدى الطويل، ولم يتوقع مبارك أو أي من وزرائه أن الوضع سيتدهور بهذه السرعة، ولم يتوقعوا أيضًا أن تنقلب الدنيا رأسًا على عقب بعد هذا اليوم خلال أقل من خمسة عشر يومًا.

"إنسوا إن إحنا نعدي النهارده للميدان. مش حيخلونا نعدي بالمنظر ده". كان أحد الوافدين، شابًا هزيلًا يرتدي نظارة طبية في منتصف العشرينيات، يصيح إلى صديقه بجواره، ولكنهما أكملا تقدمهما بعد أن تعالى صوت صديقه، شاب في أواخر العشرينيات بلحية خفيفة "الشعب يريد إسقاط النظام... ياللا... اثبت يا عمر. النهارده يومنا. الله أكبر الله أكبر". وانضم إليهما سليم دون أن يقول كلمة. كان غير مصدِّق لما يحدث حوله، وغير مصدِّق وجوده في هذه اللحظة وسط تلك الكتلة البشرية التي على وشك

الاصطدام بكتلة أخرى. وتعالت دقات قلبه حتى كاد أن يسمعها رغم عدم انقطاع الطلقات الصادرة من المدرعات.

التشكيلات المتشحة بالسواد تقدمت بسرعة لم تمنع الكتلة التي هو فيها من التقدم، وظهرت مصفحتان اخترقتا التشكيلات وأسرعتا في اتجاههم. شَم سليم رائحة الغاز المسيل وبدأ في السعال بشدة وأحرقته عيناه بشكل غير محتمل فاستدار، ووجد خلفهم عند تمثال سعد زغلول سحابًا من الدخان ارتفع إلى عنان السماء. لم يعد في إمكانه فعل أي شيء إلا التقدم. تذكر ابنه وأمه والجنايني عم حسين وأشجار حديقة منزله التي تركها خلفه تذكره بأيام طفولته الأولى، وأكمل تقدمه وهو يرفع البلوفر فوق أنفه. استوقفه شاب صغير وسكب له بيبسي في يديه مشيرًا له تجاه وجهه، فرفعها سليم ودهن وجهه رغم السعال الحاد الذي انتابه. أوشكت قواه أن تخور ولكن وازعًا بداخله قال له إن في نهاية الكوبري تقبع أسرار لا بد له أن يُحَصِّلها. قد تكون مرتبطة بحياته أو بمماته. كلّ سواء الآن. لم يعد هناك ما يخسره منذ هذه اللحظة. أخذت المدرعتان تدوران بمحاذاة سور الكوبري يمينًا ويسارًا، وأوشكت إحداهما أن تزيحه كلية، فالتصق بالسور الأخضر وصعد عليه وأوشك أن يقفز في النيل. رأى من خلال الدخان، الشاب الذي كان يحادث زميله قد شارف على الإغماء وصديقه يجذبه بصعوبة بالغة. رأى أيضًا متظاهرًا

يحاول الصعود فوق إحدى المدرعات فتزداد سرعتها فيقفز للوراء. لم يدرك كم مر من الوقت وقاربت قواه أن تخور، وارتفعت هتافات "حرية... حرية.. حرية" فشدت من أزره وحاول التقدم مرة أخرى. وازدادت قوة الكتلة التي هو فيها وتقهقرت المدرعتان، فوجد نفسه قد اقترب من نهاية الكوبري وانطلقت خراطيم المياه في وجههم، فوجد رجلا واقفًا إلى جانبه يصيح "اثبت.. اثبت".

أمسك سليم في سور الكوبري بقوة حتى لا يقع وبذل مجهودًا فاق توقعاته الأولى، ليبقِي عينيه مفتوحتين. لم يصدق ما رآه، صفوف مصلين تركع وتسجد أمام القوات الواقفة في وجوم، وخراطيم المياه تنطلق من مدرعة عملاقة خلف الشرطة. لم يكن سليم يتوقف كثيرًا عند المسائل الإيمانية، ولأول مرة في حياته وجد نفسه يعيش حالة تتحدى المنطق المطلق الذي كان يتبعه. وقف يعطي ظهره للمصلين ينظر في اتجاه مدخل الكوبري عند تمثال سعد باشا زغلول الذي يشير بسبابته إلى ميدان التحرير في شموخ. عندما استدار كانوا قد فرغوا من الصلاة أمامه وسمع طلقات مختلفة عن تلك التي تنبعث من فوهات مدافع الغاز، صوتًا أقوى له مردود. رجع إلى الوراء وكاد يتعثر في مصاب ملقى على الأرض ومسجى في دمائه، فوقف دقيقة ونظر إلى وجهه المُغطَّى بالدماء. لم يتبين عينيه ولكنه تعرف على صوته من خلال أنينه. إنه الشاب الذي كان يجر صديقه منذ دقائق ويهتف بحماسة. حاول

أن يشده من يده إلى أول الكوبري، ولكنه لم يستطع تحت مفعول الغاز واندفاع الناس في الاتجاه المقابل، فأخذ يجري بآخر ما تبقى له من طاقة دون تفكير حتى وصل إلى مدخل الكوبري من ناحية الزمالك.

لم يدر أيضا سليم كم من الوقت مضى وهو واقف يستند على حائط حديقة الأندلسية العلوي يشاهد القنابل المسيلة للدموع وهي تقفز في الهواء وتهبط على أرض الكوبري قبل أن تقفز مرة أخرى في النهر ويخبو دخانها في المياه. من حوله جلس كثيرون لا يقوون على الحراك ممددون على الرصيف الواسع للميدان.

استرجع أحداث اليوم الكثيرة السريعة (وهو واقف لا يقوى على الجلوس خوفًا من أن تنهار قواه كلية) منذ انطلقت المسيرة التي شارك فيها من ميدان مصطفى محمود بعد الصلاة ومعه أمينة وأحمد رأفت، ووجوه كثيرة يعرفها من قبل. بعضهم رآهم يوم مظاهرة خالد سعيد في الإسكندرية منذ شهور وآخرون قابلهم في شوارع وسط المدينة خلال الأسابيع الماضية منذ ترك العمل. رجت هتافاتهم شارع البطل أحمد عبد العزيز، وعندما مروا أسفل كوبري الدقي، ثم بجوار قسم الدقي، حيث كانت المدرعات تتخذ موضعًا لمراقبتهم دون أن تتدخل، إلى أن حدث هجوم مباغت قبل كوبري الجلاء، وجرى كل من تبقَّى من المسيرة الأولى كلُ

في اتجاه، وفقد سليم أحمد رأفت وأمينة بعد أن تقدم هو في اتجاه الكوبري ورجعا هما إلى الوراء خلف البنزينة المقابلة للشيراتون. قوة لم يعلم مصدرها جذبته وسط الحشود المتقدمة تجاه كوبري قصر النيل، إلى أن وجد نفسه داخل المعركة في نفس الموقع الذي اتخذه وحده قبل ثلاثة أيام.

"هل شريف ابني يعرف ما يحدث هنا في مصر؟ ولو عرف؟ يعرف أن أباه في وسط المعمعة؟ ولكن لماذا أشارك في كل هذا؟ إن مستقبلي واستمرارية إسمي ليسا في هذا البلد.. أو على الأقل الآن. شريف لن يعود، وإن مت الآن أكون مُت لقضية لن تفيد أحفادي من بعدي. هم سيكونون إنجليزًا بعد خمسين سنة.. إنجليزًا مصفيّين. يمكن حتى أن يغيروا أسماءهم... ربما يحضر في يوم من الأيام.. ربما" ابتسم سليم بسخرية من هذه الفكرة وعاتب نفسه على هذه الأفكار الغريبة في وقت كهذا، وأفاق على صوت مألوف "إنت فين يا عم؟ اللـه يخرب بيت كده. أنا نَفَسي اتقطع... قطعولي نَفَسي.. اللـه يخرب بيوتهم". نظر دون أن يُجمّع للحظات حتى فهم أن من أمامه هو أحمد رأفت الذي أخذ يهز ذراعيه الصغيرتين بحيوية. بلوفر رأفت القطني كان مبللا من العرق، كذلك وجهه المستدير انسابت منه قطرات غزيرة من العرق.

"رأفت أخيرًا.. إيه اللي حصل يا ريفو؟ وفين أمينة؟".

"كنا مستخبيِّين سوا في عمارة ناس قرايبها في ميدان فيني بعد ما حصل الهجوم، وسيبتها هناك وكمِّلت أنا لحد ما لقيت مسيرات متجهة على الميدان". ثم نظر رأفت خلفه إلى مجموعات مختلفة تتقدم إلى وسط الكوبري "الشباب دول جايين معانا من الجيزة ومن إمبابة".

"بس إنت واخد بالك يا ريفو إن المسيرة بتاعتنا على ما وصلت الجلاء انقرضت خالص؟".

ضحك أحمد رأفت بطريقته المعتادة وهو يهز جسده ويغلق عينيه "أيوه.. أيوه.. عارف... بابص ورايا لقيت مرة واحدة الدنيا فاضية تمامًا". ثم مستكملا كلامه بشكل أهدأ وهو ينظر إلى سليم بثبات لم يلحظه سليم فيه قبل ذلك "باقول لك إيه يا سليم ياللا بينا نكَمِل مع الناس دي. سمعت إن فيه معارك شغالة عند وزارة الداخلية... بيقولوا فيه 100 قتيل لحد دلوقت".

تذكر سليم الشاب المضمخ في دمائه منذ قليل فوق الكوبري. لا يدري إن كان أُصيب أو مات. ولكنهما تشاركا التقدم والحماس في لحظة. قد يكون قد انتهى كل شيء بالنسبة لهذا الشاب، ولكنه - سليم رياض - لم يعد في إمكانه التراجع، لأنه يتحمل مسئولية حلم من وقع إلى جانبه على عاتقه.

أوشك النهار أن يختفي كلية، وانبعثت أضواء الفنادق كعادتها

على صفحات النيل، عندما انطلق سليم إلى جانب رأفت وانضما مرة أخرى إلى كتلة اللحم المتشابكة بين ضفتي النهر. مد سليم نظره تجاه فندق سميراميس على الكورنيش فوجد نيرانًا تنبعث منه لأعلى. نفس القوة التي سحبته في اتجاه الميدان صباحًا، جذبتهما "الله أكبر.. الله أكبر" إلى أن وجدا نفسيهما عند مبنى جامعة الدول العربية في مدخل الميدان بعد أن تراجعت الكتلة السوداء للوراء.

صاح رأفت في غبطة "سليم... سليم إحنا وصلنا الميدان.. وصلنا الميدان". غالبت الصديقين دموع في عينيهما لم تكن من تأثير الغاز هذه المرة، وتقدما وسط الحشود إلى أن وصلا إلى مدخل وسط المدينة من الميدان ثم رجعا إلى الصينية في وسط الميدان وافترشا الأرض وسط أشخاص آخرين كانت وجوههم مألوفة.. بعضهم رآهم سليم خلال المسيرة الأولى وقت الظهيرة. من فوقهم مرت مجموعات لم تنته تجاه شارع الشيخ ريحان ووزارة الداخلية. استوقف رأفت أحدهم "سيد.. إنت جاي منين ورايح على فين؟".

توقف سيد، شاب في منصف الثلاثينيات من عمره، داكن اللون ذو مظهر بسيط بنحافته وتقاطيع وجهه البارزة، ونظر إلى رأفت في غبطة وهز شيئًا بيده "شايف خدت إيه من ميدان الجلاء. بُص يا عم. تذكار صغير كده". استنتج سليم قنبلة مسيلة فارغة في يده، فابتسم مجاملا دون أن يتكلم، ولكن سيد لم يكن في حاجة إلى

متحدث آخر "النهارده حطينا عليهم حطّة السنين يابا" ثم موجهًا كلامه إلى شاب آخر بسيط المظهر، أجعد الشعر تعبيرات وجهه تلامس الطفولة، واقف إلى جواره "صح ياللا يا إيزى والا إيه؟" هز الآخر رأسه موافقًا وهو يبتسم ابتسامة الطفل الذي استطاع أن يزوّغ من المدرسة دون أن يُمسك به المشرف. وعيناه تلمعان وسأله أحمد رأفت "رايحين على فين دلوقت؟ بيقولوا فيه حاجة عند وزارة الداخلية".

أجابه سيد "ما إحنا رايحين على هناك يا أستاذ أحمد. الدّبِّ شغال تمام. النهارده حفلة". ثم موجهًا كلامه إلى الشاب الواقف إلى جواره، تبدو عليه حالة من اليوفوريا الخالصة "قول لهم ياض يا إيزي على اللي حصل عند كوبري الجلاء".

تحدث إيزي بسرعة وكأنها فرصة لن تتكرر كي يعرض بطولاته على الجمع "أربع مدرعات أخدناها منهم بعون اللـه بعد ما دوخونا السبع دوخات". ومضيفًا وكأنه يلقي بيانًا على الجالسين على الأرض "النهارده يا باشا بيدفعوا تمن كل اللي عملوه فينا في الكام سنة اللي فاتوا". ثم وكأنه يستأذن سيد احترامًا لفارق السن "إحكى لهم يا سيد على اللي حصل في قسم مصر القديمة؟".

ابتسم سيد ملء فيه وهو يقول لإيزي "أُمال إيه ياض.. أستاذ أحمد حبيبنا من زمان.. احك احك. ما حدش حيسلمك النهارده.

قاطعه الشاب - الذي بدا لسليم أقرب إلى الطفولة، بذقن لم تنبت وصوت أجش لم تترسَّخ فيه بحة صوت البالغين بعد "ولا حاجة يا عم، جمال أخويا كان عند قسم مصر القديمة، حاكم إحنا أصلا من قلعة الكبش. العيال بتوعنا كانوا متجمَّعين هناك. قام أتوبيس نقل عام وقف هناك على الكورنيش ونزل منه عساكر وابتدوا ضرب في الشباب بتوعنا". ثم صمت إيزي وهو ينظر إلى من حوله ليتأكد أنهم يصغون إلى ما يقول، فضربه سيد فوق كتفه "ما تقول ياض... كمل".

"ولا حاجة.. ما فيش دقايق كان الأتوبيس متاخد هيلة بيلة وهوبًّا في القسم. كل اللي جوا القسم خرجوا استسلموا. وقلعوا الميري". قالها إيزي وأخذ يضحك فضحك معه سيد ورأفت وهو يردد "هيلا بيلا... آه واللـه زى ما بقولك كده".

إلى أن قاطعه رأفت "طيب باقول لك إيه يا سيد. ممكن وإنت راجع من عند الداخلية تعدي علينا هنا تاني. مش رايحين حتة. حاكون أنا وسليم هنا، ولو حد قام التاني حيكون قاعد".

هز سيد رأسه "تؤمر يا أستاذنا. بس ادعي لنا نرجع بخير".

"إن شاء اللـه خير. بس ما تنساش يا بو السيد. ضروري قوي. علشان نحاول ننقل الأخبار. إنت عارف إنهم قافلين علينا النت. لكن حانحاول برضه. لازم نوصل للناس اللي بيحصل. فيه غشامة جامدة بتحصل".

منذ هذه اللحظة انفصل سليم عن التفكير المنطقي الذي غلب عليه معظم حياته تمامًا وبلا عودة. لم يعد هناك ما يستدعي أن يستخدم هذا التفكير المنطقي البحت، لأن لا شيء فيما يحدث الآن يخضع لأي منطق. هناك معسكران تم شقهما. أحدهما مع نظام يدّعي العقل ويستخدم أساليب تنافي أي عقل ومعسكر آخر هو فيه خارج عن القانون، يعمل بسيولة دون حدود معروفة. سير الأحداث يوحي أن المعسكر الأخير أكثر تناسقًا مع التاريخ. هؤلاء.. إيزي وسيد بكلامهما السريع، وريفو بحركاته السريعة أكثر عقلا من مجدي حسان وأحمد كمال اللذين يتكلمان كل كلمة بحساب، وفي النهاية يقفان على أرض لا تتحرك إلى الأمام بل تغطس بهما وهما لا يدريان. إنه يعيش أخيرًا بعد أن ظن أن حياته انتهت برحيله بعيدًا عن إبنه.

قطع حبل أفكاره رأفت مرة أخرى وهو يصيح "الحزب الوطني. بُص هناك يا سليم".

مد نظره فرأى نيرانًا ترتفع إلى السماء ودخانًا أسود كما لم يرى من قبل. تدافع الناس في كل اتجاه وهم يصيحون في ابتهاج وذهول ورهبة "الوطني بيتحرق". وتلتها صيحات أخرى "الجيش نزل".

قام سليم ورأفت من مجلسهما، وتمشيا ناحية ميدان عبد المنعم رياض وهما في حالة من عدم التصديق لما يحدث حولهما. تدافع

الناس في جميع الاتجاهات. استوقف رأفت أحدهم، رجل يهرول من ناحية تمثال عبد المنعم رياض وسأله "إيه اللي بيحصل هناك؟" أجابه الشاب في تلهف "بيحرقوا الحزب الوطني وفيه ناس بيقَلِّبوا كل حاجة جواه". وأكمل جريه، وأكملا هما، فلمحا الدبابات على مدخل الميدان ساكنة مكانها. فوق كلٍّ منها ضابط أو اثنان يقفون في حالة ترقب. مد سليم نظره إلى المتحف المصري على يساره، فلمح، رغم الظلام، حركة غير طبيعية، وأناسًا يجرون تجاه المتحف، أشكالهم مختلفة عن هؤلاء الذين رآهم طيلة اليوم، ورأى ضباط جيش يجرون في نفس الاتجاه ثم سمع صوت طلقات رصاص حي لأول مرة. التقت نظراتهما هو وأحمد رأفت وقال الأخير له "الموضوع ما بقاش تهريج. تعالى نرجع وسط الميدان أحسن. الناحية دي شكلها فيها قلق غير مفهوم". لم يجبه سليم، واستمر في المشي بثبات دون أن يلتفت وكأنه معتاد على ما يحدث حوله طيلة حياته. غمره إحساس وقتها أنه لا يُقهر، وأن ما يحدث حوله لا يخصه وكأنه مشاهد فقط لفيلم تتسارع وتيرة أحداثه.

"ياللا بينا يا سليم. نروَّح نريح شوية".

"مش نستنى شوية نشوف الليلة حتخلص على إيه؟ والعيال اللي راحوا عند الداخلية دول. نشوف أخبارهم إيه".

نظر إليه رأفت وابتسامة عريضة فيها شيء من السخرية تكسو

وجهه "أنا طبعًا مش مصدق. هو أنت سليم رياض والّا حصل تغيير وأنا مش واخد بالي؟".

بادله سليم الابتسامة وتمتم "كل شيء ممكن يا ريفو. بعد النهارده ما فيش حاجة مش ممكنة. عندك حق. لازم أروح أطمّن أمي. ما تعرفش حاجة عني من الصبح".

***

في اليوم التالي رجع سليم بصحبة رأفت وأمينة إلى الميدان وقت الظهيرة، ومعهم استعداداتهم من خيام وبطاطين وحقائب نوم للبيات. حضر إليهم سيد وكانت تعبيرات وجهه تغيرت عن بضع ساعات. اختفت الحماسة وحل محلها نوع من الوجوم، وعندما سأله رأفت عن سبب تأخره في اليوم السابق عليهم، أجابه بصوت متقطع غالبه التأثر "الواد إيزي... الواد إيزي.. أخد رصاصة في دماغه عند الداخلية". نظر إليه سليم ورأفت بوجوم دون أن يتفوّها بكلمة، وأضاف "حاروحله على مشرحة زينهم دلوقت" - ثم وهو يضع رأسه بين يديه وينظر إلى أسفل - "إيزي ابن خالتي كان لسه تامم تمنتاشر سنة".

لم يبرح سليم وأمينة ورأفت مكانهم إلا للذهاب للاستحمام والعودة، وأبقى سليم ورأفت على اتصالاتهما مع علي كمال في

فرنسا بعد أن عادت شبكات الاتصالات إلى العمل. إلى أن كان بيان التنحي بعد أن حاصر الثوار القصر الجمهوري.

***

في باريس اجتمع المصريون والعرب بعد الظهيرة في الحديقة الواسعة للإنفاليد أمام مدفن نابليون حيث الكلية الحربية. استمع علي من مسافة إلى أغنية "يا حبيبتي يا مصر يا أمي" لشادية، منبعثة من سماعات ضخمة وضعها المصريون وسط الحديقة، ووقف يشاهد أحدهم وقد خلع قميصه وبقي بالفانلة الداخلية رغم برودة فبراير. وقف الرجل ذو الشارب المصري الرفيع التقليدي والبطن البارز فوق إحدى السماعات العملاقة، يحتضن طفلة صغيرة في سعادة بيد ويلوح بعلم مصر باليد الأخرىْ ويردد الأغنية، بينما وقف المارة من كل الجنسيات يشاهدون المصريين وهم يتراقصون وسط الحديقة، وراحوا يأخذون الصور التذكارية. بعضهم توقف ليشارك المصريين الرقص على طريقة السائحين في أسوان عندما يحاولون أن يتراقصوا على الأنغام الشرقية ليجاروا سكان البلدة، فيصدروا حركات بهلوانية لا تتماشى مع الإيقاع.

وقف رامي وزهرة إلى جانب مي ويوسف وسط الحديقة يتحدثون مع المصريين الآخرين ممن شاركوا في التظاهرات أمام السفارة. اختلست مي النظرات إلى علي، فوجدته منهمكًا في أفكاره. خلال

الأيام الماضية لم يبرح علي شقته إلا قليلا. انقطع عن جيرانه تمامًا. كان يقضي الليل كله مستيقظًا. أحيانًا يتجول في الشوارع دون جهة محددة. أحيانًا أخري يذهب إلى كافيه، ويتعمد أن يكون بعيدًا عن حيَّه حتى لا يقابل جيرانه ويسألونه عن الأحوال في مصر. كان يقضي معظم النهار نائمًا، ويستيقظ من وقت لآخر ليرى ما حدث، أو يتصل بأصدقائه في الميدان، ثم يذهب ليقضي وقتًا مع عمه إبراهيم ويلبي طلباته أو يقابل رامي والباقين أمام السفارة.لا ينتظر هناك كثيرًا مثلهم ولا يتكلم مع أحد من المصريين هناك. أحيانًا أخرى كان يحضر اجتماعات لجنة التضامن مع الثورة المصرية. بعض أعضائها تمكنوا من الذهاب إلى القاهرة والعودة مرة أخرى إلى باريس ليحكوا ما شاهدوه في الميدان. لم يحاول علي أن يرجع إلى مصر بعد أن فُتحت المطارات مرة أخرى، لأنه بعد جمعة الغضب علم أن الموضوع محسوم، وأن وجوده لن يفرق عن عدمه. واستسلم لمشاعر غضب مكبوت عندما رأى حلم عمره يمر من أمامه من مسافة بعيدة وهو يشاهده عاجزًا مكتوف اليدين. حاول أن يقنع نفسه أن ما يفعله من خلال الوقفات أمام السفارة واجتماعات اللجنة كافٍ ومؤثر، ولكنه بداخله كان على قناعة تامة أن مكانه هناك وسط الذين يفتحون صدورهم للرصاص.

اقتربت منه مي "إيه مش ناوي تيجي معانا والّا إيه؟".

"آجي أعمل إيه؟".

"تحتفل".

لم يجبها علي، وأدار وجهه في الاتجاه الآخر، فعلمت بتأثره وأحجمت عن الكلام لوهلة، ثم سألته "ناوي تعمل إيه دلوقت؟".

أجابها بنفس النبرة الباردة وهو ينظر في الاتجاه الآخر "حجزت طيارة. مسافر بعد بكره".

ربتت عليه مي "طيب ممكن تاخد بالك على نفسك. ما فيش حاجة في إيدك تعملها".

هز رأسه وأدار وجهه لينظر إليها لأول مرة "الناس بتحتفل مش عارف على إيه. لكن أنا عارف اللي مستنيني هناك".

"وحتعمل إيه في شقتك هنا؟".

"حارجع تاني بعد ما أعرف راسي من رجليّ هناك. أقفل الدنيا وألمّ عزالي". ابتسم ابتسامة باهتة لأول مرة وهو يقول الجملة الأخيرة.

"طيب ممكن تيجي النهارده عندنا في البيت. عاملين حفلة. حيكون فيه توانسة ومصريين وحنحتفل. معلهش اعصر ليمونة على نفسك وتعالى احتفل معانا". وبعد لحظات من الصمت، أضافت نصف ساخرة "قدرك كده! حتعمل إيه يعني!".

الفصل الثاني عشر

هناك من يرفضون مغادرة الحفلات حتى تنتهي آملين أن يتجاوزوا السعادة التي بلغوها. أن يتعرفوا إلى شخص جديد يغير حياتهم، أو يقضون ليلة معه تبعثهم إلى السماء السابعة وتدغدغ أحلامهم. وعندما تنتهي الحفلة ولا يجدون ما يبحثون عنه، يذهبون إلى مكان آخر حيث آخرون يبحثون عن نفس الشيء، وهناك من لا يحضر الحفلة لأنه انشغل بشيء أو سرقه الوقت ويذهب إلى ما بعد الحفلة. يجتمعون كلهم ويبدأون في سرد القصص الخالية من أي معانٍ وتعاطي مخدرات أكثر من أجل بلوغ نشوة أكبر، حتى تلوح تباشير الصباح، بعد أن تبدو الساعات كدقائق، فتنكشف الوجوه على حقيقتها وتسيح المساحيق فيظهر الحزن الدفين، ويموت الكلام بعد أن ينتاب الحضور الخوف من هذا اليوم الجديد الذي يحمل في طياته وعودًا وأحلامًا لا تتضمن أحلام الأمس.

مزيج من هذا الإحساس وإحساس أهل الكهف انتاب علي منذ أن خرج من الطائرة، وشمَّ رائحة التراب لأول مرة منذ ما يقرب العام. وقف أمام حزام الحقائب ينتظر حقيبته، ومر من جانبه أحد العمال فابتسم دون أن يعرض خدماته بالطريقة اللزجة المعتادة للحصول على البقشيش. طرأ إلى علي "أن هذا الرجل اكتسب أخيرًا حريته وهو يتعامل على هذا الأساس بندية".

ضابط الجوازات أيضًا فحص جوازه وأعطاه له بابتسامة مؤدبة. كان يبدو أكثر سماحة وأصغر عمرًا من الضباط التقليديين.

طريق صلاح سالم إلى الزمالك كان شاغرًا تقريبًا ما عدا من بعض السيارات التي لم تحاول أن تزاحم التاكسي الذي استقله. سائق الأجرة المتوسط العمر كان على درجة عالية من المرح، وحكى له بفخر أنه كان في الميدان منذ بداية فبراير وحتى احتفالات التنحي منذ يومين، وانطلقت الأغاني الوطنية من الراديو، إلا أنه تذكر بعد ذلك أن أغاني أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام لم تكن حاضرة فانتابه شك عابر.

"هل هذا نفس البلد الذي تركته منذ ما يقرب العام؟ كأنني كنت في سبات عميق كأهل الكهف لمدة قرون وليس سنوات... لم يتبق من القصة إلا أن أجد أن العملة تغيرت وأنهم ضربوا عملة جديدة وأن ما تبقى معي من جنيهات أصبح عملة أثرية، حتى ينكشف أمري، ويقتادوني إلى كهفي مرة أخرى".

على جانبي الطريق لمح الدبابات مرصوصة لتخرجه من أحلامه الخزعبلية وترجعه إلى واقع اللحظة. فتح نافذة السيارة وتنفس نسيم المساء ملء رئتيه. نظر يمينًا ويسارًا طوال الطريق فلم ير شرطيًا واحدًا.

بعد أن أصر أن يقوده السائق إلى أقرب مكان للميدان قبل منزله، استوقفته مسيرة صغيرة فوق كوبري قصر النيل. أغلب من فيها شباب صغير بسيط المظهر. بدت عليهم فرحة غامرة وطرقوا على السيارة وعندما سألهم علي بيده وهو يبتسم "فيه إيه؟" رددوا وهم يشيرون إلى السماء "ارفع راسك فوق" وبعد أن رفع علي رأسه لفوق رآهم يفردون أذرعهم إلى الأمام في نفس الوقت وهتفوا "إنت مصري"، فهتف معهم هو وسائق التاكسي بحماسة، فابتسموا في وجهه وأكملوا طريقهم.

فتح باب شقته وأضاء النور، فانهمر سيل من الذكريات وكأنها كانت محجوزة وراء الباب الموصد. ارتمى على الأريكة في غرفة المعيشة بضوئها الخافت، وقبل أن يستسلم للأفكار السوداء القديمة التي جعلته أسير هذا المنزل لأعوام ثم هاربًا في مكان بعيد، اتصل بأحمد رأفت ليعرف موعد اجتماع الحركة القادم.

أحمد رأفت كان قد اتصل به بعد جمعة الغضب بيومين وعودة

الاتصالات وبجانبه سليم ليبلغاه أنهم مع آخرين، كونوا حركة للتغيير من الميدان وسمُّوها "ثورة النيل". تكونت الحركة منهم وأمينة وشخص يدعى سيد في البداية، ثم توسعت حتى وصل عدد أعضائها إلى أكثر من مائة ممن شاركوا في الثمانية عشر يومًا، يتقاسمون نفس الحلم؛ إقامة دولة مدنية مستقلة. انضم معهم علي منذ البداية وأخذ ينسق بين الحركة عن طريق سليم وأحمد رأفت، واللجنة في باريس ويترجم بياناتهم للفرنسية والإنجليزية لينشرها في وسائل الإعلام في الخارج.

اتصل برأفت وسليم، واتفق معهما أن يتقابلوا مساء اليوم التالي في منزل أحد أعضاء الحركة في المهندسين، وبعد أن فرغ من المكالمة اتصل بأحمد كمال فوجد صوته هادئًا أكثر من العادة. اختصرا الحديث وآثرا أن يمر علي عليه في مكتبه ظهر اليوم التالي... اتصل أيضا بخادمه العجوز سرحان ليطلب منه أن يحضر في اليوم التالي. اغتبط الرجل لعودة علي. لمدة أكثر من عشرين سنة، كان علي يراه أكثر مما يرى أي فرد من عائلته، وتولى الرجل كل شيء يتعلق به وكأنه أمه.

***

استيقظ علي في اليوم التالي في حجرته، ونظر حوله فتعجب من مساحة الغرفة التي تفوق حجم شقته في باريس. كيف كان

يعيش هنا سنوات وحده؟ دق جرس الباب، فقام متثاقلا وعبر الجزء الداخلي من شقته إلى المدخل. فتح الباب، فوجد سرحان بابتسامته العريضة المعتادة وكأن شيئًا لم يتغير "ألف حمد للـه على السلامة يا فندم" كاد علي يحتضنه وصافحه بحرارة رغم أنه كان نصف مستيقظ "إزيك يا سرحان... وحشتني يا راجل".

"وأنت يا أستاذ علي".

اتجه سرحان إلى المطبخ ورجع إليه في غرفة المعيشة بعد دقيقتين يهرش في رأسه "باقول لحضرتك إيه. ما فيش حاجة في التلاجة. أنزل أجيبلك حاجة من تحت؟ مربى وعيش وعصير؟".

قال له علي وهو نصف مغمض "آه انزل طبعًا" ثم تذكر أنه لم تعد معه نقود، فقال له ليحفظ ماء وجهه "آه.. نسيت.. أنا خلصت فلوسي المصري اللي معايا، ولسه ما غيرتش".

ابتسم الرجل متفهمًا "لا حضرتك ما تشيلش همّ. حارجعلك على طول".

خرج سرحان وأغلق الباب وراءه وكان معتادًا على إفلاس علي المتكرر، وكان علي يقوم بتعويضه بسخاء عندما تتحسَّن حالته.

***

لم يتبين علي وجه أبيه كاملا رغم تسلل شعاع رفيع من الضوء من خلف ستائر المكتب نصف المغلقة. أبقى أحمد كمال الأنوار مطفأة. جلس علي أمام المكتب لا يدري بماذا يبدأ الحديث. لم يكن الأب كثير الكلام في الظروف الطبيعية، أما الآن فبدا وكأنه يريد أن يفصح عن شيء ولكنه لا يمتلك القوة لفعل ذلك.

"أخبار عمّك إيه؟ الجلسات جايبة نتيجة؟" سأله أحمد كمال وهو يعلم الإجابة، وكعادته حاول تجنب التحدث في الموضوع الأساسي قدر المستطاع.

"ابتدى يتأقلم على العيشة في باريس. بس طبعًا زهقان دلوقت لوحده بعد ما سافرت".

"وأنت ناوي ترجع له؟"، سأله الأب بنبرة غلبت عليها اللا مبالاة.

"لازم أرجع ألِمّ حاجتي وأقفل الشقة وأسلمها للمالك".

في الظروف الطبيعية كان رد الفعل الطبيعي لأحمد كمال سيكون بسؤال عليّ عما ينوي عمله عندما يرجع إلى مصر، أما الآن فكان منفصلا تمامًا عن كل شيء. يعيش الإعصار ويعجز حتى عن التفكير بشكل منطقي كما فعل طيلة حياته.

تجرأ علي وسأله "وأنت ناوي تعمل إيه؟".

رفع الرجل يديه ومط شفتيه وهو يهز رأسه النحيل لفوق "حاعمل إيه يعني؟ العمل عمل ربنا".

"فيه مشاكل عليك؟ حد جه كلمك؟".

هز أحمد كمال رأسه بالنفي وأجابه "ورقي كله مظبوط بالورقة والقلم... أنت عارف".

هز علي رأسه مصدقًا على كلام أبيه "أيوه عارف طبعًا".

"لكن ده مش حيمنع إنهم حيجولي وقريب كمان".

"فيه أي حاجة ممكن أعملها؟".

"دعواتك".

دعواتي، أهذا كل ما يريد مني؟ من ابنه؟ أصابت الكلمة خيبة أمل لدى علي. اعتقد أن أباه سيوكِّله بأمر خطير بعد أن استدعاه خلال الثمانية عشر يومًا واكتفى الرجل بمطالبته بالدعاء له... من الممكن أن يطالب أي أحد بالدعاء له، ولكنني ابنه وهذا هو كل ما يريده مني؟ الدعاء له. ما زال على قناعته أنني غير صالح لمساندته، أو هو ليست لديه رغبة في أن يقحمني في أعماله.

أجابه "أكيد" ثم واقفًا بغتة ".. طيب حاستأذنك دلوقت".

سأله الأب بنفس البرود "إيه رايح على فين؟".

"عندي اجتماع".

نظر إليه أحمد كمال بفضول أكثر من الأول "اجتماع إيه؟".

أمعن علي النظر في عيني أبيه. إنهما تذكرانه بعينيه. يفهمان بعضهما دون أن يتكلما كثيرًا، وأجابه "اجتماع الحركة" بنصف ابتسامة، ثم حيّاه بيده من مسافة واستدار نحو باب الخروج.

***

برودة ليل شهر فبراير لم تمنع الجميع أن يتخذوا مجلسًا في حديقة المنزل. اجتمع أعضاء الحركة من أعمار وخلفيات مختلفة في منزل الدكتور عمرو صالح بناء على دعوته. عبر علي الباب الزجاجي الزلاج من الصالون للحديقة وتقدم نحو الجمع. كانوا قد اتخذوا أماكنهم للتو. لمحه سليم، فابتسم ابتسامة عريضة وأشار إلى كرسي شاغر. جلس علي محاولا عدم جذب الانتباه إليه قدر الإمكان. بعض الوجوه بدت له مألوفة على أضواء الفوانيس الكهربائية الموضوعة في أركان الحديقة الصغيرة. تلفت بعضهم إليه. معظمهم كانوا منشغلين بالكلمة التي أوشك الدكتور عمرو أن يبدأها.

وقف رجل في الخمسينيات من عمره، أصلع الرأس وبسيط الجثمان، يرتدي نظارة طبيَّة، وتكلم بوقار غير مصطنع "أحب

الأول أرحب بيكم كلكم في أول اجتماع لينا بره الميدان. إحنا اتفقنا النهارده حانتناقش في أولوياتنا خلال المرحلة القادمة. كل واحد حيطرح رؤيته الخاصة، بس أرجوكم ما حدش يقاطع كلام التاني وكل واحد ما يطوّلش في كلمته علشان يدي الفرصة للباقيين يشاركوا". توقف عن الكلام وهو يتفقد الحضور ثم أضاف "الأول حنلف على الجميع. كل واحد يِعَرّف نفسه باختصار لو أمكن".

عرف الناس بعضهم، كلٌ باسمه وبداية نشاطه الثوري. سليم رياض، بداية مشاركتي الفاعلة كانت يوم 25 يناير... أحمد رأفت، صحفي وشاركت في أحداث المحلة سنة 2008. وأمينة، وهكذا، حتى جاء دور علي فأحس أنهم كلهم يتفقدونه وتصبب عرقًا وهو يقول "علي كمال.. كنت في لجنة التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية، وشاركت في تكوين لجنة للتضامن مع الثورة من فرنسا ولسه راجع". خيل له أن بعضهم نظر إليه بريبة ولكنه أقنع نفسه أن هذه مجرد أوهام.

بدأ الحضور في طرح تصوراتهم للمرحلة الانتقالية. أغلب من تحدثوا طالبوا بضرورة إقالة حكومة شفيق كأول مطلب، آخرون تحدثوا عن ضرورة تكوين مجلس رئاسي مدني. تكلم شخص يدعى سيد جالس إلى جوار سليم فطالب بضرورة محاكمة مبارك وكل المقربين منه محاكمات ثورية فورًا قبل أي شيء.

غالب علي انطباعه العابر وطلب الكلمة "أنا شايف إن أهم حاجة دلوقت تكوين مجلس رئاسي مدني توافقي، وبالتوازي جمعية تأسيسية للبدء في وضع دستور جديد، والشروع فورًا في الضغط من أجل إصلاحات هيكلية. مش عايزين ننجرف في معارك جانبية".

نظر إليه شاب بلحية سوداء خفيفة يجلس إلى جانب صاحب المنزل بشيء من الريبة وتدخل "إزاي بقى الكلام ده؟ لازم محاكمة مبارك أولا. فيه ألف واحد تقريبًا دمهم ما بردش لسه. ولازم إقالة الراجل بتاعه فورًا".

لم تعجب علي نبرة الشاب فتبادل النظرات مع سليم ورأفت وفضل أن لا يناقشه أكثر من ذلك، إلا أن المناقشات طالت واحتدم الخلاف في بعض الأحيان فخرج هذا الشاب عن هدوئه في مواجهة آخرين أكثر من مرة، وتدخل الدكتور عمرو أكثر من مرة من أجل الوصول إلى حلول، إلى أن انتهى الاجتماع دون الوصول إلى شيء سوى ضرورة الرجوع إلى الميدان للإصرار على رحيل شفيق.

فور الانتهاء من الاجتماع ووقوف الجميع، سارع رأفت وسليم إلى علي واحتضناه. لم ير علي سليم منذ أكثر من عشر سنوات، ولاحظ أن الشيب قد خط رأسه، وكذلك رأفت. ظهرا له أكبر من عمرهما وأكبر منه هو أيضًا.

سأله ساخرًا "إيه يا ريفو؟ أسيبك أقل من سنة وأرجع ألاقيك شعرك بقى أبيض كده؟".

وضع سليم يده على كتفه وأجابه بنفس نبرة السخرية "أنت مش فاهم.. ريفو شعره ابيضّ الكام يوم اللي فاتوا.. بعد ما مسكوه وبعد يوم 28 يناير". ثم بعد لحظة سكوت "وأنا برضه. كان فيه شوية شعر أبيض بعد ما رجعت من لندن، لكن الكام يوم اللي فاتوا خلُّوا الواحد عجز بسرعة". وبعد تأمل لعلي "لكن أنت زي ما أنت يا علي" - ثم وهو يبتسم - "بس ما فيش شعر. ده كل ما في الموضوع".

جاءت من أقصى الحديقة، فتاة سمراء على قدر كبير من الحيوية، فجذبها سليم من يدها "أعرّفك على أمينة" ثم موجهًا كلامه إليها "علي كمال".

ابتسمت الفتاة فبدت أجمل بعض الشيء وهي تحيي علي "أيوه طبعًا سليم حكى لي كتير عنك وكنت بابقى جنبه وأنت بتكلمه وإحنا في الميدان".

بادلها علي التحية، وتدخل أحمد رأفت "باقول لكم إيه. ياللا بينا من هنا بدل ما نلاقي حد يدخلنا في نقاشات وحوارات من أول وجديد. ما تيجو نطلع على وسط البلد، نلف شوية وبعدين ممكن نروح نقعد عندي في البيت".

***

استدعت أجواء وسط المدينة بالقاهرة في بداية شتاء 2011، ما تخيله علي مما كان يحدث مكان كنيسة سانت لامبير في شتاء 1789. الفتيات بصحبة شباب بتسريحات شعر جديدة لم يتجاوزوا العشرين من عمرهم تمشوا متشابكي الأيدي في شارع طلعت حرب. تعالت الضحكات في كل مكان وانتشرت الدراجات البخارية في جميع الاتجاهات، ووقف بعض الشباب الصغير ينظمون المرور بأنفسهم. شاهد علي كل هذا وغمرته حالة من الارتياح وأنه ليس غريبًا على المكان. هؤلاء بالبنطلونات الضيقة التي يرتدونها وطريقة حديثهم السريعة. هؤلاء الذين لا يخضعون الآن لأي سلطة. ما تصوره خلال سنوات عن شكل الثوار اليعقوبيين وقت الثورة الفرنسية الأولى يتجسد أمامه الآن. إنه في مناخه الطبيعي أخيرًا. كم كان يحتقر الأدب المصطنع الذي كان الناس الذين يجاورهم يحاولون التحلي به. كم كان لا يرى لنفسه مكانًا وسط هذه الهيراركية التي أصروا أن يفرضوها. كان يعرف أن كل هذا مصيره إلى زوال، وكان ينتظر في قلق. الآن وقد انكشفت الحواجز وبدأ الإعصار، لم يعد بينه وبين الواقع أي ستائر سخيفة.

توقف رأفت عند قهوة الندوة الثقافية في باب اللوق "تيجي نقعد هنا يا جماعة؟".

"ياه بقالي كتير قوى ما أعدتش هنا... من أيام مظاهرات حرب العراق".

أجابته أمينة "طيب يالا تعالى استرجع ذكرياتك".

جلسوا على رصيف القهوة الضيق متلاصقين، سليم وأحمد رأفت وعلي وأمينة. تقدم الليل لم يمنع ازدحام المكان. اشتبك الجميع في أحاديث سياسية وتلاشت الحدود بين التجمعات الصغيرة المتجاورة.

"وبعدين إيه اللي حيحصل دلوقت؟" وجه علي السؤال لسليم الذي كان يدخن في هدوء وهو يسرح في اتجاه المطعم المقابل.

استدار سليم تجاهه بنفس الهدوء وأجابه "المجلس العسكري اللي مبارك سابهولنا قبل ما يرحل".

هز أحمد رأفت رأسه موافقًا "لازم يرحل هوّه كمان.. هي دي الخناقة..." وقبل أن يكمل جملته، تنامى إلى مسامعهم من اتجاه باب اللوق أصوات هتافات عالية. تبادلوا النظرات متسائلين وقام علي في اتجاه قهوة الحرية دون أن ينبس بكلمة، فوجد مسيرة من بضعة أفراد يهتفون "عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية". نفس الشخص الذي رآه في اجتماع حركة ثوار النيل منذ قليل، كان يقود الهتافات في حماسة بصوت جهوري. تبادل النظرات مع علي وهو يبتسم في زهو. أشار له علي، فانفصل عن المسيرة الصغيرة ولحق به وبجانبه فتاة نحيفة غير متساوية الأسنان ترتدي حجاب فوشيا، ومدا يديهما في ترحاب "إزيك يا أستاذ؟ شفت الباقيين هنا؟" ثم مستدركًا وبكل أهمية "آه.. أعرّفك على رباب. زميلتنا في لجان الدفاع عن الثورة".

كانت الفتاة تمسك بمكبر للصوت في يدها وظهرت عليها حماسة واندفاع جعلتاها تبدو لأول وهلة على قدر قليل من التركيز فيما يحدث حولها.

أجابه علي بسعادة لم يستطع أن يخفيها وهو يبدل النظر بينهما وكأنهما خرجا لتوّهما من لوحة زيتية دبت فيها الحياة فجأة أمامه وهو يتأملها وحيدًا في متحف "قاعدين على الندوة.. ياللا تعالوا".

تبعه الاثنان وتقدما في صمت حتى بلغا الجمع، فلم يتبادلوا حتى التحية وسارع سيد "باقول إيه يا إخواننا. الميدان بدأ يفضى وهو ده اللي هما عايزينه... عايزين الميدان يفضى وما يفضلش غير شوية الشباب الحلو اللي بينضف ويدهن الرصيف". ثم وهو يرفع ذراعه لفوق "لسه وقت القعاد ما جاش. دم إيزي وباقي الشهدا ما بردش".

أجابه سليم مهدئًا "معلهش يا بو السيد. خُد نَفَسَك دلوقت واستريح. مش عايزين نتحرك فردي. لازم يحصل حشد من أوّل وجديد على أهداف واضحة".

تدخلت الفتاة رباب باندفاعها المتوقع "مش عايزين نديّلهم فرصة يبلفونا بشوية الكلام المتزوّق بتوع التعديلات الدستورية".

وقفت أمينة كمن يريد أن يقوم بعمل إعلان مهم "إحنا بقالنا أكتر من ستين سنة بنتحكم بشكل عشوائي. محتاجين دلوقت نبني حاجة

مختلفة... ده دورنا". - ثم بغبطة جعلتها تُعَلي من نبرة صوتها أكثر لتُسمع باقي رواد القهوة "البلد بتاعتنا أخيرًا. فاهمين يعني إيه الكلام ده؟ معناه إن بعد النهارده ما فيش حد هيتاخد تحرِّي وهو مروح بيته من غير سبب.... معناه برضه إن إحنا دورنا نبني البديل وبسرعة علشان ما يرجعوش تاني".

رفع سليم رأسه ونظر إلى أمينة بإعجاب كما لم ينظر إليها من قبل وأحست هي بذلك، فاكتسى وجهها بحمرة لم يلحظها أحد، ولقي كلامها استحسانًا عند سيد ورباب فسحبا كرسيين وجلسا في هدوء. نظر أحمد رأفت إلى علي فوجده شاردًا وعلى وجهه ابتسامة تكاد تلامس البلاهة، فابتسم بدوره وحدق فيه إلى أن تنبه علي فصاح فيه مازحًا "عايز إيه يا ريفو؟ مالك مِبحلق فيّ كده ليه؟".

انطلق أحمد رأفت ضاحكًا "هاهاها.. ولا حاجة باتأمل فيك يا عم... فيه إيه؟". لم يفت سليم أي مما يحدث رغم انشغاله بما قالت صديقته، ونظر إلى صديقيه بابتسامة رضا، ولكنه قرر أن يستكمل ما بدأته أمينة بطريقته المنظمة وكأنه يقرأ تقريرًا ماليًا مهمًا ويحلله "لازم نحدد إحنا عايزين إيه الأول. دولة مدنية... صح؟" وهو يدير رأسه بين الجالسين. فهز جميعهم رأسهم بالإيجاب. سيد ورباب هزَّا بالإيجاب بشيء من التردد فقط ليجاريا الجمع "طيب لو دولة مدنية يبقى لازم نِوْضع أسُس واضحة وصريحة ليها".

قاطعه علي "لازم فصل للسلطات أول حاجة".

وتدخل رأفت بدوره "ولازم مواطنة أول حاجة.. الكل متساويون".

"ودولة الرفاه.... يعني الناس تعرف تتعالج بحق وحقيقي مش تتشاهد وهي داخلة أي مستشفى حكومي" تدخلت أمينة، ثم ضاحكة "زي السويد والدنمارك كده".

رفعت رباب عينيها إلي أمينة وضحكت لأول مرة، وبدت ضحكتها لعلي تحمل قدرًا من الدلال، لم يتبينه عندما رآها قادمة مع سيد في البداية.

انطلق علي "يبقى لازم هيكل للكلام ده وإطار واضح. لازم توافق من كل القوى السياسية على الأرض، ولازم إعادة هيكلة لمؤسسات الدولة. محتاجين نشتغل على بديل واضح للناس".

"طيب نبتدي بأنهي مؤسسة؟" تساءل سليم وكأنه يفكر بصوت عالٍ.

مر ريفو بعينيه على جميع الحاضرين بطريقته المعتادة وهو يهز يديه الصغيرتين "وهوّه فيه غيرها؟" وبيقين "الداخلية طبعًا".

خلال الأيام اللاحقة، لم يُفِتْ علي يومًا لم يذهب فيه إلى الميدان. يمر وسط الناس ويحاول أن يستشف أي مما فاته من سحر الـ18 يومًا. وجد نفسه يتقرب أكثر من سيد ورباب وأصدقائهما من لجان

الدفاع عن الثورة. الآخرون انزووا تدريجيًا بين الحوائط المغلقة. لم يمنعه ذلك من حضور الاجتماعات بانتظام مع سليم ورأفت وباقي أعضاء ثورة النيل. حاول أن يظن خيرًا في البداية بالمجلس العسكري، ولكن كلام عمه إبراهيم بقي يصدر صدى في رأسه. أكثر من ستين عامًا من حكم الجيش. لن يتركوها هكذا. سيكون هناك دم أكثر.

كل شيء في القاهرة بقي معلقًا حتى إشعار آخر. انشغل الجميع بمعركة الاستفتاء على التعديلات الدستورية الوهمية التي قذف بها المجلس العسكري، وتأكدوا أن تكون الإخوان لهم أغلبية داخل لجنة وضع التعديلات، واعتقد الثوار أن لهم كلمة بعد سنوات من الصمت الاضطراري، وتكونت عشرات الائتلافات الشبابية. كلٌّ يعتقد أنه أقدر على القيادة وعلى التوصل للحل الأمثل، وتشاجر الجميع خلال اجتماعات الغرف المغلقة، وبدأت نظرة الشارع المصري تتغير بالتدريج تجاه طُلاب التغيير، وتبدل فخر البداية بريبة من هؤلاء الشباب ومن أغراضهم، وبدأت أجهزة النظام في نسج روايات وقصص عن خيانات وعمالات بعناية فائقة. روّجت وسائل الإعلام لفكرة الاستقرار وضرورة أن تدور عجلة الإنتاج، وروَّجت أيضا أن طُلاب التغيير هم من يقفون في وجه هذا الاستقرار وفي وجه استئناف عجلة التنمية. ثم انقض الجيش أول مرة على ميدان التحرير يوم 25 فبراير، وبعدها حدث ما لم يكن

يتوقعه أحد ممكنًا في يوم من الأيام. اقتحم المتظاهرون قلاع أمن الدولة. واحدة تلو الأخرى سقطت في بدايات مارس.

شاهد علي يوم 5 مارس قنوات التليفزيون المختلفة تنقل سقوط مقار أمن الدولة في يد المتظاهرين. مقر مدينة 6 أكتوبر ومدينة نصر. وبقيت قلعة لاظوغلي الرهيبة في وسط المدينة. لم يقترب منها أحد.

***

تقدم علي ببطء من ميدان لاظوغلي في اتجاه المبنى الرهيب يتحدى الظلام الذي خيم على المكان. تناثرت أشباح الناس في أماكن متفرقة من مدخل الممر الرهيب. كاد يسمع دقات قلبه وهو يسأل رجلا ملتحيًا يقف على الحاجز المؤدي إلى مقر أمن الدولة "هوّه إيه اللي حصل؟ فيه حد دخل والّا لسه؟".

لاحظ الرجل توتر علي فأجابه بنبرة مطمئنة "أيوه فيه ناس دخلت لكن الجيش واقف ومش عايز يِدخّل حد تاني..... اتفضل أدخل بس وريني بطاقتك الأول".

تذكر علي أنه لا يحمل بطاقة فأخرج رخصة قيادة مهترئة من جيب بنطلونه وسأل الرجل "ينفع الرخصة؟ نسيت بطاقتي".

ابتسم إليه الرجل الأربعيني ونظر إلى الرخصة رغم أن الظلام

كان لا يسمح لأحد أن يرى أبعد من يده وقال له "اتفضل.. هما حاولوا يهجموا علينا من شوية لكن رجعناهم... اتفضل".

"مين دول؟".

"ناس من السيدة زينب ومن الحتت المجاورة هجموا من شوية على المتظاهرين لكن الحمد لله صَدّيناهم وما فيش إصابات".

هز علي رأسه وتقدم دون أن يفكر كثيرًا. بدت عليه آثار القلق ونظر حوله فرأى بعد أن تعودت عينيه على الظلام بعض الوجوه المألوفة من الصحفيين وممن رآهم في الميدان خلال الأيام السابقة.

سمع يومها أن مقر أمن دولة لاظوغلي علي وشك أن يُقتحم، فقرر أن يذهب دون أن يُخطر أحدًا. ظن أنه سيشهد سقوط الباستيل. يريد أن يكون وحده حين تسقط. ربما يعوضه ذلك أنه كان وحده بعيدًا عندما كانوا كلهم يخوضون المعركة وهو عاجز عن أن يكون فيها. لا أحد يتعرف إليه هنا في الظلام. سيتقدم وحده حتى يفتح الجيش لهم الطريق ثم يدخل إلى الزنازين المغلقة على ساكنيها منذ عشرات السنوات، ويكشف الأسرار ويكشف السر الكبير الذي أثر في حياته خلال السنوات السابقة. ربما يجد الملف الخاص به ويقرأه بنفسه.

تعوَّدت عينا علي على الظلام كلية فرأى بوضوح دبابتين تقفان خلف أسلاك شائكة. تراص أفراد من الشرطة العسكرية بأسلحتهم الآلية إلى جانب الدبابات ووقف فوق كل دبابة ضابط جيش ممسك بمسدسه. كلهم في وضع استعداد. على الجانب الآخر وقف هو وسط بضع مئات من المتظاهرين. بدأ الخط الأمامي في محاولات لدفع السلوك الشائكة، فرفع أحد الضباط مسدسه إلى السماء وتبين علي رغم الحلكة نظرات خوف منبعثة من عينيه. تلك النظرة التي تنبئ عامة بأن صاحبها على وشك أن يقوم بفعل عنيف. وارتفعت هتافات "سلمية... سلمية". فتأكد علي أنه على وشك أن يشهد شيئًا رهيبًا.

انهمك شاب بسيطان المظهر تغطي وجهيهما لحية خفيفة مستفة، في حديث جانبه.

قال أولهما، الأكبر سنًّا "مش بس المستندات. المجموعة الأولى اللي عرفت تدخل جوه، لما طِلعوا أكِّدوا إنهم سمعوا أصوات استغاثات من تحت الأرض". ثم موضحا أكثر "من الزنازين اللي تحت الأرض طبعا.. وصوت صريخ.. حريم بيصَرَّخوا".

نظر الثاني إلى علي - شاب أميل إلى القصر من زميله وأكثر حيوية، تغطي جبينه بعض خصلات شعر أجعد. ذكّر علي بأحمد رأفت بعض الشيء - وانطلق "فيه عائلات معتقلين موجودين هنا

بيأكدوا إن عيالهم موجودين تحت". ثم مضيفًا وكأنه يشرح لعلي "مختفيين بقالهم شهور وفيه بقالهم سنين ما شافوهمش".

سألهما علي "فيه حد عرف يطلع بأى ملفات زي الملفات اللي اتاخدت من المقرات التانية الكام يوم اللي فاتوا؟".

أجابه الشاب الأكبر سنًّا بتحفظ أكثر من الثاني "شوية قليّلين جدًا وبعدين الجيش اتدخل. مش حيتخلوا عن المستندات الموجودة هنا".

أضاف الشاب الأصغر سنًّا بشيء من المرح "طبعًا. ملفاتنا كلنا هنا".

وافقهما علي وتساءل متشككًا (ليظهر لهما أنه ليس غريبًا عما يحدث) "تفتكروا المستندات والملفات دي ما اتنقلتش في مكان تاني من بدري أو مش محفوظة نسخ إلكترونية؟".

أكد الشاب الأكبر سنًا على كلام علي "عندك حق. الناس اللي وصلوا بدري. شافوا لواري محمّلة أكوام ورق. بيقولوا احتمال الورق ده يتحرق في مكان بعيد في الصحرا".

تذكر علي قبل أن يسافر باريس كيف أنه كان يحس دائمًا أنه مُراقب. منذ عشر سنوات قبل أن يلتحق للعمل مع أبيه كان يعمل في وكالة أنباء عالمية، وكلفوه أن يذهب ليعمل موضوعًا عن تأثر

أطفال المدارس في فلسطين بالانتفاضة الثانية. سافر إلى القدس ومكث هناك أسبوعين. كانت الانتفاضة في أوْجها. تعرف إلى سكان المدينة وعاش بينهم، ورأى الاحتلال بعينيه ورأى سكان المدينة وهم يقفون من الفجر أمام وزارة الداخلية ليحصلوا على تجديد الهوية، ورأى أيضًا الجنود الإسرائيليين ينقضون عليهم بالعصيان ليفرقوهم ويمنعوهم من الحصول على أدنى حقوقهم.. حق التنقل في أراضيهم، وتمشَّى بين جدران المدينة العتيقة في طريق الآلام، وداخل أروقة المسجد الأقصى. قبل أن يغادر ذهب إلى مقر أمن الدولة في لاظوغلي ليبلغهم بسفره بناء على طلب مديرينه في العمل، ولم يمنعهم هذا عندما رجع أن يرسلوا إلى منزله مخبرًا يستدعيه مرة أخرى، ولم يمنعهم أن يذهبوا إلى مقر عمله ويتحروا عنه. كانت الحجة هي اشتباههم أن له أصولاً فلسطينية، أما الداعي فكان مشاركته في مظاهرات التضامن مع الانتفاضة في بداية الألفينيات. ولم يشفع له إلا عندما كتب على ورقة أسماء أفراد عائلته في المائة عام السابقة (بناء على طلب ضابط مباحث أمام مديره في العمل).

أفاق من ذكرياته على صوت صياح من جانبي السلك الشائك متبوعٍ بأصوات طلقات متعددة وعالية بدت في ممر لاظوغلي الضيقٍ وكأنها على وشك أن تخترق جسده في أي لحظة. نظر سريعًا فوجد الضابط فوق الدبابة يطلق الرصاص من مسدسه في

الهواء في غضب، وحوله الجنود يفعلون نفس الشيء من بنادقهم الآلية. اختفى الصف الأول وتراجع الجميع إلى الخلف، فسادت حالة من الهرج. وفجأة انتشر جنود الشرطة العسكرية وسط المتظاهرين بعصيانهم. تراجع علي إلى الوراء وجرى وسط صوت الطلقات المتضاعفة في اتجاه الحاجز الأول، حيث كانت هناك اللجنة الشعبية التي تقوم بفحص إثباتات الشخصية منذ قليل التي لم يعد لها وجود.

انطلق إلى ميدان لاظوغلي، ووجد من خلف التمثال الشهير للاظوغلي باشا كرات من النار تُقذف في اتجاههم من ناحية حى السيدة زينب. استطاع أن يُميز مجموعات تتقدم ناحيتهم وأدوات حادة وكورًا حديدية تلمع في الهواء فاتجه يمينًا في شارع نوبار وهو يجري بكل قوته وسط آخرين انطلقوا مثله إلى أن بلغوا شارع محمد محمود بين مبنيي الجامعة الأمريكية. تعالت صيحات:

"جايين ورانا... عملوا علينا كماشة".

تصبب عرقًا وهو يبلغ ميدان التحرير وشم رائحة الخوف ممزوجة بالأدرينالين لأول مرة منذ زمن بعيد. ربما لم يكن يدري قبل ذلك أن للخوف كما للأدرينالين رائحة.

وصلت أخبار الهجوم إلى الميدان فتعالت تحذيرات من مكبرات للصوت من جانب منصة مرفوعة عند مدخل محمد محمود. لم يلتفت علي وواصل طريقه وهو في حالة من عدم التصديق.

ألم تكن المقرات كلها مفتوحة حتى الأمس بمباركة الجيش؟

قفز في أول تاكسي متجه إلى الزمالك. وقرر في هذه اللحظة أن يتجه إلى منزل أبيه أحمد كمال لعله يجد عنده تفسيرًا لما يحدث.

جلس أحمد كمال في غرفة معيشة منزله، مستلقيًا على فوتيبه يدخن سيجارًا، وينظر إلى السقف من خلال حلقات الدخان الكثيف. اندفع علي داخل الحجرة. لم يكن أبوه يتوقع أي زيارة في هذا الوقت. نظر إليه وتفحصه كما كان يفعل منذ صغره بعينيه الضيقتين الثاقبتين اللتين تشبهان عيني علي، ولكنهما أكثر اختراقًا للأشخاص وأكثر حزمًا. أدار الرجل عينيه وقلب فاهه لأسفل علامة عن عدم رضاه وهو ينظر إلى مظهر علي الرث. تي شيرته كان مبلولا من العرق وبدت نظراته تائهة بعض الشيء وهو يحيي أباه في لهفة ويتخذ مجلسًا دون أن يطيل في الكلام.

"خير؟ جاي منين؟"، سأله الأب دون أن يحرك ساكنًا وهو ينفخ في دخان سيجاره تمامًا كما كان منذ خمس دقائق قبل أن يفاجئه ابنه.

أجابه علي وهو يلهث "كنت في لاظوغلي عند أمن الدولة".

رفع أحمد كمال رأسه قليلا لأول مرة وهو يغالب انفعاله "وإيه اللي ودّاك هناك؟".

أجابه علي "كنت عايز أعرف إيه اللي كان بيحصل جوه كل السنين اللي فاتت". ثم منفعلا "الجيش ضرب نار وفرقنا".

أجابه الأب بشيء من التهكم "أيوه سمعت" ثم أضاف بعد لحظات من الصمت الثقيل "عندهم حق".

رد عليه علي بتحفز "يعني إيه عندهم حق؟ مين اللي إدّالهم الحق ده؟".

اعتدل الأب في جلسته وحدجه بنظرة صارمة واختفت ابتسامته الساخرة ليحل محلها مظهره الجدي ونظرته الثلجية مثل تلك النظرة التي رآها سليم في حفلة هاسيندا قبل أن يقترب منه "اسمع يا علي. الموضوع دخل في فوضى جامدة. أنت سمعت عن عدد حالات القتل والاغتصاب اللي حصلت يوم 28 يناير؟ يا بني ده المستشفيات دخلوا عليها وسرقوا الأجهزة اللي فيها، وفيه حالات اغتصاب حصلت لمرضى ولممرضات؟ هل ده يرضي حد؟".

"أنا مش فاهم إيه صلة ده بإن الجيش ضرب نار من ناحية، وفيه بلطجية هجموا من الناحية التانية؟ وبعدين - تاني - هوّه مين اللي فتح السجون يومها؟".

حدجه الأب أكثر وهو يقوم من مجلسه ويسأله بنبرة أعلى "أنا اللي مش فاهم برضه لسه اللي ودّاك هناك؟ إنت مالك بالكلام ده؟".

قام علي هو الآخر، وكان جالسًا على كنبة مقابلة للأب وأجابه وهو يحاول أن لا ينفجر ولكن سرعة حركة يديه خانته "عايز تعرف إيه اللي ودّاني هناك؟ فاكر لما جالك تليفون بعد مظاهرات حرب العراق وحذرتني إن أنا أبطل أشارك في السياسة لإن اسمي موجود على قايمة الاعتقالات؟ وإن مش بس أنا اللي حاتأذي... وإن الموضوع حيطول عيلتي؟ سمعت كلامك وبعدت، وبعدين كانت إيه النتيجة؟ أنت بقيت معاهم... مع نفس الناس اللي كانوا مصدر تهديد... اشرحلي..".

سكت أحمد كمال لحظات وهو ينظر في هاتفه، قبل أن ينظر إلى ابنه ويجيبه بتأثر لأول مرة "ما تخليش حد يستعملك ضدي".

في طريق عودته إلى منزله تلكع علي وهو يتأمل الشوارع التي شهدت جزءًا من طفولته وشبابه. توقف عند سور حديقة الأسماك وحاول أن يختلس النظر إلى الكهوف التي تتوسط الحديقة وهو يشعل سيجارة. انبعث ضوء مهيب من الحديقة انعكس على الأشجار العتيقة والكهوف المملوكية، وخلا الشارع إلا من بعض الوافدين من أحياء فقيرة جاءوا يتسكعون في الزمالك ليستنشقوا الهواء بحرية، بعد أن خلت الشوارع من أمناء الشرطة والمخبرين وتهديد التحري في أي لحظة.

أشعل سيجارة وتذكر حياته في التسعينيات. كل شيء كان ثنائي

الأبعاد وبسيطًا. يقود سيارته إلى الجامعة ويرجع وسط عائلته يتبادلون المزاح. أو يقود سيارته ومعه أصدقاؤه يرحلون إلى سيناء يقضون فيها شهرًا يتنقلون من مخيم للآخر في دهب ونويبع. ينفقون عشرة جنيهات في الليلة للبيات ومثلها للطعام. يطلقون شعورهم ويتشاركون أحلامهم في سماء مرصعة بالنجوم. كلُ ذهب إلى طريقه. معظم أصدقائه سافروا بعيدًا ولم يعودوا، وعائلته تفرقت. وأبوه... أبوه لا يريد أن يرى شيئًا مما يراه. يظن أن كل شيء يدور حوله وحول أعماله. أي شيء يقوم به علي مرتبط به. لعله على حق في هذا. ولكن ماذا حدث له في السنوات الأخيرة؟ عندما كانا قريبين في يوم من الأيام منذ زمن بعيد، كان هو من يزرع فيه روح التمرد ورفض النظام القائم.

"تُرى ما أخبار سكان چيربير في باريس الآن؟ هل يتخيلون ما يحدث في مصر؟ بالطبع يظنون أن الثورة انتهت بعد الثمانية عشر يومًا ورحيل مبارك. أن المصريين بدأوا في بناء دولة جديدة.. الربيع العربي كما يحلو للإعلام الغربي تصوير ما حدث، وكأنه مجرد فصل في العام تتم تسوية كل شيء فيه ثم يذهب الجميع إلى حال سبيلهم وكأن الثورة تتحقق في يوم وليلة. اللعنة على الكليشيهات التي تصنعها ماكينات الإعلام الغربية والمحلية للاستهلاك السهل. لمن لا يريدون أو لا يستطيعون أن يروا الأشياء بأنفسهم، واللعنة أيضًا على الجهل... وجهلي أنا بحقائق الأمور وأبسطها. اعتقدت

أن الحقائق ستتكشف لي عندما أعود فأراها تتعقّد أكثر".

تذكر آن وحاول أن يطردها من أفكاره ولكن صورتها بقيت وهي تقابل هذا الرجل الروسي في هذا المنزل ومعها الفتاة الأخرى. لديها قدرة غريبة أن تعيش كل لحظة منفصلة عن الأخرى، وأن تمحو أي شيء من ذاكرتها. لا بد أن روحها سُرقت منها أو هي ليست موجودة منذ البداية مثل أول يوم قابلتها. وماذا عن إجلال؟ لقد اختفت أيضًا منذ شهور. لديه إحساس أن سليم يعرف أكثر مما يقول. لا يهم. كل هذا بعيد حتى لو لاحقه هنا. إنه يواجه مسألة تتعلق بوجوده ووجود من حوله، وسيثبت لهم أنه على حق وليس ضروريًا أن يقتنعوا. هذا طريقه وليس لديه طريق آخر وليس لديه ما يخسرهْ إلا وجوده. ثم ماذا؟ وجوده أو عدمه لن يمثل فرقًا الآن.

***

"ابني العزيز،

الجواب ده مش علشان أسألك عن أخبارك في المدرسة زي كل مرة! أنا عايز أحكيلك حكاية تفتكرها وتحكيها من بعدي. حكاية بلد أنا كنت فاكرها بتنتهي لقيتها في بدايتها ولاقيتني جزءًا منها من غير ما أقرر أو يكون لي إيد في ذلك.

لما رجعت من لندن كان هَمي كله إن أنا أبتدي من جديد علشان

ما أتأخرش عليك في حاجة. إيراد الأرض بيكَفي الحمد للـه لكنني فكرت إنني أبتدي في شغل ممكن من خلاله في يوم من الأيام أستقل بنفسي تاني علشان لو فكرت تيجي تعيش هنا في يوم من الأيام يكون عندك أكتر من اختيار. اللي حصل كان مختلف عن كده لأن وأنا بابتدي في الشغل لقيت إن فيه حاجة غلط. ما كنتش متأكد في الأول لو الغلط من عندي ولا من المناخ العام. قررت إنني أبتعد وأتأمل اللي بيحصل شوية لحد ما أفهم إزاي ممكن أبتدي في بلدي من جديد.

الأحداث أثبتت لي إن الغلط مش من عندي. الثورة بدأت ولقيت نفسي مرتين داخل معركة مع قوى التخلف والرجعية فوق كوبري قصر النيل. أول مرة ما كنتش متأكد من سبب وجودي، وبعدها بيومين وتحديدًا يوم 28 يناير عرفت أنا باعمل إيه فوق الكوبري لما لقيت شاب بيحاول يتقدم وقع جنبي وفارق الحياة في الأغلب. لما لقيت قوات الشرطة بتضربنا بالرصاص الحي علشان هتفنا للحرية والعدل. ساعتها فهمت إن لي دور ألعبه في التغيير اللي بيحصل. ممكن يكون دور صغيرًا جدًا ومع ذلك حاديه للآخر علشان في يوم من الأيام تكون فيه فرصة إنك تيجي تتعرف على بلدك وهيّ حرة.

فهمت أيضًا إنني مستحيل أقدر أبني حاجة ليك هنا غير لما يحصل تغيير بحق وحقيقي".

باباك اللي بيحبك.

انتهى سليم من كتابة الخطاب لابنه وأرسل الإيميل على الفور. سمع صوت دقات على باب غرفة مكتب أبيه، حيث أغلق على نفسه ساعتين يفكر في ماذا سيكتب إلى شريف ليشرح له ما يدور دون تعقيد.

"اتفضل.. مين؟ اتفضلي يا ماما".

دخلت أمه عليه. بدت مرحة وهي تتخذ مجلسًا على الكرسي المقابل لمكتب زوجها "بعتت له خلاص؟".

أجابها وهو يرفع رأسه من على شاشة الكمبيوتر "أيوه بعتّ له يا ماما. باديله فكرة شوية عن اللي بيحصل هنا".

ابتسمت الأم وهزت رأسها وهي تقول "وحشنا... تفتكر حيفهم؟".

أجابها سليم بثقته المعتادة "شريف سابق سِنُه. شريف صديقي يا ماما. لما كنت لسه عايش هناك، كنا بنلعب كرة مع بعض ونروح السينما مع بعض ونتكلم في كل حاجة". بدا سليم سارحًا وهو يقول "نتكلم في كل حاجة".

"ربنا يخليكم لبعض ويجمّعكم على خير قُريب".

"قولي لي أخبار خالتي إيه؟".

انقلب وجه الأم بعض الشيء وهي تسرح بعينيها بين أرفف كتب زوجها وأجابته "واللـه مش كويسة أوي بسبب موضوع مجدي جوز نهلة".

"أخبار قضيَّته إيه؟".

"بيقولوا أقل حاجة سبع لعشر سنين. أموال عامة وكسب غير مشروع.. بتقول متهمِّينه بالتلاعب بمش عارفة إيه وأراضي وحاجات كده أنا مش فاهماها".

هز سليم رأسه دليلا على فهمه لما ترمي إليه أمه ولم يُعقب وسألها "ونهلة وفرح بنتها عاملين إيه؟".

"ما هي دي المشكلة. نهلة حالتها وحشة أوي من ساعة ما قبضوا على جوزها. عايشة على المهدئات ومش عايزة تشوف حد.. كلمها يا سليم اسأل عليها".

"حاضر حاكلمها... مش عارف أقول لها إيه لكن حاكلمها".

أضافت الأم، وكانت فرغت من كل اتصالاتها وتوجيهاتها للسفرجي والجنايني وتعلم أنها إذا خرجت من المكتب لن يكون أمامها شيء آخر إلا مشاهدة التليفزيون لساعات طويلة حتى موعد نومها "الواحد بقى بيسمع كل يوم والتاني عن حد اتقبض عليه أو اتجمدت فلوسه... إلا قل لي أخبار علي كمال صاحبك وباباه إيه؟".

"أحمد كمال؟ اتجمدت حساباته من يومين وممنوع من السفر".

"وابنه علي؟".

ابتسم سليم بركن فيه ومسح على شعره "علي كويس. بنتقابل على طول في الاجتماعات بتاعت الحركة. بس واخد الموضوع على نفسه أوي".

نظرت الأم إليه بفضول فأكمل "لأن فيه ناس مش مصدقة إن علي معانا بحق وحقيقي، وفيه ناس تانية متشككة في نيّته. بيقولوا إنه بيعمل كده علشان يحسِّن صورة أبوه وهو حاسس بكده".

"أوقات صعبة.. عمرنا ما شفنا حاجة زي كده قبل كده".

"ولا حتى الحرب؟".

"كانت مختلفة.. كانت الأمور أوضح، واتعودنا عليها بعد شوية. دلوقت اللي بيحصل ده جديد علينا".

سرح سليم بنظره إلى صورة لجدِّه معلقة في ركن الحجرة وهو يرتدي يونيفورم الخيّالة الملكي وعلى صدره النياشين، فابتسم وأجابها "هيّ حرب بس مختلفة عن حروبكم، زي ما جيلنا مختلف كده".

الفصل الثالث عشر

عاد علي إلى باريس في بداية شهر إبريل ليجمع أغراضه ويُسلم الشقة إلى روبير، بعد أن قرر أن يعود إلى مصر بشكل نهائي. كان الجو ربيعًا مثلما كان منذ عام عندما حضر ليستقر. في محطة مترو ڤوچيرار وجد بائعة الجرائد في مكانها داخل محل الجرائد بجانب استعلامات المحطة التي يقف فيها نفس الموظف. وعندما خرج رأى بجانب الكافيه نفس بائع الفطائر العربي العجوز ونفس الجرسون ذي الوجه المستطيل والخدود المورَّدة المستديرة داخل الكافيه يوزع الطلبات والابتسامات أحيانًا على زبائنه.

"لا شيء تغير هنا وكأنني في ربيع 2010. الربيع عندنا لم يصل هنا ولن يصل. الناس كما هم. يستيقظون كل صباح الساعة السابعة ويتجهون إلى أعمالهم في نفس الموعد. شيء لا أستطيع أو أقدر عليه. أستطيع تحمل الروتين الذي أصنعه أما هذا الروتين

الذي تفرضه عليك الماكينة العملاقة فلست مؤهلا له. لم يخلقني اللـه هكذا مع أن كل شيء يصبح أوضح عندما يتم وضعه في إطار. هناك من يستطيع ذلك. من خُلق لذلك مثل سليم وإجلال... آه إجلال. لم أسمع عنها منذ وقت طويل. تُرى ما رأيها في كل ما يحدث؟ لمَ لا أدعوها لتحضر معي بضعة أيام. أمامي حتى مايو هنا. هي ليست مع سليم. معه أمينة وأظنه يحبها وحتى لو علم، لن يغضب لذلك".

فتح البوابة الأولى بعد أن ضغط الكود ثم البوابة الثانية بمفتاحه وعبر الحوش ثم صعد السلالم. لم ير أحدًا من جيرانه. كانت الساعة قد شارفت على الرابعة ظهرًا. رمى حقيبته في وسط غرفة المعيشة واتجه إلى غرفة نومه وارتمى كما هو على فراشه دون أن ينزع حذاءه. لم يكن قد نام منذ الليلة السابقة.

عندما استيقظ علي وجد نفسه في ظلام دامس. أضاء الأباجورة إلى جانب فراشه بعد أن وجد زر الإضاءة بصعوبة ونظر إلى ساعته.. كانت الساعة تجاوزت التاسعة بقليل. قام إلى الثلاجة وأفكاره ثقيلة. وجد زجاجة من عصير البرتقال، ففتحها وشرب منها. هذا كل ما هو موجود في الشقة. عليه أن يتجه إلى أي بقالة عربية مفتوحة ليملأ الثلاجة بعض الشيء. استطاع الأسبوع السابق لسفره أن يؤجر شقته الكبيرة لصحفي نرويجي، وحصل

على شهرين من الإيجار وشهر تأمين مكنته من شراء تذكرة الطائرة ذهابًا وعودة والإبقاء على حصة يدفع بها لروبير ما تبقى من إيجاره.

راودته فكرة إجلال حتى تمكنت منه "سأدعوها. ولكن ليس لديّ ما أصرفه لنخرج بحرية. موقفه المادي لم يختلف عن عام سابق بل هو أسوأ فليست هناك عمولة قادمة. ولكن ثم ماذا؟ إنني أستطيع أن أتدبر بأقل شيء. هناك الكافيهات الرخيصة والحدائق العامة نقضي فيها اليوم، وتستطيع هي أن تسهم أيضا. لا.. لم أحضر هنا لذلك. أريد أن أفرغ من كل شيء، وأدفع لروبير مستحقاته وأعود إلى مصر لأبحث عن شقة أصغر بإيجار بسيط. سأحتاج كل سنت وكل قرش الفترة القادمة".

بعد أن عاد محمَّلا بكيس فيه بعض الفاكهة والبسكويت، اتصل علي بإجلال دون أن يفكر كثيرًا، واتفقا أن تحضر إليه في الأسبوع اللاحق لتقضي معه عطلة نهاية الأسبوع.

***

جلست إجلال على تراس لا باليت تشرب من كأس النبيذ الوردي الموضوع أمامها، وجلس علي إلى جانبها شاردًا يدخن سيجارته ويتأمل المارة ويشرب ببطء من كأسه. اصطفت بعض الدراجات البخارية في شارع مازارين أمام التِراس، وتوافد المارة

من الشوارع الجانبية يقفون أمام الجاليريهات المنتشرة في الشارع أمام اللوحات المختلفة. عمت بهجة مبعثها الوحيد الشمس على أهل باريس وعلى السائحين الذين قدموا إليها في هذا الوقت من العام يبحثون عن تجربة الربيع وعن الحب في مدينة الخيال الجامح والأحلام المكسورة.

التفت إليها كمن يحاول أن يبدأ حديثًا مع شخص غريب وسألها "أخبار شغلك إيه؟".

انفجرت إجلال ضاحكة وسألته بسخرية "إنت جاييني كل ده من لندن لباريس علشان تسألني عن أخبار شغلي؟ طيب ما تبعت لي إيميل يا أخي! هاهاهاها... عامة شغلي كويس وباعمل فلوس معقولة".

سألها غير متأثر بمفعول سؤاله الأول وبنفس الأسلوب "طيب وعندِك صاحب؟".

نظرت إليه بتعجب هذه المرة وسألته بجدية "إنت أول مرة تتعرف عليّ ولا إيه؟".

ضحك علي لأول مرة وأجابها وهو نصف سرحان "عندك حق".

"ما لك يا علي؟ فيه إيه؟".

"مشغول شوية بموضوع رجوعي".

أرجعت إجلال رأسها إلى الوراء وحدجته بعينيها النصف مغلقتين وانطلقت "أنا بجد مش عارفة... إنت إيه اللي مرجّعك. حد يعمل كده دلوقت؟ راجع نفسك.. حتندم".

استدار مرة أخرى تجاهها ونظر إليها في عينيها بحدة لم ترها قبل ذلك "إزاي ما رجعش دلوقت! واللي بيحصل في البلد وأبويا..".

هزت رأسها منكرة ما يقول "علي.. ما تضحكش على نفسك. أبوك مش محتاجك. أما بالنسبة للبلد، فهل أنت متأكد إن وجودك حيفرق عن عدمه دلوقت؟ إنت اللي مخليّك سرحان مش ترتيبات قبل السفر. لأ.. إنت بتسأل نفسك عن جدوى اللي إنت ابتديته وعن دوافعك الحقيقية. أقعد وكَمّل كتابة روايتك أحسن لك".

كاد علي أن يزيح كل ما على المائدة الصغيرة بضربة يد واحدة ولكنه تمالك أعصابه وأنهى كأسه في عُجالة دون أن يلتفت إليها مرة أخرى ونادى الجرسون التونسي مطالبًا بالحساب "ياللا بينا من هنا. عايز أغير مناظر".

أحست إجلال أنها تعدت الحدود التي من الممكن أن يتقبّلها، فظهر على وجهها، وحاولت تلطيف الجو "تحب نروح فين؟ زي ما تحب".

"ممكن نتمشّى على رصيف السين شوية" قالها علي وهو يحاول جاهدًا أن يهدئ من أعصابه بعد أن وضع الحساب على المائدة الصغيرة وتحرك دون أن ينتظر الجرسون التونسي ليودّعه كعادته.

"هوّه إيه اللي حصل في العشرين سنة اللي فاتت؟" سأل علي إجلال وهما يتمشيان ببطء وسط الحشود التي راحت تغدو على كورنيش السين ذهابًا وإيابًا وأشعة الشمس تلفحهما وتنعكس على البشرات مختلفة الألوان.

"قول لي إنت اللي حصل. أنا سافرت واشتغلت والوقت عدى. ما حسيتش بيه وهو بيعدي. ما تجوزتش ومش حاتجوز وأكيد في الأغلب مش حاخلف". قالتها إجلال وهي غير عابئة كعادتها، فركز علي النظر فيها مرة أخرى ووجدها لم تتغير. ترتدي نفس الفستان القصير الذي كانت ترتديه وهما في السابعة عشر. حتى جسدها لم يتغير كثيرًا بنفس تدويراته، وهو أيضًا لم يتغير ما زال يرتدي بنطلونًا جينزًا، أحيانًا يكون مقطوعًا وتي شيرتًا أو قميصًا من الخارج، وأدرك أنهما اقتربا من الأربعين. من كان يتوقع أن تكون الأربعون هكذا؟ كان يعتقد وهو صغير أنه في هذا العمر سيكون رجلًا كبيرًا يرتدي بذلة كل صباح ويرعى عائلة فيها شباب كبير، مثل الصور التي رآها لجدِّه في عمره أو لأبيه.

أجابها "فيه حاجة حصلت غريبة بعد بداية الألفية. أنا مش عارف إيه هيّه، وكأن الزمن وقف بنا. جيلنا اتحكم عليه يكون زي سيسيفوس عند الإغريق. نفضل نُزُق صخرة كبيرة لقمة جبل وبعدين الصخرة تتدحرج لتحت فننزل نجيبها ونطلع تاني بيها للأبد، وما نكبرش وما نحققش الهدف".

"الموضوع مش بس كده يا علي. خد بالك من حاجة تانية. الطب اتقدم، والجيل اللي قبلنا برضه ما بيكبرش".

"وإنت حتقولي لي!" أجابها علي بتهكم "تعالي شوفي في مصر. هُمه هُمه في كل مكان. حتى لما قامت ثورة شباب. اللي بيحكموا برضه العواجيز، وحكومة الثورة فيها وزرا عندهم فوق التمانين سنة".

أجابته إجلال بسخرية "أي ثورة دي؟ أنت صدقت؟".

التفت إليها علي "لسه يا إجلال. الثورة في أولها... لسه فيه مراحل. إحنا عدينا بمرحلة أولى".

جذبته من يده، وقالت له مُغيِّرة الحديث "سيبك دلوقت. حنعمل إيه النهارده بالليل؟".

"مش عايزة تعملي حاجة هادية؟ عشَا في الحي الخمستاشر مع الجيران في ريستوران لقاء الأصدقاء؟".

أجابته بدلالها المعتاد "لأ أنا عايزة أخرج خروجة حلوة..".

وقف علي يتفكر قليلا وينظر إلى النهر من خلف أحد بائعي الكتب القديمة، ثم قال لها وكأنه توصل إلى فكرة تائهة "يبقى عارفة حنروح فين؟ ما فيش غير السيرك!".

"سيرك إيه؟ إنت بتهرّج صح؟".

"لأ، بالعكس حاورّيكي السيرك. حتشوفي الألعاب كلها".

***

انطلقت موسيقى الديب هاوس من خلال سماعات عملاقة في أركان السيرك الأربعة الحالكة الظلام. وقفت إجلال إلى جانب علي في أحد أركان الملهى الليلي تتأمل مهرجًا عملاقًا، تغطى وجهه بالأبيض وأنفه بالأحمر، وارتدى قبعة بألوان قوس قزح، ورداء أبيض مُقلمًا بالأخضر والفوشيا. أخذ يرقص فوق عكازين يرتفعان مترين. في الجانب الآخر وقف رجل نصف عارٍ وجهه مدهون بالأسود ما عدا عينيه دُهنتا بالأبيض، وشعره أسود كثيف، مثل أليس كوبر وأغلب مغنيي "الهيفي ميتال" في الثمانينيات، وانطلقت من فيهه نيران وسط تهليل رواد السيرك. اندفعت فتاة ترتدي القطعة السفلى فقط من مايوه بكيني على المنصة إلى جانب الكلاون العملاق، وأخذت تقفز في الهواء قفزات أكروباتية، وتهبط على يديها مرة أخرى.

راقب علي بركن عينه فتاة شعرها أحمر ينزل على كتفيها مموَّجًا، أخذت تتراقص إلى جانبه وتسترق النظر إليه. وحاول أن لا ينشغل عن إجلال قدر الإمكان، ولكن الأخيرة كانت منشغلة بدورها بالعرض وتوزِّع ابتساماتها على رجلين مرّا من أمامها أكثر من مرة.

"هل يعلم أي من الموجودين بما يحدث في مصر الآن وما حدث؟". تساءل علي وهو يسرح بعيدًا "الكنائس التي تم هدمها.. المسيحيون غاضبون، وبعض السلفيين الذين يهددون بهدم الأضرحة. لقد قاموا بالفعل بتدمير ضريح في العريش. الكل غضبان عندنا الآن. كانوا محرومين لمدة ستة عقود من إبداء حتى غضبهم والآن يعبرون عن هذا الغضب دون أن يعرفوا كيف أو متى. يسمون هذا مطالب فئوية ويقول الإعلام إن هذه المطالب ستُعطل عجلة الإنتاج..." ابتسم عندما تذكر تعبير "عجلة الإنتاج" ثم استدرك نفسه "لماذا أفكر في كل هذا وأنا هنا وسط أناس يبتهجون ويعشقون الحياة عشقًا ويبجلونها ويبجلون الجمال؟ فلأستمتع بكل لحظة من هذا الجمال المنتشر حولي الآن".

استدار لينظر إلى إجلال، فوجدها مشغولة بالحديث مع أحد الشابين اللذين كانا يمران من أمامها. شاب صغير أطلق لحية بنيّة كثيفة وأخذ يتراقص وهو يحادثها.

انصرف علي إلى البار والفتاة ذات الشعر الأحمر ما زالت تسترق له النظرات. تبعته وكأنها متجهة لتحية أحد عند البار القريب من السلالم المؤدية للمدخل. اقتربت منه وهو على وشك أن يطلب شيئًا من البار مان، فاعتقد أنها ستحدثه، ولكنها ربتت على كتف فتاة شعرها قصير ترتدي قبعة سوداء جالسة على البار وتعطي ظهرها لباقي المكان. إنه يعرف شكل هذا الرأس وهذا الجسد الرفيع. استدارت الفتاة الثانية لتقبّل الفتاة ذات الشعر الأحمر، وجاءت عيناها في عينيه... آن. هي كما رآها أول يوم وآخر يوم... غريبة وحولها هالة من الغموض بشعرها الكستنائي وعينيها المسحوبتين. نظرت إليه ومدت ذراعيها في هدوء لتحتضنه، فأخذها بين ذراعيه واحتضنته دون أن يتحادثا إلى أن كسرت هي الحاجز بنفس الهدوء "إنت رجعت تقعد هنا؟".

"رجعت أسلم شقتي لروبير وألِمّ حاجتي".

"عايزة أعرّفك على الأميرة كاترينا". قالتها واستدارت تجاه الفتاة الأخرى.

"فرصة سعيدة سمُوّك" قالها علي ببعض السخرية وهو ينحني أمام الفتاة الفارعة الطول، فبادلته ابتسامة ولمعت عيناها الواسعتان الخضراوان.

"تحبوا ناخد شوطات تيكيلا؟" ثم تذكر أنه سيدفع ثمن مصاريف هذه الليلة غاليًا في اليوم التالي، فصمت ولم يلح، إلا أن آن صاحت وكأنها تصيح صيحة حرب "أوكي.. ليتس جو... بس الأول.. حُط صباعك في الكيس". وقبل أن يقول أي شئ، كانت قد أخذت سبابته اليمنى وغمستها داخل كيس صغير في يدها، فرفعها بعد ذلك ووضعها في فمه فأحس بمرارة الطعم، ونظر إليهما فاجتاحه دفء وبدأت الموسيقى الهاوس تأخذ أبعادًا جديدة في رأسه، وطالب البارمان بثلاثة شوطات تكيلا، وأفرغوها في ثوانٍ قبل أن يحاسبه.

"لازم أرجع الناحية التانية دلوقت... معايا حد".

"هاتها وتعالى. إحنا قاعدين هنا أنا والبرينسيسة كاترين". أجابته آن بلا مبالاة لم ترق لعلي، وأضافت "مستنيِّين كيڤين وصاحبته".

نظر علي إلى الفتاة الأخرى وسألها وهو يعض على شفته "ممكن أعرف أنت برنسيسة منين؟".

ابتسمت الفتاة وأجابته مختصرة "روسيا... ياللا ما تتأخرش. مستنيينك".

استدرك علي قبل أن يتجه إلى إجلال ما قالته آن لتوها "إيه ده؟ كيڤين رجع؟".

هزت رأسها إيجابًا "أيوه أيوه اتعاقد مع فرقته على شوية حفلات هنا... ياللا ما تتأخرش".

اتجه مرة أخرى إلى إجلال في وسط المكان، فوجدها ترقص مع الشاب ذي اللحية البنية الكثيفة، فأشار إليها، فتوقفت وجاءت إليه، وأخذا يرقصان في مكانهما، ثم مال عليها وهمس في أذنها بكلمات موجزة "فيه ناس هناك.. ناس... آن.. تعالي نروح عند البار".

جذبها من يدها ناحية البار فلم تبدِ أية مقاومة. عندما اقترب من البار تبين كيڤين بقبعته السوداء وشعره الداكن الطويل، وإلى جانبه فتاة دراكولا. نظر إليه كيڤين وابتسم وحيّاه بحرارة. "وكأن الوقت لم يمر.. هم كما هم وكأنها لم تعش معي. إنهم يرتدون نفس الملابس ويتصرفون نفس التصرفات.. مصاصو دماء بالتأكيد" وابتسم علي لهذه الأفكار لأنه وجدها خارجة عن المألوف ومسلية.

تعرفت إجلال إلى آن ومجموعتها ولم يبدُ منها أي امتعاض. بدت منسجمة معهم ومع آن بالأخص. وتقدمت الليلة بسرعة فائقة، كما يحدث في هذه الليالي عامة، وبدا أن المكان على وشك أن يغلق، فاقترح علي (دون أن يفكر كثيرًا في آثار هذا الاقتراح) عليهم أن يذهبوا معه إلى مسكنه ليكملوا الحفلة.

***

جلست آن على الأريكة الحمراء المجاورة لشيش النافذة الكبيرة، تدخن سيجارة وتنفخ الدخان في حلقات، وتنظر إلى رسائلها على تليفونها المحمول تمامًا كما كانت تفعل عندما كانت تسكن الشقة، وانشغل علي وإجلال بحديث مع الأميرة الروسية. أخذا يسردان لها كيف كانت الحياة في القاهرة في التسعينيات ورحلات الصحراء في سيناء. الفتاة ذات الشعر الأحمر كانت مهتمة جدًا بالطاقة والنجوم فأخذت تتحدث عن بداية عصر جديد، وكيف أن مصر بوضعها الجغرافي مركز لهذا التغيير، وبدأت تغوص في الحديث عن النجوم، فسرح علي ونظر إلى كيڤين، وجده جالسًا على الأرض وظهره مستند على الطوب القديم المواجه للأريكة، ويعانق صديقته.

وقفت آن وبدأت تقلب في أوراق وكراسات علي الموضوعة على المائدة المستديرة وأخرجت كراسة موليسكين سوداء صغيرة. نظر إليها علي ولم يُعقب، وتوقفت إجلال عن حديثها مع الروسية ذات الشعر الأحمر ونظرت بشيء من التعجب ثم استدارت مرة أخرى لتكمل حديثها مع كاترينا، إلا أن آن بدأت في القراءة بالإنجليزية من الأوراق بصوت خافت لكن مسموع، فتوقفوا كلهم عن الحديث وأنصتوا إليها.

بعد الأبوكاليبس

قبل فتح باب جديد

بصيرة نافذة

خيبة أمل كاملة

في عالم الأبسينت الباريسي السفلي

تشابكت أرواحنا جولة بعد الأخرى

جلسنا يدًا في يد

وحلّقنا فوق أرض مهجورة

انغمسنا في اللذة بلا هدف

نحاول أن نصل لبعضنا..

في الشوارع الحالكة الظلام بلا حبيب

فرّقنا الفجر كلٌ في طريق.

توقفت آن فجأة وأخذت تقلب نظراتها بين الحضور لترى أثر الكلمات على وجوههم. سألتها إجلال وهي تنظر إلى علي "مين كتب ده؟ ما تقوليش؟". ثم موجهة كلامها إلى علي "أنت؟ بجد أنت؟ طلعت شاعر؟". اكتسى وجه علي بالاحمرار وهو يهز رأسه بالإيجاب، ولكن إجلال لم تمهله "إمتى ولمين؟" كانت بالطبع فهمت كل شيء ولكنها قررت أن تتسلّى، وفهم علي هذا ففتح فاهه مبتسمًا وأُضيقت عيناه دون أن يقول شيئًا.

دوّى صوت طرْق على الباب، فظن علي أنه يُهَيَّؤُ له، إلا أن الباب دق مرة أخرى، فبدا عليه القلق وهو يتمتم "دي أكيد جارتي الكبيرة اللي ساكنة فوق. جاية تشتكي من الصوت... هيه الساعة كام؟".

أجابه كيڤين دون اهتمام، بعد أن نظر في ساعته "الساعة 4.." وأضاف "لسه بدري على ما النور يطلع".

اتجه علي إلى الباب وفتحه في تثاقل، فوجد روبير أمامه بجسده الضخم وعلى وجهه ابتسامة الطفل الذي يريد أن يشارك أطفالًا آخرين شقاوتهم دون أن يعلم أحد بذلك.

ارتدي جينزًا وتي شيرتًا وبدا له كأنه شخص آخر. كان يحمل في يده زجاجة شمبانيا كريستال "أنا سمعت صوت وما كنتش نايم، فقلت آجي أودع جاري العزيز" قالها بمرح لم يدع مجالا لأي إجابة. رحب به علي، فأضاف روبير وهو يسأل علي مباشرة "دي حفلة توديع ليك؟ صح؟".

أجابه علي وهو يبتسم "ممكن تقول كده.. تعالى أدخل.. بنقرا شعر كمان وبعدين الشمبانيا جاية في وقتها".

لمح روبير إجلال فانفرجت أساريره أكثر "وأنت كمان هنا؟ أهلا بيكي في چيرببير".

بادلته إجلال الابتسام بثقتها المعتادة، واتخذ روبير مجلسًا على الأريكة إلى جانب آن بعد أن قبّلها على وجنتيها هي الأخرى.

نادى كيفين آن وهو جالس مكانه "اقريلنا شعر تاني... لو لسه فيه تاني.." ثم وهو يمرر يده على شعره بعد أن رفع قبعته "عجبني.. ممكن نلحنه ونغنيه".

عقبت الأميرة الروسية ذات الشعر الأحمر "وأنا وأنا" وهي تلقي لعلي نفس النظرات التي كانت تلقيها في السيرك.

وقف علي في ركن غرفة المعيشة يتأمل الجمع ويستند على الحائط "ماذا يفعل كل هؤلاء في صومعتي؟ إجلال مع آن مع روبير وأصدقاء آن. ثم البرنسيسة الروسية. هل ما زال هناك برنسيسات روسيات؟ وماذا تفعل في شقتي. هي فائقة الجمال على كل حال بشعرها الأحمر المموج، وأنفها المدبب لفوق وجسدها الممشوق ولكنتها وصوتها الأجش، ولكنها ظهرت في الوقت الخاطئ... عندما تمطر تمطر بغزارة". ابتسم مرة أخرى، وقطع حبل أفكاره صوت فرقعة زجاجة الشمبانيا بعد أن فتحها روبير واتجه إلى دولاب المطبخ وأخرج أكوابًا صغيرة منه دون استئذان وأخذ يوزّعها مليئة على الجلوس.

سحبت آن الكرّاس الأسود الصغير مرة أخرى من فوق المائدة الصغيرة، واتخذت وضع الإلقاء، فوقفت وبدأت تقرأ:

فقط عند الانتفاض
تُشفى جروحنا
في موجة ضمير
دون ادّعاء أو قيود
لأي خلفية نفاق
مع الذين خسروا كل شيء
إلا رغبتهم في تحطيم الحائط
مع من سئموا الكذب
عطشى للبناء ليس للدماء
مملكة في السماء
جمهورية في الحياة
لا نظام يحكم.

علق روبير ساخرًا كعادته "كنت فاكر إن معانا في العمارة كاتب روائي، طلع معانا شاعر كمان.. بس شاعر فوضوي". وأضاف بلهجة مصرية وهو يضحك "إنت حكاية".

"كتبت ده إمتى يا علي؟" سألته آن وعيناها المسحوبتان تلمعان "أنا عارفة الأوَّلانية كتبتها فين وإمتى، لكن دي أول مرة أقرأها".

أجابها علي وهو يحدّق في عينيها "يوم 28 يناير".

بدت الفتاة صاحبة كيڤين على دراية بما يرميان إليه، وبادلتهما النظرات، فحدجها علي بتقزز، ثم سحب كرسيًا واتخذ مجلسًا إلى جانب إجلال والفتاة الروسية مرة أخرى.

لم يفت إجلال أي مما حدث، واستنتجت بحدسها النسائي الجانب المستتر من الحديث، ولكنها لم تمانع بل على عكس ذلك استمتعت بما يحدث ووجدت فيه ما يسليها، أما روبير فأخذ يدير رأسه بينهم لعله يفهم ما يحدث. الأجواء بدت له غريبة، ولكنه لم يمانع أيضًا لأنه كان يحتاج التغيير وكان عائدًا لتوه من سهرة أخرى بعد أن أصبح الوقت لديه متاحًا منذ طلاقه من إليزابيت. كان لا يريد أن ينام وجاءت إليه الحفلة عند علي في شقته على طبق من ذهب، ثم إن اليوم التالي يوم أحد.

تسلل شعاع نور من الشيش الكبير، فاستنتج علي أن تباشير الصباح بدأت تلوح. انتابه إحساس مفاجئ بالغربة لم يعلم مصدره. بَدّل عينيه بين الحضور، فرآهم مختلفين عما كانوا عندما حضروا منذ بضع ساعات. بعض التجاعيد ظهرت على وجه الأميرة الروسية المزعومة واختفت ابتسامتها الأولى فبدا على وجهها امتقاع لم يلحظه عندما رآها في السيرك في بداية الليلة. انحسرت رغبته الآن في أن يرحل الجميع ويتركوه وحده، إلا أنه لم يفتح فاهه بكلمة، واقترح كيڤين أن يوصل جهاز آي بود عنده بسماعات

قديمـــة رآها تحت الأريكة ليســتمعوا إلى موســيقاه، ولم يعترض أحد، فقام بعمل الوصلات اللازمة، وانبعثت الموسيقى، وتواصلت الأحاديث. تحــدث معه روبير عن الثـــورة، وأن قلة الموارد هي العقبة الأكبر أمام تحقيق أهدافها، وأعطاه مثالا بالثورة البولشـــفية وبلينين الذي سافر إلى سويسرا منفيًا وكيف وطد علاقته بأصحاب بعض المؤسسات المالية في زيورخ ليستكمل الثورة، ونصحه قبل أن يغــادر أن لا يعرض حياته للخطر دون داع، وأن يجري عندما تقتضي الضرورة لأنه سيكون أنفع حيًا عنه ميتًا! اختلط الكلام كله على علي، فأخذ يفكر فيما ينتظره عند رجوعه... شيء مماثل لهذا الصباح الذي حل عليه دون أن يكون جاهزًا لاستقباله.

لم ير علي آن مرة أخرى، ورحلت إجلال بعد ليلة السيرك بيوم. بعد رحيلها ذهب إلى عمه إبراهيم فراعه تدهور حالته، وبداية انفصاله عما حوله. إنه يعرف جيدًا معنى هذا الانفصال وفقدان الاهتمام التدريجي بكل ما هو دنيوي. رأى هذه الأعراض قبل ذلك على وجوه أفراد من عائلته عندما اقترب موعد رحيلهم. تزوغ العينان وتنقلب نظرات الإنسان إلى داخله مُحجِمة عما يحدث في الخارج. تضمحل الحاجة لاستكشاف الجديد والبهجة المصاحبة لذلك، إلى أن تختفي كلية.

***

جلس إبراهيم كمال بالبيجاما والروب على كنبة في شقته الصغيرة بمنطقة باسي. انتشرت الجرائد المصرية في المكان. أغلبها على حاله. لم يتم تصفحها. اتخذ علي مجلسًا أمامه يتأمل التغييرات التي طرأت على عمه. شعره الرمادي قَل وانتفخ وجهه بشكل غير طبيعي جراء جلسات العلاج الكيميائي.

"فعلًا ناوي ترجع دلوقت يا عمي؟ مش حتكمل العلاج هنا؟".

أجابه بصوت خافت لم يعتده علي منه "ما لهاش لازمة يا علي. ممكن أكمل الجلسات في مصر، وأبقى جنب العيال بدل الشحططة اللي أنا فيها دي، وأشوف حاعمل إيه في الأرض".

رفع علي يده مسلِّمًا بالأمر "عندك حق حاقولك إيه! لكن إيه موضوع الأرض ده؟".

"لازم ألاقي مستأجر. خلاص مش حاقدر دلوقت أروح زي الأول... إنما قل لي إنت، إيه الأخبار هناك؟ أبوك بيحكي لي طبعًا من وجهة نظره. عايز أسمع رأيك أنت".

"الموضوع أصعب مما تخيلت. يوم اقتحام مقرات أمن الدولة أثبت لي كده".

"قلت لك من الأول. مش حيسيبوها بسهولة.. والإخوان فين من كل ده؟" ثم مجيبًا سؤاله "طبعا عملوا تسويات من أول يوم. عينهم على الانتخابات وبس".

"الصندوق يا عمي.. أهم حاجة عندهم الصناديق. اللعبة بانت مع الاستفتاء على التعديلات الدستورية... اللي طلع بالفكرة دي أكيد شيطان مستخبي في جزيرة بعيدة بيخطط بشكل إحنا استحالة نتخيله".

ضحك العم لأول مرة ضحكة باهتة فانتابه سعال وظهرت عليه صعوبة في التنفس "ضحَّكْتني يا واد... بتجيب منين الأفكار دي؟".

ثم رفع إبراهيم كمال رأسه وعَدل نظارته الطبية فوق عينيه "كل ده مُتوقع ولسه. لكن إحكى لي. إنتم عملتوا إيه؟ بتتجهزوا إزاي لو وصلتم للحكم؟ فيه بديل؟.

صمت علي لوهلة قبل أن يجيب عمه وبدت إجابته دفاعية "بنتكلم عن تكوين تحالف للحركات السياسية على الأرض، كخطوة أولى قبل تكوين حزب قوي".

"والشباب مُتفقين؟ عارفين يشتغلوا مع بعض؟".

"ما هيَّ دي المشكلة... الليبراليين والاشتراكيين بيختلفوا على الأولويات، وشباب الإخوان المنشقين عايزين حاجة تالتة، وهكذا... وبعدين كُتر الحركات والائتلافات بقى مش مخلينا نعرف مين مُختَرَق ومين شغال بحق وحقيقي، وفيه حالة من الشك والتخوين".

"وإنت موقفك إيه متقبّلينك؟ ولا عليك علامات استفهام؟".

"تفتكر إيه؟". أجابه علي بتهكم، وأضاف "واحد معانا في الحركة راح قال للباقيين ياخدوا بالهم مني، وقال لهم إنتم عارفين أبوه مين". وضحك ضحكة مصطنعة "طبعًا الشباب جُم قالوا لي".

"يعني التانيين مش طايقينك ودول قلقانين منك". أجابه إبراهيم كمال بسخرية ثم نظر إليه بحنان "معلهش، مصير كل حاجة توضح.. كله حيبقى كويس".

هز علي رأسه مجاريًا عمه دون اقتناع.

أشاح إبراهيم كمال بنظره بعيدًا من خلال النافذة كمن لا يريد أن يعكر مزاجه أكثر، ثم نظر إلى علي وقال له بهدوء "احجز لي معاك.. روح مكتب مصر للطيران واشتري لنا تذكرتين رجوع أول مايو. حاديك فلوسهم".

***

اقترب موعد رحيل علي النهائي من باريس، فدعته جارته المسنة إلييت ليأخذ معها الأبريتيف الساعة الخامسة مساء يوم الجمعة الأخيرة من إبريل. صعد إليها، فوجدها جالسة في صالون منزلها ومعها ماتيلد، وانفرجت أساريرهما عندما رأياه.

رفعت إلييت يديها بحيويتها المعهودة، مرحبة "جاري العزيز. اتفضل اقعد. تحب تشرب إيه؟ بورتو؟".

"بورتو يبقى هايل يا جارتي العزيزة". أجابها علي بابتسامة واسعة. سيفتقدها هي وماتيلد وشارع چيرببير. لا يدري إن كان سيعود يومًا. صفحة من حياته تنطوي نهائيًا كما انطوت صفحات قبلها، وعليه أن يكيِّف نفسه لحياة جديدة، وأناس جدد بدلا من هؤلاء الذين سيغادرهم في هذه المحطة.

"خلاص؟ بتجهز للرحيل؟" سألته ماتيلد وهي تلتقط أنفاسها وتنظر إليه بشغف كعادتها في انتظار الإجابة، ثم ساخرة كعادتها أيضًا "مسيو علي حيبقى متفرغ للثورة وبس!" ومستكملة، كأنها تحسم الموضوع "إحكى لي أنا وجارتنا العزيزة عن خططك القادمة... غير إنهاء الرواية طبعًا".

قامت إلييت لتُحَضِر له البورتو بعناية وكأنها تُحَضِر له إليكسير سحري من داخل صومعتها في الدور الأخير. شقتها كانت أكثر إضاءة من شقته بسبب ارتفاعها، ولأنها كانت منقسمة على دورين يفصل بينهما سلم خشبي داخلي. الشجرة المقابلة لنافذته ونافذتها بسطت أغصانها حتى كادت أوراقها تسقط داخل صالون المنزل، وتناثرت أوراق وكتب كثيرة تدل على أن صاحبة المنزل ما زالت تعمل، وأنها لم تعترف بالكمبيوتر والإنترنت على الإطلاق.

سأل علي إلييت قبل أن يجيب سؤال ماتيلد "عندي سؤال عايز أسأله من ساعة ما وصلت. هيه الشجرة دي إيه؟".

ابتسمت السيدة العجوز لسؤاله وأجابته بثقة "شجرة أبو فروة".

"حتوحشني الشـــجرة دي. آنسَــتْني كتير. دلوقت فِهِمت سبب ارتباطي بها".

سألته إليبت "عايز تعرف قصة أبو فروة أو الكستناء؟".

تردد علي قبل أن يجيبها (لم يكن في حالة نفسية تسمح له بالتركيز في أي شيء آخر ما عدا ترتيبات الرحيل، وما يحدث في مصر) "كان يريد أن يعرف فقط إسم الشجرة، وتخوف أن يطول الحديث إلا أنه رغم ذلك أومأ لها مشجعًا بابتسامة باهتة".

وضعت ماتيلد يديها على وجنتيها وهي تستعد للاستماع إلى إليبت، وانطلقت الأخيرة "الشجرة دي موجودة من ساعة ما جيت هنا في شارع چيربير. لو تقدر تحكي عن اللي شافته، ممكن نعرف حاجات من وقت ثورة 1871 لحد الحرب العالمية الأخيرة.. وأنت أكيد يا علي حكيت لها حاجات كتير؟ صح؟".

انفرجت أسارير علي لما ترمي إليه جارته العجوز وكأنها كانت معه وهو يقضي الساعات الطويلة يتأمل الشجرة الضخمة بأوراقها في الربيع ثم بأغصانها عارية في الخريف ومُغطاة بالثلج في الشتاء.

استكملت إليبت، ورأى علي في عينيها الصغيرتين الزرقاوين بداية للوهج الذي رآه فيهما يوم قصت عليه حكايات البناية القديمة "الإسكندر الأكبر أول من زرع شجر الكستناء في أوروبا. اسمها

باللاتيني Castanae Sativa. الإغريق جابوها معاهم من تركيا لأوروبا. المسيحيون الأوائل كانوا بيربطوا بين الشجرة chestnut والعفة chastity. توقفت إليبت عن الكلام وأخذت تُحوِّل عينيها بين ماتيلد وعلي، إلى أن توقفت عند علي وسألته بابتسامة غامضة لاحظ فيها شيئًا لم يفهمه "عايز تعرف حكاية الشجرة دي مع الهنود الحمر؟" أومأ برأسه، فاستطردت "الهنود الحمر كانوا بيعطوا قدسية للشجرة دي، وكانوا بيتغذوا منها ويستعملوا الخشب يبنوا منه زاورق يركبوها في نهر الميسيسيبي قبل ما الأوروبيين يوصلوا شمال أمريكا.... طبعا - وبدت في عينيها نظرة أسى - الرجل الأبيض جاب معاه أمراض كتيرة ما كانوش مستعدين ليها، وجابوا شتلات من أوروبا كان فيها مرض انتشر وقضى على أربعة مليارات شجرة أبو فروة في أمريكا الشمالية.. الفصيل الأمريكي للكستناء انتهى من الوجود تقريبًا مع انتهاء وجود السكان الأصليين".

لم ترفع ماتيلد عينيها عن علي طيلة سرد جارتهما لحكاية أبو فروة، ثم قالت له وكأنها تجيب عن تساؤلاته "ما تستعجبش يا علي. إليبت اشتغلت في الزراعة ومع الفلاحين في مناطق كتيرة في أوروبا من خلال جمعيتها".

"ما كنتش متخيل..".

"لا ما كنتش طول الوقت في شارع چيربير والكنيسة فقط لو

ده تخيلك". قالتها له إلبيت مازحة، فتخيلها للحظة من خلال نظرة عينيها فتاة جريئة مفعمة بالحيوية، تتعامل مع المزارعين في بؤر ساخنة من العالم.

سـألته ماتيلد بعفويـة "إنت عارف إن إلبيـت حِضرت الثورة الرومانية".

نظـر علي إليها متسـائلا، فقامت الجارة المسـنة ووقفت أمام النافذة تسترجع ذكرياتها، واسـتدارت إليه واستطردت وهي تهز رأسـها "هيبي. أيـوه كان مش من زمـان أوي. لكن الوقت عدى بسـرعة جدًا. بعد الثورة ما قامت سنة 89، لغوا المزارع الجماعية الشيوعية، وحوّلوها لمزارع صغيرة فردية. دوري كان الشغل مع الفلاحين الصغيّرين وتوعيتهـم قبل ما تقوم كيانات جديدة ضخمة بقيادة أعضاء سابقين من الحزب الشيوعي وتبلع كل حاجة".

أنصت إليها علي بتركيز دون أن يعّقب ثم سألها "وحضرتِ إزاى الثورة هناك اتسرقت؟".

ارتسمت على وجه إلبيت ابتسامة نصف ساخرة ونصف بائسة "أيوه، شُـفت إزاي الأجهزة الأمنية وأعضاء الحزب الشـيوعي ضحُّوا بشاوشيسـكو علشـان يكملوا همَّه... في الثورة كان هناك نوعين من الناس. النوع الأول ينادي بسـقوط النموذج السـوفيتي للشـيوعية والنوع الثاني كان ينادي بسقوط شاوشيسكو وما كانش عايز يغير النظام كله. النوع التاني هو اللي حكم في الآخر".

ابتسم علي بدوره وهو يقول لهنا "يعني زيّ عندنا... لما لَقوا مبارك بيقع، فيه ناس حواليه قرروا يشاركوا علشان يعرفوا همه يكملوا من خلال نفس النظام".

"في رومانيا، ما عملوش قانون يمنع أعضاء الحزب الشيوعي بتاع شاوشيسكو إنهم يشاركوا في السياسة. إوعوا تعملوا نفس الغلطة عندكم، لأنهم في رومانيا بيدفعوا تمن الغلطة دي غالي النهارده. ما فيش حد اتحاسب غير شاوشيسكو".

أسدل الليل أولى أستاره إيذانًا بانتهاء الجلسة، فقام علي ليودع السيدتين، فقامتا ونظرت إليه ماتيلد ووضعت يدها البضة فوق كتفه وقالت له وهي تنظر إليه نظرة جدية غير التي اعتادها منها طيلة عام "أنا وإلييت عايزين نقولك حاجة مهمة".

"أيوه يا علي، مش عايزين مصيرك يكون مصير الهنود الحمر أو شجر أبو فروة بتاع أمريكا الشمالية... ما تعرَّضش حياتك للخطر على الفاضي".

طمأنهما علي بهز رأسه كما يفعل عندما لا يجد كلمات يقولها، وأضافت ماتيلد "عايزين نقرا الرواية اللي إنت ابتديتها في شارع چيربير".

وهو ينزل السـلالم الخشبية الضيقة أخذ علي يتمتم بالإنجليزية "صيادين ومحصلين..".

الفصل الرابع عشر

تندة بيضاء كبيرة، شـــبيهة في تعرجاتها بتندة الســـيرك، أظلت الجالســـين والنائمين من لفيح حرارة شـــهر يوليـــو. تعددت الخيم بمختلف ألوانها داخل صينية الميدان وفوق التبة عند مُجَمع التحرير وتشـــابكت الأوتاد والحبال فكونت غابة تتخللهـــا أكوام من الناس متناثرة عنـــد مداخل الخيام وداخلها. عربيـــات الترمس والبطاطا المشـــوية انتشـــرت خارج الصينية عند أطراف شـــارعي طلعت حرب والتحرير رغم تذمر المعتصمين المستمر والمشاجرات مع الباعة. تم نصب منصتين رئيسيتين. واحدة عند المُجمَع والأخرى عند مدخل شارع التحرير. انطلقت خُطب من مكبرات الصوت لم يتبينها أي من المفترشين الأرض.

"ربنا حيتوب علينا إمتى من الجماعة اللي عمّالين يِجَعَّروا دول. أنا مش فاهم أي حاجة من اللي بيقولوها". قالها أحمد رأفت وهو

ينتصب واقفًا ويرفع ذراعيه في الهواء.

"اهدى يا ريفو.. لسه شوية. ما تستعجلش على رزقك. لمَّا ييجوا يفُضوا الاعتصام مش حتسمع أي دوشة خالص". أجابه علي وهو ممدد على جانبه بجوار باب الخيمة الضيق يسند رأسه على يده ويتصبب عرقًا، وأضاف "المهم نلاقي حل في الحر ده أحسن خلاص بنسيح".

أجابه رأفت ساخرًا "يا أخي عندك المروحة الصيني اللي سيد جابها. استغلها أحسن من كده شوية".

مد علي يده إلى داخل الخيمة وأخرج مروحة يد تعمل ببطارية صغيرة تُضيء، ووضعها أمام وجه أحمد رأفت، فأخذ الأخير يقهقه وهو يصرخ في علي "خلاص كفاية.. كفاية.. دخلها تاني الخيمة لو سمحت... إلا هوّه سيد وسليم راجعين إمتى؟".

"حيرجعوا لما نروح إحنا نستلم منهم عند البوابات. سليم واقف عند مدخل كوبري قصر النيل وسيد عند طلعت حرب".

مد أحمد رأفت بصره تجاه الممر الذي يفصل مجموعة الخيم المتلاصقة على شكل دائرة صغيرة عن باقي الخيم داخل الصينية، وصاح مازحًا في طفل يجري وفي يده ساندويتش "تعالى هنا يا علي. وَرِّيني في إيدك إيه؟".

وقف أمامهم طفل في السابعة من عمره يرتدي بنطلون تيل

مقطوعًا من عند الُركبة وفانلة حمراء بأكمام طويلة متسخة وأجابه بصوت متقطع تشوبه السعادة "ده ساندويتش أبلة أمينة جابتهولي من فلفلة.. إيه عايز لُقمة والا إيه؟ شاكلك عايز لُقمة يا عمو ريفو".

تدخل علي على الفور وهو يمسح العرق من على جبينه "هاهاهاها... حلوة عمو ريفو دي.. تصدق لايقة عليك يا رأفت". ثم موجها كلامه للطفل "وصحابك فين النهارده يا علي؟".

"أبوهم مش عايزهم ييجوا الميدان وبيحاولوا يفلفصوا منه.. حتلاقيهم جايين بالليل يا عمو".

كان علي يقصد طفلين آخرين أكبر سنًا عادة ما يحضران مع الطفل علي، يجلسان وسط المعتصمين ويشاركانهم طعامهم ثم يرحلان مع بزوغ الفجر. لم يكن الأب هو أباهم الحقيقي بالطبع، وتساءل علي وسليم ورأفت مرارًا عن طبيعة العلاقة وتوصلا إلى استنتاج واحد، وهو أن الرجل يرعاهما مقابل أن يتسولا طيلة النهار ويأتيانه بما حصداه.

سأله علي "أُمال إنت أبوك فين يا علي؟".

أجابه الطفل بسرعة "أبويا مات وأمي اتجوزت فهربت".

بدا لعلي أنه سمع هذه القصة قبل ذلك كثيرًا لدرجة التشكك في صحتها، ولكنه فضّل أن يُجاري الطفل أمامه.

"طيب أُقعد معانا لحد ما ييجوا.... قل لي يا ريفو، هو باندا الصحراء فين؟ خيمته فاضية من الصبح".

"كان راح بيتهم ياخد دوش ويغير... حتلاقيه واصل قريب". أجابه رأفت وهو يُدخِل رأسه داخل فتحة الخيمة الضيقة في محاولة فاشلة للنوم قبل استلام وردية الحراسة للميدان.

"طيب ناولني إزازة ميَّة قبل ما تنام، بس ساقعة لو سمحت".

قذف إليه رأفت بزجاجة مياه دون أن يقول كلمة، فأخذها علي وهو يبتسم وأخذ رشفة وهو يتذكر ما أدى به خلال الأيام السابقة لأن يجد نفسه حيث هو الآن...

ليلة الثلاثاء 28 يونيو، كان يجلس مع عمه في غرفة معيشته الواسعة بنوافذها المفتوحة من كل جانب لخلق تيار من الهواء، ومعهما ابن عمه الصغير. انهمك مع إبراهيم كمال في أحد أحاديثهما التي لا تنتهي، وجلس الصغير يستمع رغم عدم فهمه لنصف ما يقولانه، ولكنه لم يتحرك كما يفعل عادة وأخذ ينصت بتركيز وكأنه يستوعب التعبيرات السياسية المعقدة التي يستخدمها أبوه وابن عمه. شارفت الساعة على الثامنة، وأخذ علي يُقلب في الأخبار على هاتفه من خلال تويتر، عندما تتابعت تغريدات تتحدث عن التعدي على أناس حاولوا الدخول إلى مسرح البالون لحضور حفل أقامته وزارة الثقافة لتكريم أهالي الشهداء. تتابعت الأخبار وتضاربت بين

من يقول إن من مُنعوا من الدخول هم أهالي شهداء الثورة وآخرين يدّعون أنهم مجموعات حاولت اقتحام المكان واعتدوا بالعِصِيّ على قوات الشرطة من أمام المسرح. وسرعان ما انتقلت المعركة إلى ميدان التحرير، وعرف علي أن آخرين من حركة ثورة النيل وسط الاشتباكات، وأن مدرعات الأمن المركزي انتشرت على مداخل ميدان التحرير. اتصل علي بعضو من أعضاء الحركة اسمه وليام كان رأى تغريدات له توضح وجوده داخل الاشتباكات، إلا أن وليام لم يجبه. نظر إليه إبراهيم كمال وبدأ يلحظ انفصال ابن شقيقه عن الحديث ولمعة في عينيه الضيقتين لم تكن موجودة منذ دقائق، فسأله عما يدور في ذهنه، وعندما أبلغه علي أنه سيتجه إلى الميدان، نظر إليه العم بعينيه المجهدتين من خلف عدسات نظارته الطبية نظرة متفهمة لما هو مقدم عليه، وقال له بصوته المتهدج "ياللا روح يا علوة". ثم مستندًا على ابنه ليقف ويضع يده على كتف ابن شقيقه "خُد بالك على نفسك. إنت ما بقاش عندك عشرين سنة".

"ما تقلقش يا عمي باعرف أجري أحسن من أي واحد عنده عشرين سنة".

أضواء ميدان التحرير كانت خافتة عندما دخله من ناحية ميدان عبد المنعم رياض. وجد علي مسيرة فيها عشرات تتجه من ناحية المتحف إلى الميدان المُغطى بسحب القنابل المسيلة للدموع، فانضم إليها، وأخذوا يهتفون "الجدع جدع والجبان جبان، وإحنا يا جدع

راجعين الميدان". على يساره رأى مدرعة واقفة على ناصية شارع طلعت حرب وأخرى على ناصية شارع التحرير. اتجه إلى تقاطع شارع محمد محمود حيث كانت الاشتباكات على أشدها، ولمح وليام وسط الحشود بشعره المجعد وجسده النحيف ممسكًا بجانب منفصل من قفص خشبي يرفعه فوق رأسه كدرع، ولمحه ينحني إلى الأرض ليلتقط حجرًا ثم يجري إلى داخل الشارع ويقذفه بعزم قوته ويرجع مرة أخرى إلى مركزه الأول خلف السور الأخضر أمام ناصية محمد محمود بجوار مبنى الجامعة الأمريكية الرئيسي.

هتـــف علي وهو يقترب من مركز الاشـــتباك "وليـــام.. وليام. حاولت أكلمك".

التفت إليه وليام وأجابه بتذمر وهو يتقدم مرة أخرى للأمام "عايزني أرُد عليك إزاي..".

"طيب قل لي همه واقفين فين دلوقت؟".

أجابه وليام بنفاد صبر "زقّيناهم لمدخل المكتبة... من شوية دخلوا الميدان لكن رجَعناهم". ثم جرى مرة أخرى واختفى داخل ظلام محمد محمود، فانحنى علي ليأخذ طوبة من الأرض ورماها بكل قوته في الهواء وسط عشرات الحجارة التي أخذت تتساقط من حوله في جميع الاتجاهات. وقتها أحس أن هناك شيئًا تغير من حوله في المشهد. الأرصفة المكسورة من حوله والحجارة المتناثرة

في عرض الشارع بين مبنيي جامعته القديمة، ثم تقدم أكثر إلى وسط الشارع فرأى القوات المتشحة بالسواد والمدرعة تحاول أن تتقدم بسرعة في اتجاههم، واندمج في الكر والفر. نسيَ أن حوله آخرين، ولم يحاول أن يبحث عن وليام مرة أخرى، وانطلقت قنابل المسيل تتطاير في الهواء من جميع اتجاهات مداخل الميدان. نظر إلى أعلى وهو يجري عائدا إلى مركز الميدان، فلمح قنبلة مسيلة وكأنها تتبعه وتدور في الهواء، كلما تقدم تقدمت معه، وبدأ يشعر بتأثير دخانها عليه، وأحس أن قوته على وشك أن تخور وهو يجري إلى مدخل كوبري قصر النيل، إلا أنه توقف للحظة عندما وجد طفلا صغيرًا لا يتجاوز العاشرة يقف وسط الصينية يشاهد بكّل هدوء كرنفال القنابل المسيلة للدموع المنبعثة من كل الأطراف غير متأثر بالهرج والفوضى من حوله. أخرج هاتفه سريعًا والتقط صورة للطفل المرتدي كوفية فلسطينية. لم يصدق علي لوهلة أن ما يراه حقيقي. بدأت عيناه تزغلل وتحرقه بشدة ولم يستطع أن يتوقف أكثر من ذلك ورجع إلى الوراء بعد أن أدرك للحظة رغم الدوار الذي أصابه أن توقفه سيعني وقوعه واحتمالية أن يدهسه الذين يجرون فرًا من المدرعة التي تقدمت مرة أخرى إلى مطعم هارديز المُطل على مدخل الميدان.

تجمهر كثيرون ممن كانوا منذ دقائق داخل الاشتباكات بشارع محمد محمود عند تمثال عمر مكرم وعند مدخل كوبري قصر

النيل. وقف المُدَوّن باندا الصحراء بجسده الضخم البارز وسط الحشد، يتحدث بصوت عال مع آخرين انضموا إليه. أخذ جسده ووجهه يهتزان وهو يقهقه ويؤكد لمن حوله "حطّينا عليهم جامد، وبعدين لسه الليلة بتقول يا هادي". اقترب علي من الجمع وهو يبدو عليه الإعياء، فرماه أحدهم بكولا على وجهه، فاسترد وعيه بعض الشيء. "باقولك إيه يا باندا.. رجعوا لورا تاني بس لو كملوا كده حيخشوا الميدان قبل الفجر أكيد".

أجابه باندا بكل ثقة "ما تقلقش.. لسه فيه ناس كتير جاية.. الليلة لسه بتبتدي".

جلسا على رصيف الصينية المقابل لمدخل الكوبري، وبدأ الناس يتوافدون. لمح علي من مسافة سيد ورباب وتبعهما سليم ورأفت وأمينة. كان قد نسيَ أن يكلمهم جميعًا.

حكى لهم ما حدث، وعن الدعوات للاعتصام يوم 8 يوليو التي انتشرت في أرجاء الميدان. لم يمهله سيد الفرصة واتجه إلى مدخل محمد محمود بخطوة ثابتة يغطي وجهه بكوفية فلسطينية. لمحه علي وهو يلتقط طوبًا من الأرض ويقذف من على بُعد ثم يقترب أكثر إلى أن اختفى داخل حلكة ظلام محمد محمود.

انشغلوا كلهم بالحديث متناسين حصارهم من كل فتحات الميدان واحتمال حدوث كماشة في أي لحظة. عاد سيد وفي يده الطفل الذي

لمحه علي منذ قليل وهو منهمك بحديث معه "مش عايزك تتحرك من هنا تاني.. فاهمني؟ اقعد هنا مع المجموعة بتاعتنا وحِسك عينك أشوفك وسط الضرب تاني".

لم يبد على الطفل أي أثر للاقتناع بكلام سيد، رغم نبرته الجادة المتوعدة، وارتسمت على وجهه ابتسامة لم تتغير واتجه ليجلس وسطهم بكل ثقة وكأنه معهم يحارب من أجل أسباب يعرفها جيدًا. تبادل سليم وعلي الابتسامات وهما يسترقان النظر للطفل علي الذي لا يتجاوز العاشرة من عمره، نفس سن شريف ابن سليم، وانهمكت أمينة مع رباب صديقة سيد في تحضير المستلزمات الطبية من شاش وبيتادين لعمل الإسعافات الأولية للمصابين. اتجه أحمد رأفت ليرى ما يحدث ناحية شارع قصر العيني حيث كانت هناك جبهة أخرى مفتوحة ومدرعة أخرى تحاول اقتحام الميدان. بدا على باندا الصحراء الضجر في جلسته على طرف الصينية، فمد يده لعلي "شدني لفوق؟ تيجي نروح نرميلنا طوبتين؟".

شده علي فرجع جسده للوراء حتى كاد أن يقع، وأجابه بغبطة لم يعلم مصدرها "ياللا بينا يا مان".

اتجه الاثنان إلى المركز مرة أخرى، وعندما وجدا الأعداد تتزايد من حولهما، جريا إلى مصدر الاشتباكات الأول.

سأله باندا "تحب نروح على محمد محمود؟ صح؟".

أجابه علي وهو يجري "أي حاجة.. أيوه محمد محمود.. تعالى نشوف اللي بيحصل هناك".

وصلا إلى مدخل الشارع فرأيا المدرعة تقترب بأضوائها المبهرة، فتنحيا جانبا، وانحنيا ليلتقطا حجرين ويقذفاهما بسرعة قبل أن يجريا مرة أخرى مع الكتلة البشرية العائدة من الداخل، وكاد باندا الصحراء أن يدهس أحدهما وهو يضع يده العريضة فوق كتف علي وأخذ يقهقه مرة أخرى، فضحك علي ملء فيه وهو يقول له وهما ما زالا يجريان "واللـه حاجة عسل خالص".

"ضحك السنين؟ صح؟ أهلا بيك يا أستاذ في ثورة السيريالية واللا معقول".

عادا إلى حيث كانا منذ قليل في المرة الأولى. اختفت أمينة ورباب. خمن أنهما لا بد ذهبتا لعمل الإسعافات الأولية للمصابين. وانزوى أحمد رأفت إلى جانب الرصيف المقابل لمبنى جامعة الدول العربية. انهمك في كتابة تقرير سريع لجريدته على هاتفه. ولمح سليم جالسًا على الأرض منهمكًا في حديث مع الطفل علي.

***

أُسدل الستار على المسرح بعد أن اجتاحت القاعة عاصفة من التصفيق، وبقيَ الممثلون على خشبة المسرح دون جمهور، فأصابهم الضجر وأخذوا يتنازعون على الأدوار ويتراشقون الاتهامات عن

من تسبب منهم في إخلاء القاعة وانصراف المشاهدين.

بريق الثمانية عشر يومًا الأولى الذي جذب أنظار العالم كله لم يكن حاضرًا خلال اعتصام يوليو. عندما تعددت المطالب تفرق الثوار. كما توحدوا على إسقاط شخص، تفرقوا عندما واجهوا النظام بأكمله. تعددت مطالب اعتصام يوليو، حتى تاهت، وفقد الناس اهتمامهم وسرعان ما بدأت الأغلبية تشير بإصبع الإتهام إلى هؤلاء الذين احتلوا قلب القاهرة وعطلوا مصالح الناس.

انقضت أيام وسط هذه الاختلافات وانصرف الجميع بالميدان إلى إدارة حياتهم اليومية وتأمين مداخل الميدان من أي هجمات متوقعة من قوات الأمن أو من مأجورين يحاولون كل حين اقتحام الميدان، وبدأت معارك تنشب بين الباعة الجائلين، وأحيانًا بين صفوف المعتصمين.

انهمك سليم في سؤال الوافدين إلى الميدان عن بطاقاتهم الشخصية، وفي إعطاء توجيهات إلى شابين من حوله أخذا يعبران الجزيرة التي تفصل بين اتجاهي الشارع أمام مبنى جامعة الدول العربية ذهابًا وإيابًا ليتأكدا أن أحدًا لا يحاول الدخول في غفلة عنهم من الاتجاه العكسي. وقف حيث مبنى وزارة الخارجية القديم خلفه بطرازه المعماري النيو باروكي ونوافذه العريضة المزخرفة.

ارتفعت الشمس في السماء فوق الميدان إيذانًا بتجاوز الظهر بقليل، وأصبحـــت حرارة الجو لا تطاق، فخلى التحرير إلا من بعض من أتوا مبكـــرًا والباعة الجائلين الذين توزعوا فـــي الميدان في حالة تأهب وانتظار لانكســـار الحرارة. توافد بعض الناس تدريجيًا على الميدان لقضاء الليل.

معظم من أتوا التحرير في هذا اليوم كانوا من العائلات المتوسطة ودون المتوسطة. ساقهم الفضول ليتعرفوا على تلك المدينة داخل المدينة. كثيرون جاءوا من مناطق ريفية قريبة ليشاهدوا المكان الذي رأوه من خلال الشاشات فقط.

اعتلت وجه سليم ابتسامة ساخرة بطرف فيه، لم يكن يريها للناس معظم الوقت "أحقًا ما يحدث؟ أنا سليم رياض أقف على باب مزار سياحي، على مدخل مولد سيدي التحرير؟ بالتأكيد ما أقوم به لا يمت بصلة بما قمت به يوم 28 يناير. نحن من شارك في طريقنا لأن نصبح مسخًا لرغباتنا. يفعلون ذلك بنا ونحن نرى ونلعب لعبتهم طواعية. ألهذا تركت كل شيء؟ لميدان فارغ إلا من بعض الباعة الجائلين والعاطلين عن العمل، ولكنه ليس هناك كل شيء. لقد جربت أن أعود داخل المنظومة ففشلت مرة أخرى. ليس هناك طريق آخر الآن إلا هذا الذي اخترته. أنا وأحمد رأفت، وعلي كمال.. لا بد أن علي أيضا مجنون. ترك فرصًا بالملايين وذهب إلى باريس ليكتب الشعر، ثم ترك باريس ليحضر إلى هنا ليجلس

في درجة حرارة فوق الـ 40 داخل هذا الميدان الذي أصبح كمدينة أشباح خلال النهار ويتحول إلى مملكة للعجائب خلال الليل.

انتشله صوت صياح من أفكاره. تعالت أصوات من وسط الميدان حيث خيمتهم، فابتعد سليم عن الحاجز الذي يحرسه بعد أن أكد على شاب صغير على درجة عالية من الحماس "اسأل عن البطايق وما تخليش حد يعدي من غير إثبات شخصية حتى لو تعرفه". هز الشاب رأسه بنفس الحماسة الزائدة.

جاء أحمد رأفت مسرعًا في اتجاه سليم وصاح بتلعثم "الحق فيه قلق عند خيامنا".

سأله سليم محاولا إبداء هدوئه المعتاد "إيه اللي بيحصل؟ مين من عندنا؟".

"ما أعرفش. علي جوّه الخناقة".

"لوحده؟". سأله سليم وقد بدأت نبرة قلق تعتلي صوته.

"مش عارف. ما فيش حد موجود. أنا كنت قاعد أكتب حاجة جوه فرن الخيمة، وخرجت على دوْشة، وحلاق الميدان قال لي إن علي كمال جوّه الخناقة".

"طيب ياللا بينا بسرعة". جرى سليم إلى حيث الضوضاء خلف خيمة مجموعة لا للمحاكمات العسكرية. لم يتبين في البداية إلا مجموعات متشابكة وصيحة استغاثة "والله ما فلول. صدقوني

والله مانا فلول.. سيبوني أبوس إيدكم".

تعالى صوت علي "ما حدش حيقرب منه إلا على جثتي".

استطاع سليم أن يرى علي وسط كومة من اللحم يُغطي الضحية بجسده ويدفع المهاجمين بيده يمينًا ويسارًا.

قفز سليم بكل قوته وسط كوم اللحم وانتزع علي، وقبل أن يحتاج أن يقول شيئًا، حضر سيد وبصوته الجهوري الذي يعرفه معظم المهاجمين صاح فيهم "فيه إيه؟ فيه إيه ياض إنت وهو؟ إنتم بتحاولوا تتهجّموا عل أستاذ علي والا إيه؟ إنتم مش عارفين ده مين والا إيه؟ ده معايا". تعبيرات وجه سيد لم تدع لأحد من المهاجمين فرصة ليعترض. صوته العالي بنبرته الشعبية وتعبيرات الحرب على وجهه جعلتهم يتفرَّقون أسرع مما توقع سليم.

انتزع سيد بمساعدة علي الضحية بكل قوته، شابًا في أوائل العشرينيات هزيل الجسد، بسيط المظهر، يرتدي بنطلونًا بنيًا تيلًا وقميصًا مُقلمًا طراز الثمانينيات. يفرق شعره البني من الجانب الأيمن ويرتدي نظارة طبية سميكة كُسرت فنزفت عيناه. كان جسده كله يرتعش من الخوف. ملابسه تمزقت بالكامل وظهرت بعض الكدمات المتفرقة على وجهه.

"ما تقلقش، حناخدك أنا والشباب ونوصّلك لحد بره". قالها سيد وهو يربت على كتف الشاب، ثم جذبه من يده وإلى جانبه سليم

وعلي ورأفت، وأضاف "صلِّ على النبي.. معلهش اهدى اهدى.. الحمد للـه الأستاذ علي لِحقك... إنما قل لي.. إنت قلت لهم إيه؟".

"واللـه حضرتك كنت باتكلم معاهم كلام عام جدًا. باسأل أسئلة عامة جدًا.. كنت باسأل عن أسباب الاعتصام وبتناقش معاهم. واحد قال لي عايزين نطهر القضاء والداخلية ونحاكم مبارك، فطلبت منه يشرح لي.. يبقى أنا غلطت كده؟... واللـه حضرتك باعمل بحث دراسات عليا..." بدأ الشاب يتشنج كالأطفال من أثر البكاء، فربت علي فوق كتفه بتحفظ "معلهش إحنا مقدرين الخضة.. تصدق يا سيد افتكروه أمن دولة وبعدين ابتدوا يتهموه إنه فلول".

تأفف سليم ولكنه بقيَ بعيدًا واكتفى بقول "مسميات غبية وجاهلة". وهو يستعد للرجوع إلى مكانه عند البوابة، ولكنه استدار فجأة ونادى علي "عايز أقول لك كلمة سريعة قبل ما توصله".

أخذه علي جانبًا وسأل سليم بصوت خافت وهو يأخذ نفسًا عميقًا "خير قل لي".

نظر إليه سليم في عينيه وأجابه بجدية "خد بالك على نفسك.. ما فيش داعي".

"ما فيش داعي لإيه؟".

"ما تصَدّرش نفسك في مشاكل زي دي، أرجوك".

سأله علي بسخرية "ليه علشان ما يعرفوش أنا مين؟ أنت قلقت أكون أنا اللي بَتِعجن لما قالوا واحد فلول. صح يا سليم؟".

نظر سليم إلى علي نظرة ملية، فرآه لم يهتز ورأى فيه إصرارًا لم يلحظه قبل ذلك. وأحس علي في هذه اللحظة أنه قادر على فعل وتغيير أي شيء يريده. سيغير قصر النظر وضيق الأفق عند الجميع. "جمهورية هنا ومملكة في السماء". أضاف علي وابتسامة ساخرة على وجهه مثل تلك التي كنت تكتسي وجه سليم منذ قليل عند البوابات "ما تشيلش هَم، وحتى لو عرفوا أنا مين ما تشيلش هَم. حاتصرف".

***

ارتفع القمر كاملا يضيء الميدان فانعكس ضوؤه على الحضور. افترشوا الأرض على شكل حلقة تتوسط خيمة باندا الصحراء وخيمة لا للمحاكمات العسكرية. سليم سارح في أفكاره البعيدة، وأحمد رأفت يكتب تقريره الصحفي اليومي وإلى جانبهما أمينة انشغلت في حديث مع فتاة تدعى زينب المسئولة عن مدرسة أطفال الشوارع التي تم نصبها إلى جانب الخيمتين، واحتوت الطفل علي وصديقيه الأكبر سنًا عندما كانا ينجحان في الإفلات من قبضة الرجل الذي يدّعي أنه أبوهما. أغلق باندا الصحراء ستارة خيمته إيذانًا أنه خلد للنوم لبعض الوقت، وأنه لا يريد إزعاجًا. تمكن

المعتصمون في الأيام السابقة من توصيل مراوح عملاقة بأعمدة النور الموجودة في أطراف الصينية، فانبعث هواء لَطّف الأجواء وجعل الجلسة أكثر احتمالا عن الأيام السابقة.

وقف علي يتبادل الحديث مع حلاق الميدان. نصب الرجل تندة بملاءات منزلية مقطوعة ربطها على أوتاد من الخشب خلف خيام باندا ولا للمحاكمات العسكرية. كُتب على التندة الزهرية اللون من الخارج بإسبراي أسود: "صالون القلة المندسة يرحب بالسادة البلطجية" ووضع كرسيًا تحت التندة وحصل على الكهرباء بنفس طريقة المراوح عن طريق أعمدة النور لتشغيل ماكينة الحلاقة. جلست زوجته صامتة على الأرض متشحه بملاءة سوداء، وفي حجرها طفل عمره عام ينظر إلى أبيه في شغف.

"يا أستاذ علي أعملك شاي.. المدام عندي حتعملهولك في ثوانٍ. السبرتاية جاهزة". كل شيء في وجه أسطى محمد النحيف بعث الطمأنينة والأمل في نفس علي. هدوء ملامحه وانفراجة أساريره بشكل شبه مستمر وبساطته في الحديث، التندة الصغيرة عكست هذه الطاقة، فجذبت الزبائن من أطراف الميدان وخارجه.

"لسه شارب والله ياسطى محمد.. تسلم".

"إنما يا أستاذ علي هي الدنيا هديت شوية ولا أنا بيتهيأ لي؟".

"شوية أيوه. فيه ناس بتخرج وما بترجعش وبعدين إشاعات

قرب فض الاعتصام اللي التليفزيون شغال عليها".

"ربنا يستر علينا".

"حتعمل إيه لو فضوا زي ما بيقولوا؟".

"والله ما عارف يا باشا. ما أنت عارف اللي فيها".

قصد الحلاق طرده من محل كان يعمل به إلى جانب مسكنه في مدينة السلام قبل بداية الاعتصام بأيام ومديونيته التي دفعته إلى الحضور للعمل داخل الاعتصام.

"معلهش يا بو محمود تنحل إن شاء الله".

جاءه صوت باندا الصحراء من خلف خيمتهم يناديه "تعالى احضرنا شوية يا علي في خيمتي".

"بالإذن يا سطى محمد". ربت علي فوق رأس الصغير الذي كان بدأ يحبو تجاههما وهو يحاول الوقوف مستندًا على ركبة أبيه، وتبادل ابتسامة مع الحلاق قبل أن يذهب حيث الآخرون.

تنقَّل علي بعينيه بين الخيام فرأى في حلقة بين الخيام الملونة المجاورة الفتاة زينب، وهي تكتب الحروف بالعربية على سبورة صغيرة موضوعة على الأرض وإلى جانبها الطفل علي وصديقاه الأكبر سنا يُسَمِّعون الأحرف وراءها، وجلست أمينة إلى جانبهم في نفس الحلقة، تساعد زينب وتكافئ الأطفال بحلويات. لا بد أنه

وقع في عالم موازٍ أفلاطوني. عالم فيه استمرارية لعامل الحقائب في المطار الذي يتعفف عن البقشيش، وسائق التاكسي الثوري، والشباب الذي عبر إلى جانبه وهو داخل سيارة الأجرة وهم يهتفون "ارفع راسك فوق إنت مصري".

انطفأت أنوار الكشافات واحدًا وراء الآخر، وخلد أغلب المعتصمون للنوم في خيامهم وفي الخلاء، وخفتت بالتدريج الضوضاء المنبعثة من المنصات. تمدد علي مستندًا على وسادة أمام مدخل خيمة باندا الصحراء وأخذ يدخن وهو يحاول تتبُّع القمر من خلال الفتحات الضيقة التي تفصل التند البيضاء العملاقة التي غطت وسط الميدان بأكمله. انبعث صوت غناء خافت من وراء مدرسة أطفال الشوارع. حاول أن يتبين الكلام، فسمع أحدًا يشدو:

"شربت من كاس محبوبي وعشقت نيل أسمر نوبي

وغسلت فيه بدني وتوبي وكتبت اسمه على زندي

آمان آمان بيرم أفندي

يا مصر قومي وشدي الحيل كل اللي تتمنيه عندي

لا القهر يطويني ولا الليل

أمان أمان بيرم أفندي".

قام بهدوء كي لا يوقظ أحدًا ممن في الخيم من حوله، وتقدم إلى أن وجد أكبر الأطفال الثلاثة، يغني بصوت عذب وقد التف حوله الطفلان الآخران وزينب مدرِّستهم. لمحوه، فتوقف، ولكن علي أشار إليه أن لا يتوقف "ممكن أقعد معاكم شوية؟".

رحبت به الفتاة "طبعًا. اتفضل".

"ده علي صاحبي". عَرَفه الطفل علي وكأنه يوصي عليه، فابتسمت زينب وبدت قسمات وجهها لعلي لا تقلّ طفولة عن من حولها، فاستراح وجلس إلى جانبهم، وأكمل أكبر الأطفال غناءه.

"باشوفِك كتير بس ما جَتلناش فرصة نتكلم قبل كده. بتبقي مشغولة مع الولاد".

أومأت زينب "وأنت بتبقى في خيمة باندا. أمينة بتروح وتيجي عليكم".

سادت لحظة صمت، وابتعد الأطفال عند أطراف الصينية، فسألته "بقالك كتير ما روّحتش؟".

"لا باروّح وأرجع. الصبح ساعات الجو بيبقى حر بزيادة، وأنت؟".

"ما روّحتش بقالي خمسة أيام".

تأملها علي، واكتفى بقوله "إنتي أحسن مني".

ظهر الطفل علي من وراء خيمة زرقاء صغيرة مجاورة، بابتسامته الشقية، واقترب من علي ثم أخذ يربت على كتفه بيده الصغيرة "عمو عمو" - كان أحيانًا يقول له عمو عندما يريد شيئًا، وأحيانًا يكتفي بندائه باسمه - "عايزك تجيبلي حاجة".

"قل لي يا علي. عايز إيه؟".

"عايزك تجيبلي بطاطا.. وكُشري كمان".

"بس تلاقيهم روّحوا خلاص".

"لا يا عمو ما روَّحوش. أنا كنت لسه هناك أنا وهشام وحامد. وموجودين".

تبادل علي نظرة لها معنى مع زينب، واستجمع قواه وانتصب واقفا "ياللا بينا يا أستاذ. ورِّيني فين".

جذبه الطفل من يده ولمعت عيناه وهو يقوده إلى حيث عربة البطاطا.

عندما عاد علي وجد زينب تمددت تأهبًا للنوم، فجلس دون أن ينبس كلمة. سألته "حتبات هنا النهارده؟"، وأجابها "مش متأكد". فكر للحظة أن يدخل إلى خيمة باندا أو يجد لنفسه مكانًا آخر ينام فيه ولكنه بقيَ متيقظًا يقاوم النوم والكل حوله في سبات عميق، إلى أن انزوى القمر وهبّت نسمات فجر جديد، فوقف يتأمل لون

السماء الأزرق قبل أن يتلوث، ومشى في اتجاه كوبري قصر النيل وملأ رئتيه مرة أخرى بنسيم هب من فوق النهر. وقف علي في نفس المكان الذي وقف فيه سليم عندما رأى مركب الصيد والفتاة الصغيرة مع أبيها، وراودته نفس الفكرة. كل شيء هنا كما هو لم يتغير منذ مائة عام. يكفي أن تنظر إلى النهر وتتجاهل كل الضوضاء من حولك لتتأكد أن شيئًا لم يتغير. ربما التغيير حدث بداخله فقط وبداخل هؤلاء الذين تركهم في الخيام وراءه. تمنى لو أن الوقت توقف هنا عند هذه اللحظة، ثم أكمل طريقه وهو يغالب النعاس.

***

مرت الأيام ببطء، وانتاب أغلب المعتصمون إحساس أنهم أصبحوا ديكورًا، وأنهم يُضيِّعون وقتهم، واختلفت الأحزاب السياسية والحركات على جدوى إبقاء الاعتصام أو تعليقه. بقيَ الباعة الجائلون وزادت المعارك داخل الميدان بين الباعة وبعضهم وأحيانا بين قاطني الخيام ممن لهم انحيازات أيديولوجية مختلفة.

دخل شاب ربعة حليق الرأس له عينان ثاقبتان وأنف عريض إلى خيمة باندا ذات ظهيرة مقاطعًا حديثه مع علي كمال وسليم رياض، قائلا "لو سمحتم عايزينكم في كلمة".

نظر إليه ثلاثتهم بتعجب وأجابه سليم بأدبه المعتاد "اتفضل، إحنا معاك".

أجابه الوافد بأدب مصطنع مبالغ فيه "دلوقت حضراتكم زي ما أنتم عارفين، فيه احتمال الاعتصام ينفض في أي وقت وإحنا من باب التأمين حنرقم الخيم دلوقت".

نظر إليه باندا نظرة تشكك وأجابه باقتضاب "مش فاهم صلة التأمين بترقيم الخيم". وأضاف بتأفف "وبعدين أنا ما شوفتكش قبل كده مع مجموعات التأمين".

أخذ الوافد يشرح، ولم يفهم أحدهم من كلامه شيئًا، وتبادلوا النظرات في ريبة. ولكي ينهي سليم الحديث، أكد له أنهم ليس لديهم مانع من الترقيم بشرط أن يكون بالتنسيق مع باقي المجموعات.

لم ينتظر باندا الصحراء كثيرًا بعد خروج الغريب وانطلق "انتم فاهمين ده معناه إيه؟" ودون أن ينتظر إجابة من أحدهما أضاف "معناه إن الأمن بيعِّلم علينا، ودي رسالة واضحة جدًا بيبعتوها لنا قبل الفض".

"تفتكر؟" سأله علي وهو على يقين من صحة كلام باندا.

"كلام باندا صحيح مائة في المائة على فكره". أجابه سليم وهو يفكر بعمق "حد شاف الجدع ده هنا قبل كده؟".

تفكّر علي قليلا وقال "لا ما حدش شافه... يبقى لازم نتصرف لو الكلام ده صحيح".

"ما فيش صِرفة". أجابه باندا وهو يكاد يصرخ "الصِرفة الوحيدة دلوقت هيه إن إحنا نسيب الاعتصام كفاية كده".

"وحتعرف تقنع الباقيين؟" - سأله علي - "على فكرة.. أنا موافقك".

"وأنا كمان أكيد". أضاف سليم".

دخل عليهم من باب الخيمة أكبر الأطفال، هشام، فلم يرق ذلك لباندا. فهم أنه استمع إلى الحديث عندما قال لهم "عايز أقول حاجة يا أستاذ علي".

"قول يا هشام".

"الراجل اللي كان لسه عندكم في الخيمة ده مش كويس".

"مش كويس إزاي. اشرح بسرعة علشان إحنا في اجتماع".

"شوفته واقف مع الحكومة في شارع البستان وأنا رايح أجيب ساندويتشات المرة اللي فاتت".

هز علي رأسه إيجابا ثم قال له "تمام.. شكرًا يا هشام. روح إنت وأشوفك كمان شوية".

صاح باندا الصحراء وهو يستعد للوقوف "مش حستنى أقنع الباقيين. كفاية بقى نلعب دور الضحية..".

"البنات مش حيعوزوا يسيبوا الأطفال بالذات زينب. مرتبطة بالمدرسة وبالعيال".

كاد باندا يفقد أعصابه "باقولك إيه... معلهش بقى العيال دي في الآخر مع كل احترامنا لحقوق الطفل وكده، بس العيال دي في الأغلب حرامية". وبعد لحظة صمت ليلتقط أنفاسه وبلهجة العارف ببواطن الأمور "مين اللي سرق لاب توب أحمد رأفت؟ حد عارف؟".

قرر علي في هذه اللحظة أن يستفز باندا أكثر. وجد شيئًا في هذا الحديث كاسرًا للرتابة والملل فأراد أن يطيله ليجد مجالا للضحك لبعض الوقت.

"حيقولوا عليك فاشي كده". قالها وكتم ضحكته، ولكن سليم بعد أن فهم ما يرمي إليه لم يستطع أن يكتم ضحكته، فأكمل باندا انفجاره "كفاية يوتوبيا".

ما ودّاش الثورة دي في داهية إلا اليوتوبيا المبالغ فيها، وكفاية رمزية، وأحلام عصافير".

"يعني خلاص حتمشي فعلا؟"؛ سأله علي بعد أن حاول أن يسترجع جدية الحديث "قرار نهائي؟".

بدأ باندا يجمع حاجاته وأجابه دون أن ينظر إليه "أيوه نهائي".

"وأنا كمان يا علي. الاعتصام فقد هويته وضاعت أهدافه. أي قُعاد أكتر من كده مضيعة للوقت". قالها سليم وظهرت عليه علامات القرف كما كان يظهر عليه كثيرًا أخيرًا.

"طيب ومسيرة 23 يوليو لوزارة الدفاع يا جماعة؟ فاضل عليها يومين".

انفجر باندا مرة أخرى "مسيرة إيه بس. بُص يا علي أنا بقالي من 2005 في الموضوع ده، وما فوّتتش أي فعالية مهمة، لكن أنا عايز أقولك إن المسيرة دي انتحار، وما حدش حيتعاطف معاكم".

"أنا موافق باندا في كلامه.. إحنا مش عارفين مصدر الدعوة للمسيرة دي. وفيه احتمال كبير جدًا إنها حتكون فخ. ليس إلا".

سرح علي بأفكاره قليلا وأجابهما وهو يعلم أن كلامهما صائب " أنا موافق على تعليق الاعتصام لكنني حاشارك في المسيرة".

***

"إن كنت تشكل خطرًا حقيقيًا على الآلة التي تُسمى بهتانًا بالنظام، فسيشيطنوك، ثم يتجاهلوك بعد أن يدينوك ويأتوك في أكل عيشك لتختلف أولوياتك وتندم على اليوم الذي سوّلت لك نفسك فيه أن تعترض. تجد نفسك منبوذًا.. مغضوبًا عليك من المجتمع، وغير قادر أن تعول نفسك". ولكن كما تراءى لعلي "إن تجاوزْت كل

هذا، واستوعبتَ أسبابه جيدًا، وتجاهلت شكوكك في نفسك ونحيْتها جانبًـــا.. عندها فقط يبـــدأ الصدام الحقيقي.. عندهـــا فقط تتأتّى لك فرصة محاربة الظلم، وربما.. من يعرف؟ تُسقط هذه الآلة الجبارة بعد أن تتحلل أسطورتها". تضاربت هذه الأفكار في ذهن علي وهو يتقدم في شارع رمسيس مع المسيرة، يقاوم الحرارة والعطش وإلى جانبه أحمد رأفت وأمينة ظهر عليهما الإعياء.

تعالـــت هتافات "ما زهقنـــاش ما زهقناش.. ثـــورة كاملة وإلا بلاش". من حولهم. نظر علـــي وراءه. مئات... بل آلاف تحركوا مـــن الاعتصام في هذا اليوم من ذكـــرى يوليو 1952 متجهين إلى وزارة الدفاع ليطالبوا المجلس العســكري بتســليم الســلطة على الفور. أجج من مشاعر الغضب لدى المعتصمين، إصرار المجلس العسكري على الاحتفال بـ"ثورة 1952" وربطها ب 25 يناير، مما رأى فيـــه البعض تضاربًا ورآى البعض الآخر اســتهزاء بالثورة الشعبية وإصرارًا على الإبقاء على شرعية وَلت. لم تتحقق أي من مطالب الاعتصام، إلا تغيير صوري في الحكومة.

سأل علي أحمد رأفت "تفتكر واقفين لنا فين يا ريفو؟".

أجابه وهو يمسح العرق عن جبينه بمنديل كلينكس متهالك "ما أظنش حنعدي مسجد النور. سمعت إن أوريدي فيه قوات شرطة عسكرية مستنيانا هناك!".

تدخلت أمينة بصوت ضعيف "الظاهر سليم كان عنده حق إنه يرفض ييجي المسيرة".

"ما هو الناس خلاص زهقت من القعدة في الميدان، والاعتصام بدأ يِصَفي". أجابها علي "الحر مش طبيعي.. تيجو نُقف عند بتاع عصير القصب اللي هناك نشرب حاجة قبل ما نكمل؟".

تنحوا جانبًا من المسيرة بعد السور المحيط بمبنى مدرسة الجيزويت الرمادي المهيب وكنيستها العتيقة حيث محل العصير.

ثم أكمل ثلاثتهم المضيّ قدمًا حتى بلغوا سيد جالسًا أمامهم على كتفي شاب نحيف يشبهه وفي يده مكبر للصوت. كان يرتدي فانلة بيضاء فوقها صديري أحمر وأخذ يهتف بحماس رغم تصببه عرقًا "للميدان تاني راجعين.. هيه موتة والا اتنين؟". فردد الجميع وراءه "هيه موتة ولا اتنين؟" ثم رددوا كلهم بصوت واحد "يا شهيد نام وإرتاح حقك راجع لو بسلاح".

تقدم علي وحده أكثر وكأنه يريد أن يعلم ماذا ينتظرهم في المقدمة دون إبطاء. أن ينتهي مرة واحدة إن كان لا مناص من ذلك. ترددت هتافات أخرى "عَلِّي وعَلِّي وعَلِّي الصوت اللي حيهتف مش حيموت". و"إوعى تقول لي بتنزل ليه.. حقي وحقك داسوا عليه".

أسفل كوبري غمرة لاحظ علي أن الأعداد وراءه لم تعد كما

كانت منذ ساعة رغم ضيق الشارع، وتاه من أمينة وأحمد رأفت، ثم تراءى له مسجد النور على اليسار ومن أمامه قبل ميدان العباسية وقفت دبابات متراصة وفوقها لمح البيريهات الحمراء الخاصة بالشرطة العسكرية. ذكّره المشهد على الفور بيوم مقر أمن دولة لاظوغلي، وأدرك أن اليوم لن يمر بسلام.

أوشكت الشمس على المغيب، ونظر علي خلفه فبدت له أن الأعداد تناقصت بالفعل. سمع صوتًا يناديه "يا علي إنت رُوحت فين؟" أمينة جاءت تهرول خائفة. لم يرها هكذا قبل ذلك. كانت تعطيه دومًا انطباعًا بالتماسك وقت الخطر عندما كان يتردد أن الميدان على وشك أن يُقتحم. صلابة ملامحها بدت مختلفة عن ذي قبل. أكثر أنوثة ربما بسبب الخوف الذي غلب عليها. "بادوّر عليك وريفو اختفى برضه". أجابها "وأنا مش لاقي حد".

جاءه صوت أحمد رأفت من خلفه وهو يهرول "إنت روحت فين؟ هي المسيرة خست كده ليه؟".

ضرب علي كفًا بكف، وظهر سيد ومعه مجموعة ممن كانوا يهتفون حوله في شارع رمسيس، فسألهم علي عما يحدث، فأجابه شاب أسمر بشوش "مقفول علينا من كل الاتجاهات. من ناحية شارع رمسيس بيقولوا الأهالي قافلين علينا، وزي ما حضرتك شايف الشرطة العسكرية واقفة قبل ميدان العباسية".

اقترب سيد من الشاب ليعرفه وهو يمسك بكتفه "عايز أعرفك على محمد محسن يا أستاذ علي. محمد جه من أسوان النهارده الصبح علشان يشارك".

تصافحا وتبادلا ابتسامة طمأنت علي بعض الشيء لسبب لم يعرفه. نفس نوعية الطمأنينة التي تنبعث من حلاق الميدان. سرح بنظره مرة أخرى إلى الدبابات المتراصة خلف الأسلاك الشائكة فخُيل له أن أحد الضباط الواقفين فوق الدبابة يبتسم ابتسامة متهكمة لا تنذر بخير. جاوزت الساعة السادسة بقليل وخيم الليل على المكان ثم تعالت هتافات "الشعب يريد إسقاط المشير" وتلتها صيحات "سلمية سلمية" من خلف الأسلاك الشائكة وبعدها طلقات في الهواء كتلك التي أطلقوها يوم اقتحام أمن الدولة، إلا أن علي هذه المرة لم يتحرك لسبب ما، ووقف يتبادل النظرات مع من حوله دون أن يتفوّهوا بكلمة.

بدأ هجوم من مجموعات بسلاح أبيض من مدخل الشوارع الضيقة المحيطة بالمكان على يمين الدبابات المتمركزة. جرى سيد في هذا الاتجاه، وسرعان ما بدأ تبادل قذف الطوب من الاتجاهين، ثم هدأت الاشتباكات في الشوارع الجانبية فجأة لسبب لم يفهمه علي على الفور.

اختفى أحمد رأفت ليتفقد ناحية شارع رمسيس، وعاد متأثرًا

يقول بصوت مهزوز لأمينة وعلي اللذين وقفا ينتظرانه في صمت "فيه ضرب من ناحية شارع رمسيس كمان. الأهالي بيرموا قوالب طوب من فوق العمارات. اتحاصرنا من كل حتة".

سرح علي بنظره حولهم وأجابه غير مصدق وهو يأخذ نفسًا عميقًا ويمصمص شفتيه "اتعمل علينا كماشة" ثم سارحًا "لكن استحالة يكون الأهالي اللي بيرموا علينا طوب... استحالة. لسه من شوية كانوا بيرموا لنا أزايز ماية ساقعة... باقول إيه استنوني هنا حوصل قُدام أشوف اللي بيحصل".

تقدم علي في اتجاه شارع رمسيس. غلب اللون الأحمر على الضوء المنبعث من مصابيح النور. رأى المولوتوفات تتطاير في الهواء عند الخطوط الأمامية، وغطى صوت طرْق الحديد وتحطيم الأرصفة من ناحيتي الشارع على أي ضوضاء أخرى. تدافع الثوار من الخطوط الأمامية ذهابًا وإيابًا. مر من جانبه أحدهم حاملا فوق كتفه صندوق قمامة مليئًا بالطوب متجهًا به إلى الخطوط الأمامية ورأى آخر يحمل مصابًا ينزف دمًا ويتأوّه، على كتفه، ليعود به إلى الخلف، وشابًا آخر أمسك بقالب طوب كبير وقلبه من وراء رأسه بكل قوة على الأرض ليتفتت إلى أحجار صغيرة. تغيرت ملامح الشارع تمامًا وتناثرت الحجارة في كل أنحائه. شيء قبائلي ساد المكان واستحوذ على تصرفات كل من فيه.

أكمل تقدمه حتى وصل إلى الخطوط الأمامية وبدأت الحجارة تنهال حوله من كل جانب. فاجأ نفسه بحالة اللا مبالاة التي انتابته. رأى سيد منهمكًا بالتقاط حجر والعودة مرة أخرى إلى الخطوط الأمامية، فاقترب منه وناداه "إيه الأخبار الناحية التانية؟".

أجابه في لهفة "ولاد الهِرمة ما بيتهدوش، لكن الشباب قايم بالواجب".

انحنى علي وأخذ حجرًا في يده، ودون تفكير أخذ يجري في اتجاه المهاجمين وقذفه بأقوى ما عنده في الهواء. استطاع أن يميز رغم الظلام الخطوط الأمامية للمهاجمين. رأى وسط الخطوط المواجهة شابًا يرتدي فانلة بيضاء داخلية وشبشبًا يقفز في الهواء ملوحًا بسيف في يده. رجع علي مرة أخرى إلى الوراء والتقط حجرًا ثانيًا وقذفه وثالثًا، وتفادى الطوب القادم من خطوطهم الأمامية قدر إمكانه، إلى أن أصابته طوبة صغيرة في كتفه، فقرر أنْ يعود للوراء ليطمئن على أمينة قبل أن يعود المعركة.

وجدها واقفة ومعها فتاة أخرى تبين أنها زينب عندما اقترب أكثر، وجلس أحمد رأفت إلى جانبهما على الأرض. ظهر عليهم جميعا الإعياء الشديد. نادى علي زينب متعجّبًا "ما كنتش أعرف إنك في المسيرة دي".

أجابته بصوت خافت "كنت موجودة في أول المسيرة ومعايا

اتنين من الولاد بتوع المدرسة.. الكبار فيهم".

سألها "وراحوا فين؟".

"هشام في الخطوط الأمامية وحامد اختفى". قالت هذا بصوت قلق، وتدخل أحمد رأفت "دلوقت الموضوع طَوّل قوي ولازم نلاقي طريقة نخرج بيها من هنا. على الأقل نِخرّج البنات". وبعد لحظة صمت وهو ينظر إلى زينب بلوم، أضاف "والأطفال".

أدارت زينب وجهها الناحية الأخرى، ثم سألت أمينة: علي "ممكن أطلع معاك قُدام أشوف اللي بيحصل؟".

أجابها دون تفكير "انسي.. ده مش حيحصل".

أخذه أحمد رأفت جانبًا وهمس له بصوت مرتعش "إحنا حنموت... صح؟".

نظر علي مرة أخرى حوله فلاحظ أن حالة من الذعر بدأت تظهر في تصرفات أغلب الموجودين. لم يلحظ هذه الحالة في الخطوط الأمامية، ربما لأن من فيها يكونون عادة مشغولين بالمعركة، وليس لديهم الوقتِ للتفكير في أي شيء آخر. بدأ القلق يتسرب إليه هو الآخر، فلم يُجب رأفت. أخذ جانبًا وأخرج هاتفه وغرّد على تويتر ما يحدث من حصار وعن تزايد عدد المصابين، ثم تقدم مرة أخرى إلى الأمام وعاود الهجوم دون تفكير إلى أن أوشكت قواه أن تخور، فعاد

إلى الوراء ناحية مستشفى الدمرداش ليلتقط أنفاسه، ونظر إلى تويتر فوجد باندا الصحراء أجابه "فيه ممر من عند مستشفى الدمرداش ما فيهوش حد. ممكن تخَرَّجوا البنات وتُخرجوا منه".

كان علي يعتقد أن باب المستشفى مغلق، وأكد له ذلك بعض من حاولوا الخروج في بداية الاشتباكات ورجعوا على الفور وعلامات اليأس ترتسم على وجوههم.

سارع بمناداة الآخرين. وجدهم يقفون في نفس المكان، حيث تركهم منذ قليل، ومعهم الطفل هشام ممسكًا بركبته وينزف منها. نظر إليه هشام بفخر وكأنه يقول له "أنا راجل آهه وما أقِلِش حاجة عن كل الموجودين. بدافع عن اللي معانا وباتصاب كمان". سأله علي "لَقيت حامد؟" أجابه "أيوه اتأكدت من الشباب إنه عرف يهرب في أول الضرب".

"طيب دلوقت لقينا مخرج.. البنات حيخرجوا الأول وإحنا حنأمنهم وبعدين نخرج وراهم.. تمام يا ريفو؟".

أجابه رأفت دون تفكير "تمام". إلا أنهم قبل أن يتحركوا، وجدوا من يزحف عليهم من ناحية الخطوط الأمامية، فاعتقد علي لوهلة أن الخطوط الأمامية انهارت وأن الهجوم ينتقل إلى الخلف، إلا أنه لمح سيد مصاحبًا للمجموعة وطمأنه بعلامة من يده. ثم اقترب منه وصاح "ده واحد من البلطجية، ممسوك".

صوت صريخ واستغاثات انبعث من وسط المجموعة لم يتبينها علي، إلا أنه أزاح الفتيات جانبًا ووقف ينظر ماذا يحدث. علم أن هناك شخصًا في النصف يحاول الخلاص، ولكنه لم يستطع أن يُميز ملامحه. بدا له وكأن هناك حيوانًا تم اصطياده يحاول الخلاص ويصدر تأوهات غير إنسانية، وعندما وضع رأسه في نصف الدائرة التي تكونت ظهر له كائن أقرب لفريسة تحتضر تم اصطيادها للتو، فقدت ملامحه أي صفة بشرية، ورغم تغطية وجهه بالدماء فإن هذا لم يشفع له، واستمرت حفلة الضرب العنيف حتى خفتت تأوهاته، فظن علي أنه مات. اقتربت أمينة وأخذت تصرخ "سيبوه... سيبوه... حرام عليكم". فجذبها علي بشدة وصاح فيها "خلاص انتهى ما فيش حاجة ممكن نقدر نعملها له... دلوقت لازم نحاول نخرج".

الممر الخلفي لمستشفى الدمرداش المؤدي لشارع لطفي السيد لم يستوعب عرضه أكثر من شخصين. تقدمت زينب وإلى جانبها أمينة، ووراءهما أحمد رأفت وهشام، وبقي سيد يؤمن تراجع الخطوط الأمامية. وقفت قوات الشرطة العسكرية المتمركزة خلف السور الشائك تراقب ما يحدث في صمت. لمح علي رجلا مُلقى على الأرض فاقدًا للوعي وإلى جانبه آخر يحاول أن يحمله من ذراعه اليسرى ولا يستطيع، فأمسك علي بذراعه اليمنى بعد أن خلع تي شيرته واستعمله ككمامة بعد أن بدأت رائحة الغاز تتسلل إلى فتحات أنفه، وجاء ثالث أمسك

بقدميه ثم جروا ناحية الممر المؤدي للشارع الخارجي، وانطلقت القنابل المسيلة للدموع من ناحية الشرطة العسكرية، وكأنها تودعهم! سقطت قنبلة داخل الممر، فظن علي أنه سيفقد الوعي. نظر إلى المصاب وإلى الشاب الذي يحمله إلى جانبه، وبدأت الصورة كلها تهتز. "لا بد أنني اقتربت. سأبذل آخر مجهود وسأصل بهذا المصاب إلى الشارع الرئيسي.. لا سأسقط وسيدوس عليّ الفارون، وينتهي كل شيء". لمح سيارات إسعاف بعرض الطريق، فبذل آخر مجهود لديه. ورأى رجال الإسعاف بزيهم الرمادي، ولم يدرك شيئًا بعد ذلك. عندما عاد إلى وعيه، كان جالسًا على رصيف الشارع الخالي وأحدهم يضع على وجهه خلًا، وآخر يحاول أن يضع زجاجة مياه في فمه ليشرب.

لمح خيالًا يناديه بيديه من وسط الشارع. لم يتبين في البداية إلى أن اقترب أكثر، فرأى أمينة بشعرها القصير وقميصها الواسع المنسدل إلى فوق ركبتها بقليل. راودته فرحة غامرة لم يعلم مصدرها. اقتربت منه أكثر وسألته بقلق "أنت بخير؟ أنا افتكرتك وِقعت".

هز رأسه ليطمئنها وهو يمسح بيديه تحت عينيه المدمعتين من أثر الغاز وسألها "فين الباقيين؟".

"مانا جاية لك علشان كده.. رأفت سبق على محطة مترو الدمرداش

ومعاه هشام، وكان المفروض معاه زينب، وأنا وقفت أستناك، لكن حصلت مشكلة...".

لم تكن لديه القوة للحديث. سألها بصوت ضعيف "إيه؟ قولي لي".

"زينب مش عارفة تعدي.. طلعوا عليهم بلطجية فوق كوبري المشاة. رأفت دخل عربية المترو بالعافية، وحاجزين واحد تاني".
أخذ علي نفسًا عميقًا وارتدى تي شيرته، ثم أشعل سيجارة وتقدم في اتجاه كوبري المشاة، بعد أن طمأنته أمينة أنها ستنتظر سيد وتعود معه في سيارة أجرة. أخذ يقلب مختلف السيناريوهات الممكنة في ذهنه دون أن يصل لتصور لما يمكن أن يفعله. الشارع العريض كان كمدينة أشباح تتخللها بعض سيارات الإسعاف وبعض العائدين من جحيم الاشتباكات يستندون على بعضهم بعضًا بتثاقل. على اليمين سور وراءه شريط المترو. فكر أن يقفز من فوقه، ويذهب من الاتجاه الآخر ليفاجئ المهاجمين ويربكهم، ولكنه لا يعرف شيئًا عن أعدادهم ولا أي شيء عن نوعية السلاح في أيديهم، ثم إنه وحده. ربما يجد من ينضم إليه هنا أو فوق الكوبري.

كبح علي جماح هواجسه. وتقدم إلى مطلع كوبري المشاة المؤدي إلى محطة الدمرداش وصعد السلالم الحديدية بحذر. فوق الممشى ظهر أحدهم. في وجهه أثر لندبة من عينه اليسرى لفمه،

ممسكًا بعكاز في يده يشوح به يمينًا ويسارًا واتجه ناحيته بينما آخر في النصف قبل المحطة أمسك بزينب بقوة ولم تشفع لها صرخاتها. صرخ الرجل في علي "شَرفتوا يا بتوع التحرير يا ولاد الوسخة". ورفع عكازه وهمَّ أن يضربه على وجهه، فرفع ذراعه تلقائيًا وتلقى العكاز في يده، ثم دفعه بكل ما لديه من قوة، فوقع الشاب ذو العكاز. في هذه الأثناء استطاعت زينب أن تفلت من مهاجمها الآخر، فجذبها علي من يدها وجريا في اتجاه نفس السلالم التي صعد عليها. صرخت "فيه واحد كان معايا اتخطف..." لم يُجبها، ففهمت أنه لن يستطيع تخليص أحد آخر، وقال لها محاولا استجماع هدوئه "دلوقت حاننزل وندخل عين شمس لحد ما نلاقي تاكسي. امشي بالراحة وما تبُصيش وراكِ. إحنا نازلين حِتِتهم". كان يقصد أنهم على وشك الدخول إلى معاقل من هاجموهم. بدا الجزع على وجه الفتاة، ولم تقل كلمة واحدة. اكتفت بهز رأسها، فأضاف علي نصف مازح "وبلاش كتابة أي حاجة على تويتر دلوقت علشان ما نلفتش الأنظار لينا".

عندما عادا إلى الميدان كان التحرير خاليًا إلا من بعض من استطاعوا النفاذ من الكمّاشة وبعض من جاءوا ليطمئنوا عليهم. سرعان ما توافدت باقي المجموعة. ظهر أحمد رأفت أولا. كان قد ذهب إلى مطعم جاد في باب اللوق لشراء ساندوتشات فول وطعمية، وتبعته أمينة وسيد منكسرين يجرجران أقدامهما. اتصل

سليم بأمينة وأبلغها أنه في الطريق إليهم. وقفوا كلهم عند طرف الصينية في مقابل مدخل كوبري قصر النيل.

سأل علي سيد عن عدد الإصابات. أجابه "كتير.." وبعد لحظة صمت، أضاف "ومحمد محسن..".

"محمد محسن؟ محمد؟... أيوه.. الشاب الأسواني اللي عرّفتنا عليه.. ماله؟".

"أخد قالب طوب في دماغه.. وحالته وحشة". ثم أجهش سيد بالبكاء، فاحتضنه علي، وجذبته أمينة إلى داخل الصينية وهي تربت على كتفه. وبدا سيد الذي كان يصول ويجول منذ ساعتين، كطفل كبير في هذه اللحظة، وهو يردد "إيزي... إيزي.. في الجنة يا شهيد..".

***

جلس الأطفال الثلاثة حيث كانت خيمة مدرستهم. هشام أكبرهم أخذ يدخن ويتحسَّس ركبته المربوطة مكان إصابة الخرطوش، ونظرة تحدٍّ جديدة في عينيه جعلته يبدو أكبر قليلا من عمره الحقيقي. أخذ ينظر إلى حامد يأكل ساندويتش فول بنهم، وأصغرهم علي الذي أخذ يحاول رسم حروف على رمال الصينية بإصبعه وعينيه الكبيرتين الحالمتين وخصلة الشعر الأسود التي تنسدل على جبينه.

رفع الطفل علي رأسه إلى هشام وسأله "تفتكر حيرجعوا تاني؟ خيامهم لسه موجودة".

أجابه هشام وهو ما زال يأخذ شكلًا أكبر من عمره "ما ظُننش يا علي. ما شوفتش حد منهم بعد يوم العباسية".

كان الطفل الصغير ما زال مصرًا على التمسك بأي أمل، فقال له "طيب يمكن النهارده أول يوم رمضان ييجوا يِفطروا معانا".

لاقى كلامه ترحيبًا عند الطفل الآخر حامد فقال له بفرحة "يمكن والله". ثم موجهًا كلامه لهشام "يمكن علي يطلع عنده حق المرة دي".

أدار هشام وجهه الناحية الأخرى وهو ما زال يحاول الحفاظ على جديته، ولكن علي أصر وكأنه يحاول إثارة هشام "أكيد حييجوا. أنا باقولك... أنا عارف.. وحنكمل الدروس مع زينب".

انتفض هشام واقفًا "يوووه. أنا باقولك ياض إن ما فيش حد حييجي بعد العلقة اللي خدناها في العباسية. افهم بقى.. أنا كنت هناك وأقدر...".

إلا أنه لم يُكمل جملته. تعالت صيحات من جميع أركان الميدان "إجرى.. الحكومة جاية تفُض". ارتفع الغبار من أطراف الصينية المقابلة لشارعي طلعت حرب والتحرير.

صاح هشام وهو يجذب الطفلين الآخرين "ياللا بينا يا عيال

جزي... هما جايين من ناحية عبد المنعم رياض وشوارع وسط البلد. ما وراناش غير كوبري قصر النيل". نظر الأطفال وراءهم، فوجدوا الخيام التي تعودوا على رؤيتها طوال الشهر الماضي تختفي من الوجود في أقل من ثوانٍ، وكأن ماكينة جبارة تقتلعهم. نظر الطفل علي وراءه وهم يجرون بكل قوتهم، فرأى جنودًا يرتدون خوذًا سوداء يقفزون في الهواء، ثم يسقطون ببياداتهم على اليافطات الكبرى التي حملت أسماء الحركات المختلفة. تندة "صالون القلة المندسة" بركائزها الخشبية أصبحت مستوية بالأرض.

صرخ علي وهو يرى الجنود يقتادون حلاق الميدان في اتجاه مدرعة عند طرف الصينية الآخر "إيه ده.. الْحقوا واخدين عم محمد.. الحق يا هشام".

جذبه هشام وهو يجري من ياقة قميصه الصغير الرث "ياللا ياض. ما فيش وقت".

إلا أنهم قبل أن يصلوا إلى مبنى جامعة الدول العربية قبل كوبري قصر النيل، ورغم سرعة هشام، ظهر أمامهم شخص يرتدي سترة ميري، نفس الشاب ذي الأنف العريض الذي جاء إلى خيمة باندا وطالب بترقيمها منذ أيام، وفي يده عصا سوداء، ومعه جنديان يرتديان خوذتين وفي أيديهما عصى سوداء غليظة أيضًا،

وأشار إليهما في اتجاه هشام "آهه.. هوه الواد ده. خُدوه بسرعة".

ترك هشام الطفلين الآخرين بعد أن دفعهما في اتجاه الُمجَمع "اجروا أنتم يا عيال... ياللا بسرعة.. أنا مش قادر أجري أكتر من كده برُكبتي".

حاول علي الإمساك به وهو يبكي بشدة، إلا أن هشام دفعه بشدة "خُد بالك يا حامد عل واد علي". لم يستطع أن يُكمل جملته. أمسك به الجنديان وأوقعه الشخص الثالث على الأرض بعد أن صفعه بشدة "خُدوه على المدرعة. علشان يبطل يعمل فيها فِكِك ابن المَرة ويتجسس علينا تاني".

نظر علي مرة أخيرة إلى هشام وهو يُقتاد إلى المدرعة، ثم جذبه حامد في اتجاه مسجد عمر مكرم، واختفيا معًا داخل شارع عبد القادر حمزة قبل ميدان سيمون بوليڤار.

الفصل الخامس عشر

عندما تجد العالم كله يقف ضدك، ارجع خطوة إلى الوراء
وابحث عن حجر تلتقطه. عندما تجد هذا الحجر، تقدم
مرة أخرى واقذفه بعزم قوتك في الفضاء لعله يغيِّر شيئًا.
وإن لم يفعل فربما يُحدث ضجيجًا عندما يهوي.

تدهورت حالة إبراهيم كمال بأسرع مما توقع علي. بعد أن توقف عن العلاج الكيماوي، لم يعد يستطيع أن يتحرك بسهولة دون مساعدة، وفضل أن يذهب إلى أرضه يقضي معظم وقته هناك بعيدًا عن هواء القاهرة الذي لم يعد يسمح له أن يتنفس.

ذهب علي إليه ليزوره يوم 10 أكتوبر. جلسا على التراس الصغير الذي يكشف جزءًا من الأرض، فظهرت أشجار المشمش عارية من كل شيء، محاطة بأوراقها المتساقطة على الأرض، ومر الفلاحون يحيُّونهم.

سأل العم علي بصوت خافت وكأنه صوت شخص آخر لا يعرفه "قُل لي إيه اللي حصل إمبارح بالظبط؟".

"والله يا عمي أنا كنت عند واحد زميلنا في المجموعة، ساكن في وسط البلد، وما روحتش المسيرة اللي كانت واصلة من شبرا على ماسبيرو لأنني اتأخرت".

"وبعدين؟".

"سمعنا إن الناس اللي في المسيرة اعترضتهم مدرعات جيش عند ماسبيرو، وبعدين فيه مذيعة في التليفزيون طلعت "تُهيب" بالـ"مواطنين الشرفاء" لمساندة رجال القوات المسلحة من هجوم الأقباط.... طبعًا الناس دي كانت في مسيرة بتعترض على هدم كنيسة زي ما أنت عارف".

توقف علي عن الحديث، وتنهد ثم أكمل "وبعدين فيه 27 واحد اتقتلوا.. إحنا على ما وصلنا عبد المنعم رياض كان المواطنين الشرفاء انتشروا فوق كوبري 6 أكتوبر واتحاصرنا كالعادة وقوات أمن جاتلنا من ميدان التحرير. اضطريت أهرب من شارع محمود بسيوني".

تذكر علي جريه فارًّا إلى وسط المدينة في حلكة ظلام شارع محمود بسيوني، والأشياء التي كانت تلمع في يد هؤلاء المواطنين الشرفاء. كانوا مئات يتدافعون، وعندما استدار للحظة، لمح كرة تلمع معدنية مدببة مربوطة في سلسلة حديدية تدور في الهواء.

تذكر كيف قاربت هذه الآلة التي تبدو من القرون الوسطى من رأسه، وكيف فكر وقتها أن إبطاءه ثانية واحدة سيعني أن مصيره لن يختلف عن هؤلاء الأقباط خلفه، فاقشعرَّ بدنه، وصمت عن الحديث.

لاحظ إبراهيم كمال ما طرأ على ابن شقيقه. وجده تغير كثيرًا منذ كان في باريس. في بداية رجوعه إلى مصر كان مفعمًا بحيوية وحماسة جعلتاه أقرب للتهور. طبيعة علي كمال كانت دائمًا أقرب إلى الاندفاع في كل شيء، مما جعله أحيانًا يقول أشياء أو يتصرف بشكل يضع أباه في مواقف محرجة مع شركائه في العمل عندما كان علي يدير معه الشركة. كانت هذه المواقف تُضحك إبراهيم كمال بشكل عام. الآن رأى فيه هدوءًا لم يعتده منه. شبه استكانة. علي في باريس كان أكثر سعادة، وأضفى عليه السعادة وخفف عنه معرفته الأولى بمرضه، أو كما وصف لنفسه منذ البداية، حكم الإعدام المؤجل.

"وبعدين يا واد يا علوة آخرتها إيه؟".

مط علي شفتيه، ثم غلبت ابتسامة على وجهه وهو يتذكر عندما كان طفلا في السادسة، وأغنية كان عمه يغنيها له مع أصدقائه. وإبراهيم كمال شابًا في العشرينيات. كان هذا في السبعينيات وهو يتذكر جيدًا إبراهيم كمال شابًا مفعمًا بالحيوية، يصطحب ابن شقيقه معه في كل مكان، وهو يعلم أن فرصته في جذب الفتيات ستزداد لأن علي طفل مرح ويقول أشياء غريبة بالنسبة لعمره الصغير.

"فاكر يا عمي أغنية يا واد يا علوة يا ابن الإيه؟ بدال بتحب بتتكر ليه؟".

انفرجت أسارير إبراهيم كمال بعض الشيء وهو يتذكر"هاها... كنت طفل لذيذ، ولما أبوك كان بييعتك إجازة من فرنسا كنا بناخدك معانا كل حتة... كنا بناخدك إسكندرية.. المنتزة".

ضحك علي لأول مرة، ثم نظر إلى عمه بتمعن وقال له "هيه الدنيا إزاي كانت كده؟ أنا فاكر السبعينات أكنها صورة بولارويد حلوة، وأنتم بسوالفكم والبنطلونات الشارلستون وأنا برضه لما باشوف صوري كنت لابس شارلستون. وكنا كلنا سعدا في الصور".

أضاف العم بصوت ثقيل "بأقل حاجة..".

سرح علي بأفكاره بعيدًا مرة أخرى وأصابه وجوم سرعان ما انتقل إلى عمه

كيف مر الوقت بهذه السرعة؟ هو أمامي على وشك أن يذهب في رحلته الأخيرة، وأنا... أنا على وشك أن أصبح في عمره قبل أن أغمض جفنيّ وأفتحهما، ثم أذهب أنا الآخر دون أن أكون قد تركت شيئًا ورائي. إلّا أن قُتلت في الأيام القادمة خلال أحد هذه الاشتباكات. ربما أصبح صورة أخرى على أحد هذه الأعلام التي يطوف بها المتظاهرون من مسيرة لأخرى، أو جرافيتي فوق أحد حوائط وسط المدينة لبعض الوقت!

2011 كانت سنة الأحلام الوردية للبعض وسنة الكوابيس للبعض

الآخر. وأحيانًا تجمعت الأحلام والكوابيس عند نفس الأشخاص. انزوى الواقع إلى حين وعاش الناس لأول مرة منذ سنوات دون أن يلتزموا بأي شيء أو يعيروا أدنى انتباه لتفاوت الدرجات الاجتماعية التي كانت تتفاقم قبل ذلك.

***

اتصل أحمد كمال ذات يوم في بدايات نوفمبر بابنه، وأبلغه أن عمه إبراهيم تم نقله إلى العناية المركزة. شوارع القاهرة كانت خالية منذ أربعة أيام لأن الناس سافروا في عيد الأضحى. قاد علي سيارته من العجوزة حيث انتقل للعيش بعد أن أجر شقته، إلى مستشفى دار الفؤاد في 6 أكتوبر، في أقل من عشرين دقيقة. كان يعاني من برد منذ أيام جعله يفكر طوال الطريق إن كان من الصواب أن يزور العم وهو في هذه الحالة الحساسة أم لا. حُسم الأمر عندما وطأت قدماه مدخل المستشفى. أبلغوه أن إبراهيم كمال فارق الحياة منذ قليل.

خلال اليومين اللاحقين، انشغل هو وأبوه بإجراءات الدفن، والنعي ثم العزاء. عندما قام بتغسيل عمه، تخيل للحظة أنه عاد لصورته الأولى قبل أن يعلم بمرضه. مثل تلك الليلة التي ذهبا فيها للعشاء في مطعم ليب بسان چيرمان، وهو يرتدي بذلته كاملة ويتحدث بكل أناقة إلى السيدتين على المائدة المجاورة.

وعندما نزل معه إلى مستقره الأخير، خرج علي بعدها وقد

اختلفت نظرته إلى الناس والأشياء والسماء إلى الأبد. أحس بسكينة وهو تحت الأرض بجوار أجداده لم يشعر بها قبل ذلك. فقط لمدة دقائق، ثم ودع عمه إبراهيم كمال الوداع الأخير بعد أن أحس بنقص الأوكسيجين. عندما أخرج رأسه ملأ رئتيه بالهواء كما لم يفعل من قبل ونظر إلى السماء، فحمد اللـه بكل قلبه، وتفادى النظر إلى أقاربه من حوله، حاول أن يبقى بأفكاره بعيدًا كي لا يسمع النحيب.

***

انطلق صوت الخرطوش على فترات متقاربة من آخر محمد محمود بعد مبنى مكتبة الجامعة الأمريكية بمائة متر. وقف سليم وعلي عند مدخل الشارع على يسار مبنى العلوم الخاص بالجامعة. غُطِّي سور الجامعة بشعارات "يسقط حكم العسكر". نفس الشعارات التي ترددت على شكل هتافات أخذت ترج أنحاء الشارع في ظهيرة السبت 19 نوفمبر 2011. ارتدى البعض كمامات طبية على وجوههم، واكتفى آخرون برفع كوفياتهم على وجوههم للوقاية من الغاز المسيل الذي تسرب من آخر الشارع.

انضم الاثنان للهتافات "الشعب يريد إسقاط النظام.. الشعب يريد إسقاط المشير".

"إنت مصدق إن إحنا واقفين وعلى يميننا مبنى الإيوارت ومبنى العلوم وشبابيكه كلها متكسرة؟" سأله سليم بسخرية.

أجابه علي بنفس السخرية "ما تيجي نروح نجيب قهوة من الكافتيريا عند المكتبة".

"ياللا بينا".

كان هذا إيذانًا بنيّتهما التقدم إلى الخطوط الأمامية إلى جانب مبنى مكتبة الجامعة حيث كانت الكافتيريا وقت دراستهما.

بدأت الاشتباكات قبلها بقليل بعد أن هاجمت قوات الأمن بعض مصابي الثــورة المعتصمين بجانب المُجَمَّع فــي ميدان التحرير، وانتشر الخبر، فجاء ناس من كل صوب يُنددون بما حدث، وأطلقت قــوات الأمن الخرطوش، فأصابت من أصابَت، وتزايدت الأعداد، وبدأت معركة استمرت ستة أيام.

تقدم سليم وعلي إلى الخطوط الأمامية وهما يرفعان بلوفراتهما فوق أنفيهما، وامتلأت الأعين بالدموع من أثر الغاز. سرَّعا خطيهما حتى بلغا مكانًا قريبًا من الحاجز والأسلاك الشائكة الموضوعة من الثوار.

الشارع كان تحول إلى ساحة معركة. كُسرت الأرصفة، وتناثرت الأحجار.

"خليك حذا السور يا سليم. ولمَّا تسمع صوت الخرطوش حاول توَطِّي".

نظر ســليم إلى علي ولم يجبه، واكتفى بالانحناء والتقاط حجر مــن الأرض ثم جرى في اتجاه الحاجــز وكذلك فعل علي. حدث

كل شيء بســرعة. لم تبلغ الأحجار أبعد من الحاجز بأمتار قليلة، وتسارعت طلقات الخرطوش، فتراجعت الخطوط الأمامية، وتدافع مـن كانوا هناك إلى الوراء ومعهم سـليم وعلي إلى أن بلغا مدخل الشارع مرة أخرى، فوجدا سيارة خاوية لنقل جنود الأمن المركزي، اســتولى عليها الثوار واقفة بعرض الطريــق عند مدخل الميدان، وقد تحطمت نوافذها وكُتب عليها بإســبراي أســود "أفرجوا عن المعتقليــن". تعالت صيحات غاضبة "وَلَّعوا في العربية. ياللا نِولَعْ في العربية". وبدأ الطرق المعتــاد على الحديد إيذانًا بأن المعركة على وشك الاحتدام. تساقطت بعض قنابل الغاز المسيل على جانبي الطريق، ولم يتحرك المتظاهرون، بل حاول شابان صغيران تسلق سور الجامعة لالتقاطها وقذفها مرة أخرى في اتجاه الأمن، ووقف في مدخل الشــارع إلى جانب عربة الأمن المركزي، رجل يحمل عصى طويلة بها أكياس غزل بنات وردية اللون.

أصبح محمد محمود مع مُضيّ الوقت كحوض عملاق للأسماك. ارتدى الثوار نظارات السباحة لتقي أعينهم شر الغاز المسيل للدموع، فأصبح كل من فيه مثل مجموعة من الأسماك تسبح داخل حوض ممتلئ بالدخان وسط كرنفال من رصاص الخرطوش وأحيانًا الرصاص الحي. تنوعت قنابل المسيل المصنوعة في أمريكا من قنابل منتهية الصلاحية إلى أخرى شفافة لا تراها العين المجردة وانتهت بغاز الأعصاب. وُجد أكبر عدد ممن يغازلون الموت في مكان واحد، وعلم ذلك من في السلطة، فقرروا أن يعطوهم

ما يرغبون. ظن من في الحكم أن هذه الفرصة لن تتكرر في القريب العاجل، فلم يدّخروا وسعًا في جعل الكرنفال أكثر حيوية، ورأوا أن فرصة كهذه وكل هذه الأعداد من الرافضين المجتمعة في مكان واحد يجب أن تلاقي الترحيب الذي يليق بهم. من لم يُقتل أو يُصاب بالشلل أو يفقد نظره، سيصاب بأعراض الغاز الجانبية لوقت طويل، وأعراض أخرى لا علاج منها تتلخص في إحساس بالذنب تجاه من سقطوا. إحساس لا يترك المرء إلا بموته. شيوخ يتمسكون بأهداب الحياة ويمتلكون السلاح، فيقدمون القرابين من الصغار على مذبح معبد وثني يقع في مكان خارج التاريخ.

***

انتاب علي شعور وهو يتقدم مع اقتراب الليل داخل أرض المعركة أنه في معركة قبائلية أخرى. صوت طرْق الحديد كان يفزعه في البداية، إلا أنه اعتاد عليه مع الوقت. أصبح الصوت يُصدر صدى بداخله يخرج منه كائنًا ينتمي إلى زمن بعيد، يحارب من أجل بقاء قبيلته. ربما مثل هؤلاء الهنود من قبيلة التاراهومارا.... القبيلة التي كان يحلو له أن يتخيل أن آن تنحدر منها! يدافع عن قبيلته من خطر آتٍ من ناحية رجال جاءوا من بعيد ليستولوا على أرض القبيلة وخيراتها. إنه يؤدي نفس الطقوس. ربما هم أيضا كانوا يُطرقون على الحديد قبل أن يمضوا إلى أرض المعركة، وكان الرجال الذين يحاربونهم يمتلكون السلاح الناري وهم يحاربون بأدوات وفرتها لهم الطبيعة من حولهم تمامًا كما يفعلون هم هنا. هو يؤدي دورًا

كُتب له وكذلك سليم وأحمد رأفت وسيد. تراءى له شيء واحد حقيقي وهو أنك عندما تجد العالم كله يقف ضدك، ارجع خطوة إلى الوراء وابحث عن حجر تلتقطه. عندما تجد هذا الحجر، تقدم مرة أخرى واقذفه بعزم قوتك في الفضاء لعله يغير شيئًا، وإن لم يفعل فربما يُحدث ضجيجًا عندما يهوي.

"دكتـــور علي... أنت هنا؟ تعالى جنبـــي.. عايز تخُش جوه؟". جاءه سيد من الجانب الآخر من الشارع عند محل القاضي المواجه لمبنى المكتبة، وناداه بحماسة الأدرينالين.

"حاجي معاك يا سيد بس أنا مش دكتور على فكرة". أجابه علي ولكن سيد أصر على استخدام لقب "دكتور" لسبب لم يفهمه علي. "ما تقلقش يا دكتور إحنا مع..." ولم يكمل كلمته. تدفقت الصفوف الأمامية، حتى كادت تدهسهم في ثوان، فأمسكا ببعض، وفهم علي أن هناك هجومًا من الجانب الآخر "ياللا بينا عالميدان". الهجوم كان أقوى من المرات السابقة. هجوم من الشوارع الجانبية. شوارع يوسف الجندي والفلكي.

الهجوم هذه المرة لم يتوقف عند الميدان. وجد نفسه يجري مرة أخرى وحده بعد أن فقد سيد، وسط الميدان وقنبلة مسيلة تدور من فوقه مثل ليلة 28 يونيه، وكأنها نفس القنبلة المسيلة تتبعه في أيام مختلفة. استطاع بصعوبة أن يصل إلى مدخل كوبري قصر النيل. اجتاحت قوات الداخلية الميدان مرة أخرى، وخيَّم الليل على المكان بعد أن أخلوه.

وقف علي بعد أسد قصر النيل الأول بقليل، مستندًا على سور الكوبري يلتقط أنفاسه ويُقلب في هاتفه تحت أنوار مصابيحه المزخرفة، دون أن يحاول الاتصال بأحد. تمشَّى قليلا. مرت السيارات من جانبه فوق الكوبري وكأن شيئًا لا يحدث على بعد أمتار. استجمع قوته وتمشَّى مرة أخرى ناحية الميدان. رأى حركة غير طبيعية، فاقترب بحذر. عند مدخل الميدان بعد مبنى وزارة الخارجية القديم، بدأت معركة أخرى. وقف يراقب من مسافة. لم يستطع وقتها أن يميز قوات الأمن داخل الميدان، حتى حدث ما لم يكن يتوقعه. تراجعت التشكيلات وتقدم الثوار مرة أخرى، كثير منهم كانوا ملتحين. ظن للحظة أن شبابًا من الإخوان قرروا مخالفة قياداتهم والانضمام، ثم تأكد من شكل اللحية المنسدل على الصدر أنهم سلفيون. اندفع الجميع داخل التحرير، واندفع هو أيضًا، فتراجعت قوات الأمن على يمين الميدان إلى شارع قصر العيني في بداية الشيخ ريحان الذي يبدأ بالمبنى الرئيسي للجامعة الأمريكية ويصل إلى وزارة الداخلية.انطلق الخرطوش مصحوبًا بقنابل الغاز المسيل من داخل الشارع، ولم يتبين عليّ مصدرهما. تدافع الثوار بكماماتهم إلى الأمام، وتعالى الطرْق المعتاد على حديد سور الجامعة، وصيحات "الله أكبر الله أكبر". صاح أحدهم إلى جانبه "ما حدش يرمي من ورا أوي علشان الطوب ما يجيش على الخطوط الأمامية بتاعتنا". تعرف علي على صوت أحمد رأفت على الفور، فجذبه من ذراعه. كان ممسكًا بأنبوب مرهم ورفع

البلوفــر فوق فمه وأنفه. وغطى جزءًا من شــعره ابتل من العرق جبهتــه الصغيرة. هز ذراعيه في الهــواء عندما رأى علي كمال، وأعطاه الأنبوبة في يده دون أن يتكلم.

"إيه ده يا ريفو؟".

"دي أنبوبة مرهم فولتارين. إدهنها تحت مناخيرك. مش حتحس بالمسيل. صدقني. جرب".

فعل علي هذا، ثم سمع دوي طلقات الخرطوش يتكرر، وحدثت حالة من الهرج، فتعالت صيحات من الوراء "ما حدش يتحرك".

ووجد نفسه هو ورأفت يصيحان معًا "اثبت... اثبت"، إلى أن أصبح الجو لا يطاق. برودة نوفمبر لم تمنع شعورهما بحرارة الجو نتيجة تكاثر الناس وتأثير الغاز، فتبلل بلوفراهما بالعرق.

"ياللا تيجي عندي شوية؟" سأله رأفت.

"ممكن ونكلم الباقين نتطمن عليهم".

***

ظن علي أن سليم عاد إلى منزله قبل أن يتم إخلاء الميدان. كان سليم بالفعل على وشك المغادرة، عندما وجد سيد وصديقته رباب يتجهان من باب اللوق إلى قهوة المشربية في أول شارع التحرير. بعد حلول الليل بقليل، رأوا الناس يجرون في جميع الاتجاهات من الشوارع الضيقة التي تصل التحرير بمحمد محمود على إيقاع صوت خرطوش منتظم. ولم يتمكنوا من دفع الحساب لأن صاحب

القهوة قرر إغلاقها بسرعة إيثارًا للسلامة، وأرسل عمالها ليُدخِلوا الكراسي المفروشة في الشارع على عجالة. جروا إلى مدخل عمارة وافترشوا الأرض، حتى هدأ صوت الطلقات، فخرج ثلاثتهم بحذر ليروا ما حدث. كان شارع التحرير قد تحول إلى ساحة حرب أخرى، وطالب سيد رباب أن تذهب إلى أي قهوة لتنتظره.

"تعالى إحنا يا سيد نخُش نشوف إيه الأخبار جوه". تسلل الاثنان من خلال زقاق صغير موحل إلى أن وجدا انفسيهما وسط المعركة وقد اشتدت، وتلونت السماء من فوقهما باللون الأحمر من وقع المولوتوفات والشماريخ. شيء بداخل سليم دفعه إلى الخطوط الأمامية دون تفكير، حتى إن سيد رغم تمرسه في الاشتباكات، لم يلحق به.

تعالى صوت شاب، لم يتجاوز الثامنة عشر، يرتدي ثيابًا رثة وشبشبًا مهترئًا في قدميه "المرة دي مش حنسيبهم يخُشوا تاني الميدان... الميدان بتاعنا.. فاهمين؟". جرى الشاب إلى آخرين وأخذوا يُحطمون ما تبقى من الأرصفة بكل قوتهم.

"يالـــلا بينا تاني". قالها الشـــاب، وانضم إليه آخرون، وســـليم معهم إلى أن وصلوا إلى الخط الأول حيث تتســـاقط أحيانًا طلقات الخرطـــوش وتصيب أحيانًا أخرى، فيقـــع بعض من في الخطوط الأمامية. وقع الشـــاب الذي نادى بالهجوم على يمين سليم. تغطّى وجهه بالدم، وجاءت دراجة بخارية عليها اثنان وجهاهما مغطيان بالميكو جيل الأبيض، فبديا لســـليم وكأنهما شـــبحان. نزل الراكب الخلفي وحمل المصاب بسرعة ووضعه بينه وبين السائق وانطلقت

الدراجة البخارية مرة أخرى إلى الخطوط الأولى لنقل المصاب إلى مستشفى ميداني أو مستشفى خارجي.

لم يدرِ سليم كم مر من الوقت وهو ينصهر داخل الكتلة البشرية في كر وفر لا ينتهيان. كم هو سعيد بما يفعل. ليس هناك أي احتياج لتشغيل عقليته الرياضية الآن، ثم إنه كان قبل ذلك ترسًا في ماكينة عملاقة، ولكن عقله الباطن لم يكن راضيًا عن مكانه. كان دائم الإحساس أن هناك شيئًا يفعله غير متسق مع ما يريد. الآن، ليست هناك اختيارات. هو في ساحة معركة يحارب من أجل أن تكون بلده مثل أي من البلاد التي رآها وانبهر بها. ربما لا يحدث ذلك اليوم أو غدًا. ربما يحدث بعد عشرينٍ عامًا. لن يكون موجودًا بالتأكيد... ولكن لماذا هذا الشعور. "أسأقتل الآن؟ لا أدري.... كل ما أعرف هو أنني أقوم بدور الترس مرة أخرى داخل ماكينة مختلفة عن تلك التي كنت أدور فيها قبل ذلك وأنا غير سعيد. ربما يحضر شريف ذات يوم ليعيش هنا. يوم تذوب الفروق بين هنا وإنجلترا. يذهب ليعيش في أرضي التي ورثتها عن أجدادي.. ربما.. وربما لا يحدث وينتهي كل شيء الآن، ولا يُحدث ما نقوم به أي فارق".

استمرت الاشتباكات طوال الليل، وحافظ الثوار على الميدان، فنُصبت الخيم والمستشفى الميداني بزاوية عباد الرحمن، وبدأت أجواء الاعتصام في العودة.

***

في اليوم التالي، قبل أن يسدل الليل أستاره بقليل، مرت مسيرة من تحت منزل أحمد رأفت. وقف ثلاثتهم هو وعلي وسليم في شرفته، ورأو المسيرة تمر في طريقها إلى عمق وسط المدينة.

ارتج الشارع بالهتافات. "بينا؟" سألهما علي. لم يجبه رأفت. كان منهمكًا، وسحبه سليم من ذراعه دون أن يجاوبه

نزل الاثنان سلالم الأدوار السبعة قفزًا. وانصهرا داخل المسيرة في أقل من دقيقة. لم يكن العدد كبيرًا، ولكن هتافاتها هزت أرجاء المكان لسبب لم يفهمه كلاهما "حرية.... حرية... حرية". ثم "يسقط يسقط حكم العسكر... إحنا الشعب الخط ال..." وقبل أن يكملوا "الخط الأحمر". تردد صوت طلقات جديدة متتبعة "ترااا ترااا... ترااا تراااا". صوت صادر من مجموعة من الأسلحة الآلية. رجت أصداء باب اللوق والتحرير. تدافع كل من في المسيرة، ومعهم سليم وعلي. وتدافعت خلفهم قوات ترتدي زيًا بنيًا فوقه واقى من الرصاص وخوذ سوداء كتلك التي قامت بفض الميدان يوم 8 يوليو. وارتفعت هراواتهم في الهواء تسقط على رأس من لم تسعفه قدماه للفرار.

"تعالى... تعالى.. أنا عارف مكان نستخبى فيه". هتف سليم لعلي وهو يجذبه ناحية يمين الشارع إلى نفس المكان الذي اختبأ فيه اليوم السابق. صعدا إلى أسطح البناية القديمة التي غفل بوابها عن غلق بابها. السلالم كانت حالكة الظلام، ولكنهما تمكنا من الصعود مستعينين ببطاريات إضاءة هواتفهما.

السطوح كان خاليًا إلا من بعض الغسيل المنشور. اختبأ كلاهما

خلف سور منخفض، يحاولان مراقبة ما يحدث في الشارع. تعالت الصيحات. صيحات استغاثة مختلفة عن ذي قبل، وكأنه الفزع الأكبر، وتسنى لعلي وسليم رغم الارتفاع أن يريا الجنود وهم يسحبون أجسادًا فاقدة للوعي إلى مدخل ميدان التحرير. رائحة الغاز المسيل انتشرت في الجو حتى إن أعينهما بدأت تحرقهما رغم الارتفاع. وتعالت صيحات "اللـه أكبر" من جانب الجنود وهم يتأهبون لمعاودة الهجوم على من تخلَّف من المتظاهرين في باب اللوق.

"حتى العساكر بتقول اللـه أكبر". لاحظ سليم بسخرية، فأجابه علي بنفس اللهجة الساخرة "وإحنا برضه بنقول اللـه أكبر".

ثم مضيفًا وهو يشنشن ويخرج أنبوبة الفولتارين من جيبه "خد إدهن شوية تحت مناخيرك علشان تعرف تستحمل المسيل".

دهن سليم، ثم نظر تجاه مدخل الميدان، حيث تراكمت أجساد عند شركة سفير للسياحة، وقال لعلي بثقة "دول مقبوض عليهم... مش متصابين".

أراد علي أن يصدق سليم فأكد على كلامه "مش متصابين.." ولكنه عندما نظر مرة أخرى بتمعن، وجد الأجساد لا تتحرك من مكانها، فضرب كفًا بكف غير مصدق "دول ما اتصابوش... دول ماتوا.. الشباب اللي كان معانا في المسيرة... بُص كويس".

"يا أخي لأ.. استحالة. حاكلم رأفت.. هو من عنده عارف كل الأخبار".

أخرج سليم هاتفه من جيبه واتصل بـ رأفت "أيوه أيوه... بتقول إيه؟ المستشفى الميداني كمان؟".

أنهى سليم المكالمة وأبلغ علي ما حدث "المستشفى الميداني اتضرب كمان. دخلوا. ما سابوش حاجة. الدكاترة اتضربوا والمصابيين. رباب كانت هناك واتصابت بخرطوش في رجلها وهيَّه بتجري".

ضرب علي كفًا بكف مرة أخرى وجلس على أرض السطوح غير مصدق وهو يضع رأسه بين يديه.

حاول سليم إخراج علي من ذهوله "دلوقت لازم نلاقي صِرفة نعرف نخرج بيها من هنا يا علي".

"مش عارف أفكر دلوقت". قالها علي، ووقف يمد نظره مرة أخرى تجاه الميدان. بدأ الليل في الحلول، وتكومت أجساد القتلى وسط نفايات تراكمت على ناصية التحرير، وبدأت النيران ترتفع في السماء إثر حرق الخيام.

"إنت متخيَّل يا سليم، الجثث دي كانت بتهتف حوالينا من ثوانٍ. كانت كلها حياة. ما عملوش حاجة غير إنهم هتفوا للحرية.

"همه دلوقت أحرار". أجابه سليم بسخرية سوداء من الوضع لم ترق لعلي.

"تفتكر يا سليم إحنا بنعمل كل ده ليه؟". سأله علي فجأة، وأضاف "بنعرض حياتنا للخطر ليه في وسط ناس مش فارق معاها".

أكمل سليم نفس سخريته السوداء "يمكن علشان عايزين نموت...

بس هو ده السبب. لكن ما تقلقش مش حنموت دلوقت. مش زي إيزي قريب سيد.. اللي زينا بيموتوا من سرطان أو من حادثة عربية". ثم نظر سليم إلى علي بتمعنٍ وسأله "نفسك ترجع باريس؟".

أجابه "لأ لسه وإنت لندن؟".

قطب سليم جبينه "لأ" ثم نظر إليه مرة أخرى وسأله بكل تلقائية "وإجلال؟".

"إجلال إيه يا سليم؟".

"إيه اللي خلاك تبعت لها تجيلك تاني بعد ما عرفت إنها كانت معايا. أول مرة ما كنتش تعرف، لكن تاني مرة كنت عرفت".

لم يصدق علي لثوان أن سليم على دراية بالموضوع. أدرك أنها لم تنقطع عن سليم أبدًا، وأنها حكت له كل شيء. ولكنه وبفضل الموقف من حولهما، تماسك، وسأله "هيه لسه معاك؟ مش إنت مع أمينة؟".

هز سليم رأسه موافقًا على مضض، وتحرك علي تجاه السلالم دون أن ينتظر أكثر من ذلك "أنا نازل لو عايز تيجي معايا، حاحاول أوصل لبيت أحمد رأفت".

***

انتشرت صور جثث المتظاهرين ملقاة وسط النفايات على وسائل التواصل الاجتماعي، فجذبت الآلاف من الناس من جميع أنحاء مصر. وتواصلت الإمدادات من أدوية وأجهزة طبية على المستشفيات الميدانية، وتحول الرأي العام فبدأ الناس يتعاطفون مع

من في الميدان، ولم يعد هناك شارع حول ميدان التحرير ليست به معركة بين قوات الشرطة العسكرية والأمن المركزي من ناحية، والثوار من ناحية أخرى.

تمدد علي على أريكة داخل شقة أحمد رأفت، وتمدد سليم على أريكة أخرى دون أن يتحدثا. تمعن كل منهما في النظر إلى هاتفه، وجلس رأفت على مكتب صغير يكتب تقريره عن الأحداث لجريدته.

"أنا نازل تاني". قالها سليم ووقف في وضع استعداد، ثم حيَّاهم بيده واتجه إلى خارج الشقة.

توافد باندا الصحراء، ورباب، وسيد. جلسوا جميعًا يحاولون فهم ما حدث. سرح علي بعيدًا بأفكاره. باريس.. إجلال.. آن والجيران في شارع چيربير، وشلة المصريين هناك..".

انتفض واقفًا وأرسل رسالة لسليم "إنت فين؟".

أجابه باختصار "يوسف الجندي".

أبلغ علي الآخرين أنه ذاهب ليلحق بسليم. خرج من شارع طلعت حرب إلى الميدان. كان الشارع أكثر ظلامًا من ذي قبل. استدار يمينًا إلى شارع التحرير. أجواء المعركة غلبت على كل شيء. اشتد طرق الحديد كما لم يسمع علي من قبل، وانتابه إحساس المعركة القبائلية أشد من أي وقت مضى. دويّ الرصاص أيضًا كان أكثر انتظامًا من قبل. تقدم إلى شارع يوسف الجندي بعد أن رفع الكوفية فوق فمه وأنفه، ودقات قلبه المتسارع تكاد أن تحدث دويًا أقوى من الأصوات الخارجية. شارع يوسف الجندي الضيق

كان أكثر ظلمة من كل الشوارع المحيطة. أشباح سوداء انتشرت في أرجاء المكان عند سور المبنى اليوناني للجامعة الأمريكية... لم يستطع علي أن يتبين الثوار من الجنود، إلي أن سقط شخص أمامه، وهرع أشخاص آخرون من الخلف فوق دراجة وحملوه. تراقصت الأشباح أمامه عند تقاطع يوسف الجندي ومحمد محمود. ازدادت سرعة الطلقات من السلاح الآلي. انحنى علي ووضع يديه فوق رأسه وهو يهرع إلى شارع التحرير مرة أخرى. عندما وقف يلتقط أنفاسه وجد الدراجات البخارية تتسارع إلى داخل الشارع. صاح أحدهم "فيه واحد اتقتل جوه.. لأ اتنين". وأجابه آخر قادم من خلف علي "أكتر بكتير من اللي إنت متخيَّله". خرجت دراجة عليها سائقها وآخر في الخلف، وسطهما شاب مخضب في دمائه فاقد للوعي. أدار علي وجهه بطريقة لا إرادية. توقع أن يجد سليم خارجًا في أي لحظة محمولاً فوق إحدى هذه الدراجات. خرج سليم بالفعل، وكان يجري في اتجاه علي، وهو يخفض النصف الأعلى من جسده.

اتخذا جانبًا وهما يتصببان عرقًا، وكسر علي الصمت وهو يمسح العرق من فوق جبينه "مش معقول اللي بيحصل جوه ده. وبعدين آخرتها؟".

"ولا حاجة لازم يرجعوا عند وزارتهم. دلوقت أهم حاجة تأمين الميدان علشان ما يُقعش تاني في إيدهم".

أضاف علي "همه دلوقت بيحاولوا يقسمونا اتنين علشان يعرفوا يخشوا التحرير بسهولة".

"ياللا بينا " أجابه سليم مختصرًا الحديث ومشيرًا مرة أخرى إلي الشارع الذي يحمل اسم رئيس جمهورية زفتى.

أخذ علي نفسًا عميقًا وتشهّد في سره، ثم أجابه بصوت عالٍ "ياللا بينا، بس ياريت تاخد بالك، وما فيش داعي للاندفاع وإنت فاتح صدرك. المرة دي مش تهريج".

"علي... سليم.." هتف سيد بصوت مفعم بالأدرينالين من خلفهما. كان يجري مندفعًا إلى داخل الشارع وفي يده زجاجة في آخرها فتيل، وأضاف بنفس البهجة "ياللا نخش نحُط عليهم..." وهتف بحرقة "يسقط يسقط حكم العسكر... إحنا الشعب الخط الأحمر".

اندفع ثلاثتهم إلى داخل الشارع مرة أخرى. كانت المعركة محتدمة. تقدم سيد إلى الأمام حتى أصبحت المسافة بينه وبين الجنود شبه منعدمة، وأشعل الفتيل بسرعة، ثم قذف المولوتوف في الهواء، فنشبت النيران مكونة حاجزًا بينهم، وردت القوات بسيل من الطلقات، أخذت تدوّي بشدة مصدرة صدى صوتٍ غير محتمل، فتراجع الثوار. سليم كاد يرتطم بجسد لم يتبينه في الظلام. سحبه بصعوبة إلى الخارج بضعة أمتار، ثم حدق في وجهه عندما وصل إلى شارع التحرير مرة أخرى. اعتقد في البداية أنه سيد، إلا أن سيد ظهر وراءه ومعه علي. سُجّي الشاب المصاب في دمه. بدت رأسه وكأنها تفجّرت. أمسك سيد بيده جاسًا نبضه. كان الشاب لا يتعدّى العشرين من عمره، ذا وجه مستدير، والتفّت حول رقبته كوفية منقوش عليها "كُن مع الثورة". وضع سيد يده على قلب الفتى المصاب، ثم هز رأسه وهو يتبادل النظرات مع سليم وعلي، وهو

يربت على وجه الشاب الذي زاغ بصره لأعلى، ولم يتفوه ثلاثتهم بكلمة.

***

استند سليم على سور كوبرى قصر النيل بيد وأسند رأسه بيده الأخرى وهو يسعل بشدة بينما جلس علي فوق الرصيف وأسند رأسه بين يديه، ثم رجع بظهره للوراء قليلًا وأخرج علبة سجائره من جيبه وأخرج منها سيجارة بصعوبة، ثم رفعها إلى سليم دون أن يدير وجهه وسأله بصوت متهدِّج "تاخد سيجارة؟".

"لا مش قادر" أجابه سليم بعد أن أدار وجهه تجاه علي وسأله "وبعدين يا علي؟ آخرة ده كله إيه؟".

أجابه علي بنبرة أظهرت أنه يشاركه حواراته "ما شكلهاش ليها آخر. بس خلاص إحنا فيها ولازم نكمل".

"ما معناش قوة السلاح... للأسف الدولة المدنية لا يمكن تتبنى من غير قوة سلاح، والأطراف الأخرى اللي معاها السلاح مش عايزة دولة مدنية".

قالها سليم عاقدًا حاجبيه وسارحًا بنظره مدة أخرى في مياه النهر الحالكة.

"لكن مش ده قصدي. خليني أسالك السؤال بصيغة مختلفة - إحنا.. أنا وإنت بنعمل كل ده ليه؟ يعني كان ممكن نكون قاعدين ورا مكاتبنا بنعمل فلوس، وبنروح بيوتنا لمراتاتنا وعيالنا آخر النهار وخلاص...

إحنا اتأهلنا طول حياتنا لكده، واتحدف علينا لكده".

وقف علي متحاملًا على نفسه وحدج سليم بنظرة فاهمة "إنت عارف كويس إن ده خلاص عدّى. كل واحد فينا أخد فرصته إنه يعيش الحياة دي وما عرفناش".

"ما عرفناش والا فشلنا؟" سأله سليم ساخرًا.

"لأ ما عرفناش.. كنا عايزين نشتغل على نضيف والظروف كلها ماشية في اتجاه تاني" أجابه علي محاولًا إقناع نفسه بما يقوله، فسارعه سليم "لكن فيه ناس تانية كتير قدرت تتجاوز كل ده ونجحوا وسيطروا على الظروف لصالحهم".

"لو كان ده حصل ما كناش حنكون هنا النهارده بنحارب علشان تغيير بحق وحقيقي".

ضحك سليم لأول مرة، ضحكة بدت لعلي أقرب إلى صرخة مكتومة " تفتكر يا علي إن فعلًا فيه أي أمل إن أي تغيير يحصل من وجودنا هنا النهارده وتعريضنا حياتنا للخطر؟".

"الدعوة لبكرة على مليونية لتكوين مجلس رئاسي مدني من الميدان.. إنت فاكر من تلت أيام كنا قليلين إزاي؟ الميدان عمال يتملي وبكره حنعلن عن مجلس رئاسي متكون من البرادعي وحمدين وأبو الفتوح وبعدين نِروح بيتنا ونشوف حالنا.. عندك حق. كفاية كده..".

بدا سليم سارحًا مرة أخرى وهو يقول لعلي دون أن ينظر إليه: "إجلال أذكى واحدة فينا. فهمت الموضوع من بدري وعرفت إزاي تتعامل مع السيستم لصالحها".

تجاهل علي ذكر سليم لإجلال وأجابه نصف مازح:

"ما تنساش إن إحنا عايشين تاريخ بيتعمل".

لم يمهله مرة أخرى وسارعه "بكره التاريخ ده يتمسح" ولكنه عندما رأى آثار الامتعاض تغلُب على وجه علي كمال، أضاف وهو يتحرك في اتجاه الميدان مرة أخرى "بلاش نسبق الأحداث. تعالى نشوف حيحصل إيه بكرة".

***

نظر علي في المرأة الخلفية لسيارته الميتسوبيشي اللانسر، فوجد نفس السيارة البيضاء التي رآها تتبعه فوق كوبري قصر النيل. رغم ظلام شارع الجزيرة فإنه استطاع أن يميز جيدًا رجلا بشارب يشير على سيارته وعندما أدرك الرجل أن علي استطاع أن يراه، تبادل الابتسامات مع رجل آخر جلس بجانبه داخل السيارة النيسان الصاني الفضية، وكأنه يعطي رسالة واضحة أنه لا يعبأ بأن يراه. كانت الساعة تجاوزت الثانية صباحًا، وقرر علي أن يترك الميدان ومحمد محمود ليحصل على قسط من النوم بعيدًا عن الغاز المسيل، فقاد سيارته في الشوارع الخالية من الكورنيش أمام فندق الإنتركونتيننتال ليذهب إلى شقته في العجوزة.

زاد من سرعته، فزادت السيارة وراءه من سرعتها. سلك يسارًا من شارع حسن صبري إلى شارع ابن زنكي، فتتبّعته السيارة. نظر مرة أخرى في المرآة الخلفية، فوجد الرجلين يتبادلان ابتسامات تدل أنهما يعلمان جيدًا ما يفعلان. أدار عجلة القيادة بغتة يمينًا في عكس اتجاه شارع العزيز عثمان المؤدي إلى شارع 26 يوليو،

ودخل بسيارته فجأة داخل جراج أول عمارة على اليمين. خرج من سيارته سريعًا ونادى بقوة "يا محمد يا محمد".

جاءه سائس الجراج متثاقلا، عيناه نصف مغمضتين "إيه ده علي بك؟ خير؟ أُأمر".

"فيه عربية حتلاقيها واقفة قدام الجراج قاطراني من وسط البلد. اطلع بُص عليها بسرعة".

خرج السائس مسرعًا وعاد بعد دقيقتين "مِشيوا يا علي بك. وِقفتِ لهم شوية، فمِشيوا. إيه حكايتهم؟".

أجابه علي باختصار وهو يعطيه مفتاح السيارة "ما اعرفش. أنا طالع لوالدي. خُد المفتاح".

استقبل أحمد كمال ابنه بدهشة "فيه حاجة؟ تعالى أدخل".

دخل علي وارتمى على أريكة داخل غرفة المعيشة. كانت زوجة الأب قد نامت منذ قليل، إلا أن أحمد كمال بدا متيقظًا. اتخذ مجلسًا على كرسيه المعتاد، وسأل ابنه بهدوء "قُل لي... فيه إيه؟".

أجابه علي وهو يمسح العرق من فوق جبينه بتردد "كان فيه عربية ماشية ورايا من وسط البلد فَجيت على هنا. لما شافوا محمد مِشيوا، فقررت أطلع عندك".

القلق على وجه الأب ظهر من خلال ازدياد بروز وجهه النحيل وتجاعيده. وسأل علي مستنكرًا "إنت برضه كنت في محمد محمود؟".

أجابه علي بصوت يأتي من بعيد "أيوه كنت هناك..".

"وبعدين آخرتها إيه؟".

"في انتظار بكره.. حنعلن مجلس رئاسي من الميدان".

أجابه أحمد كمال متحديًا "ده مش حيحصل... عامة لو عرفتوا تعملوا كده يبقى برافو... لكن أنا باقولك إن ده مش حيحصل".

وقف علي منتصبًا رغم إرهاقه "ليه على طول متأكد إن إحنا مش حنقدر؟ أنا باقولك إن إحنا المرة دي حنقدر".

نظر الأب إلى ابنه نظرة ذات معنى "إنت عارف... أنا مش عايزك تفوق من اللي إنت فيه، تلاقي فيه سنين من عمرك راحت على ولا حاجة".

"بس..".

"اسمعني المرة دي للآخر لو سمحت". وبتأثر، أضاف "الواحد بيبقى عايز ابنه أحسن منه... صح؟" اعتدل الأب في جلسته وهو يقول الجملة الأخيرة.

أجابه علي بتحدٍّ "أولوياتنا في الحياة للأسف مختلفة.. أنا شايف إن أي حاجة في البلد دي مش حينفع تتعمل غير لما نبني على نضيف. لازم نهد ونبني من أول وجديد، وإنت يا بابا واقعي زيادة.. بتبُص تحت رجليك بس".

"مش واقعي زيادة ولا حاجة، لكن عارف حاجات وشوفت حاجات يمكن إنت ما شوفتهاش". أجابه الأب بتأثر، ثم أضاف "الموضوع أكبر مننا كلنا يا علي.. فيه خطة مسبقة لتقسيم المنطقة، وإحنا جزء من الخطة دي.. اتفرج على اللي بيحصل في ليبيا وسوريا. قلت لك قبل كده كا تخليش حد يستغلك... حتى الاندفاع اللي إنت فيه ما بقاش مناسب لسنك. الوقت جه إنك تركز في

حاجات تانية. حاول تحسّن حياتك الأول قبل ما تحاول في حاجة مستحيلة".

أجابه علي بنفس التحدي "ولو فعلا فيه خطة لتقسيم البلد يبقى حتنجح عارف ليه؟ علشان الحكام فاسدين، ضعاف، ومش عادلين من سنين.. هما اللي سمحوا إن ده يحصل بضعفهم".

أجابه الأب وهو ينظر من نافذة الحجرة بنفس التأثر "ما حدش حيعرف يحكم البلد دي تاني".

"وقف علي وربت على كتف أبيه لأول مرة منذ وقت طويل، وقال له "أنا حاكمل سكتي. تصبح على خير".

استدار الأب، فبدا لعلي على ضوء لمبة غرفة المعيشة الخافت، قد زاد عمره عشرة سنوات منذ آخر مرة رآه. قال له أحمد كمال بنفس الصوت الهادئ "ربنا معاك". ثم أدار وجهه مرة أخرى تجاه النافذة. ولكن علي لم يسمعه يقولها.

***

انقضى يوم الثلاثاء 22 نوفمبر دون أن يتكون مجلس رئاسي مدني. لم يحضر أحد ممن كانوا مرشحين للمجلس الرئاسي رغم امتلاء الميدان عن بكرة أبيه، وتسليط الأضواء على التحرير من العالم كله مرة أخرى. تضاربت الآراء عن أسباب عدم ظهور البرادعي وحمدين في هذا اليوم، وتردد أن أوباما اتصل بطنطاوي وطالبه بسرعة تسليم السلطة لنظام مدني منتخب، وألقى المشير خطابًا يؤكد أن الانتخابات الرئاسية ستحدث في يونيه، وأن الانتخابات البرلمانية ستجري في

موعدها، وأعلن استقالة حكومة شرف. تأججت الاشتباكات بعنف، وملأ الغاز أركان الميدان أكثر من أي وقت مضى.

على الأريكة القديمة المتقطعة في شقة أحمد رأفت بشارع هدى شعراوي، انتفض جسد أمينة عدة مرات. بدأت عيناها تزوغان، وتغطى وجهها بعرَق بارد، فيما أخذت تسعل دون توقف.

التفت حولها المجموعة، وأخذ سليم يجوب حجرة معيشة رأفت ذهابًا وإيابًا وهو يصيح "ما فيش حاجة نقدر نعملها علشان نوقف التشنجات دي؟".

أجابه رأفت وهو يهز جسده الصغير الممتلئ "فيه دكتور من المستشفى الميداني بتاعة الكنيسة الإنجيلية على وصول دلوقت. اصبر.. حتتلحق دلوقت..".

"غاز أعصاب ولاد الكلب..." صاح علي غير مصدق وهو يضرب كفًا بكف.

دخل عليهم طبيب شاب بصحبة سيد ورباب واتجه إلى أمينة مباشرة. بدأ بقياس نبضها، ثم هز رأسه علامة على أنه فهم ما تعاني منه المريضة، وساد صمت في الحجرة. وجه الطبيب حديث التخرج النحيل ونظراته التائهة لم توح بالثقة لأي من الحضور. ظهر في البداية أشد قلقًا منهم إلا أنه غالب قلقه سريعًا وبدأ يعطي توجيهاته للجميع دون إبطاء "بعد إذنكم.. أنا حاديلها حقنة أنتي دوت دلوقت، وبعدها البنات حياخدوها جوّه الحمام ويحموها بمية وصابون. يا ريت هدومها اللي كانت لابساها وقت ما اتعرضت للغاز تتحرق أو تترمي".

وعليه قام الطبيب بإخراج حقنة من حقيبة سوداء صغيرة معه وكسر أمبولة ثم غرس الإبرة في الأمبولة قبل أن يغرسها في وريد أمينة بعد أن أمسك سليم وعلي ذراعيها بقوة، وبدأت تهدأ قليلا، ثم سحبتها رباب وشابة أخرى صغيرة مرتدية الحجاب جاءت بصحبة رباب من الميدان لتساعدها.

استند سليم بيديه على سور بلكونة أحمد رأفت، واستند علي بظهره على حائط البلكونة. همَّ كلاهما بإشعال سيجارة، وبدا عليهما إعياء غير مسبوق. عيناهما امتلأت بدموع الغاز وأخذا يشنشنان

"حتبقى كويسة ما تقلقش".

"مش قلقان... لكن إنت مصدق اللي بيحصل. غاز الأعصاب ده اتسرب من فتحات المترو في الميدان. إيه اللي فاضل؟".

"إن الطيارات تيجي تنسفنا من فوق وآر بي جيهات وكده". أجابه علي بصعوبة.

"خلاص كده... الموضوع خِلص". قالها سليم وبدا عليه يأس لم يره علي فيه من قبل، رغم ابتسامته الساخرة التي لم تختفِ من على وجهه، وأضاف "باقولك إيه. أنا بكره مسافر. حاطلع سينا أسبوع لوحدي. محتاج أقضي وقت لوحدي تماما".

"لكن الميدان لسه حيملى أكتر. الموضوع ما خلصش".

"لأ صدقني خلص يا علي. إنت بني آدم كويس. ما تموتش علشان حاجة خسرانة".

"والثورة مين حيكملها يا عم إنت؟ والناس اللي ماتت؟".

"بتتكلم على الانقلابات؟ حصل انتفاضة في الـ 18 يومًا وبعدها حصل انقلاب. دلوقت إحنا حاولنا نثور على الانقلاب، لكن الموضوع أقوى مننا. قوة السلاح بتتكلم".

"طيب ريَّح شوية وبعدين نتكلم".

"قراري اتاخد خلاص. الموضوع منتهٍ".

***

بعد ظهيرة اليوم التالي توغل علي داخل محمد محمود متلفِّحًا بكوفية يغطي بها أنفه، وتقدم حتى بلغ الصفوف الأمامية. الشارع لم يتبق منه شيء كما كان. ارتدى الجميع الكمامات وتسارعت حركة الدراجات البخارية وضجيج كلاكساتها تحمل المصابين من عند الخطوط الأكثر تقدمًا إلى الخلف من خلال كوريدور مكون من حواجز بشرية على الجانبين. انتشر أطباء ميدانيون ببلاطيهم البيضاء عند الخطوط الأمامية، وشيوخ أزهريون. تعالت صيحات اعتاد عليها علي خلال الأيام الماضية "وسّع الطريق.." لمح من مسافة فوق الحاجز علم محمد محمود الكبير الذي تتوسطه علامة الهلال مع الصليب بالأزرق، ووقف عند مدخل مبنى مكتبة الجامعة الأمريكية شاب غطى وجهه يحمل يافطة مكتوبًا عليها "في يوم من الأيام حنحكي لولادنا عن أمجادنا".

تعالت هتافات "اللـه أكبر" مع تسارع الطرق على الحديد. تساءل علي "ماذا كنت أفعل قبل أن أدخل هذا الشارع بأيام؟ أين كنت؟ كيف كانت حياتي؟ لا أتذكر حياتي دون الطرق علي الحديد

وطلقات الخرطوش ورائحة الغاز الممزوجة بالبطاطا المشوية. حتى هذا الرجل العجيب الذي يبيع أكياس غزل البنات الوردية عند مدخل الشارع، وكأنه موجود في حياتي منذ البداية. لا شيء يتغير إلا المباني من حولي التي أصبحت مغطاة بالسواد من أثر الحرائق، وشارع جامعتي الذي فقد ملامحه، وأنا أفضّله هكذا على الوقت الذي كنت فيه أتمشَّى من مبنى للآخر ممسكًا بورقي وكتبي.

أكمل تقدمه وهو يكاد يعجز عن التنفس رغم مرهم الفولتارين الذي وضعه تحت أنفه، وسمع من حوله أحدهم يقول للآخر "تعالى نولَّع في.." ثم انقطع الصوت واستُبدل بصوت الرصاص، ورأى من في الخط الأول يتراجعون، فأدرك أن عليه الجري مجددًا، ثم تجمع من كان في الخطوط الأولى عند المدخل الضيق لشارع الفلكي الجانبي، وانضم إليهم علي عندما عاودوا الهجوم، فانتابه الشعور القبائلي مجددًا وهو يلتقط حجرًا تلو الآخر ويقذف مع الآخرين تجاه القوات المتمركزة في بداية الشارع.

توقفت المعركة مع أذان العصر، فأقام أحدهم الصلاة، وفكر علي للحظة أن يتيمم وينضم، ثم حسم أمره ووقف في حراسة المصلين ومن أمامهم شيخ أزهري صغير في السن وقف يؤمهم، وارتكز أناس آخرون على حوائط جانبي الطريق الذي تعرَّى تمامًا من الإسفلت، وحل محل الأسفلت ركام فقط.

"بيقولوا فيه هدنة". قال أحدهم: شاب صغير يرتدي نظارة سباحة مصنوعة يدويًا فوق عينيه.

"مـــا عنديش فكرة واللـه. يمكن". أجابه علي وهو يحاول تجنب

الحديث بعد أن أصبح تنفسه بالغ الصعوبة، ومد بصره إلي يمينه، فوجد طفلا سمينًا يرفع نظارة السباحة على جبينه ويصلي، فتعجب وبدأ كل شيء من حوله يظهر له وكأنه غير حقيقي. حتى الأصوات بدأت تخفت، وكأنه في عمق بحر، وسمع من بُعد هتافات فرحة "مِشيوا... مِشيوا.."، وفجأة تدافعت الخطوط الأولى للوراء، وتعالت صيحات "هجوم... هجوم.." وهمّ أن يستدير ويرجع إلى الميدان، فوجد سليم إلى جانبه بابتسامته الساخرة يشير إلى الميدان. خُيل له أنه سأله عما يفعل هنا، ولكنه لم يجبه، ولم ير علي شيئًا بعد ذلك.

عندما أفاق كان ممدَّدًا على أريكة غرفة معيشة أحمد رأفت، والتف الآخرون حوله يهوُّون عليه، ثم مدت له أمينة كوبًا من الماء، فشربه ودخل في سبات عميق. وتبدلت غرفة معيشة أحمد رأفت المتهتكة بمكانٍ آخر غلب عليه لون أزرق سماوي وأكياس غزل بنات وردية اللوّن تطير في أرجائه، ووجه عمه يبتسم له حينًا ثم يختفي، فيجد نفسه جالسًا على الدكة المقابلة لكنيسة سانت لامبير يحدق سعيدًا بشجرة الكستناء.

***

كم هي جميلة سيناء بجبالها المتدرجة الألوان. مع كل منحنى يظهر لي شيء جديد. جِمال تمر، وبعض النخيل المتناثر ومن حوله الأعراب يرعون أغنامهم. لماذا أضعت حياتي بعيدًا عن كل هذا الجمال؟ وهذه السماء كم هي صافية. منذ بضع ساعات فقط لم أكن أراها، والآن كل شيء واضح لأول مرة. كما قضيت جزءًا

من حياتي في حلبة رأس المال أتصارع من أجل أوراق، ثم حاولت أن أغير الأشياء بطريقة أخرى، فقضيت جزءًا آخر أعرِّض حياتي للخطر دون داع... لا، لا بد أن هناك داعيًا... ربما لن يظهر الآن. كنت حادًا في كلامي مع علي ومُحبطًا أيضًا. سأذهب إلى هذا المخيم في نويبع، أقضي أيامًا وحدي، أضع فيها النقاط على الحروف، وأحاول أن أعرف ماذا أريد من هذا البلد، وماذا أريد له وماذا أريد من علاقتي مع أمينة، وماذا أريد أن أفعل الفترة القادمة؟ ربما أذهب وأعيش في الأرض حياة بسيطة، ويأتي شريف ليراني في إجازاته، فأزرع فيه حب الأرض. تلك الأرض التي هي منبع كل شيء. التي لم نلتفت إليها إلا عندما رأينا وجودنا مهددًا.

فكر سليم في شريف أكثر من أي وقت مضى. الطريق كان خاليًا والشمس مرتفعة في السماء وكأنها ترحب به في هذه الأرض. ضغط بقدمه أكثر فوق دواسة البنزين. "أريد أن ألحق بالبحر، وقبل الظلام أرتمي فيه لأسرح بأفكاري بعيدًا. سيغسلني ماؤه المالح من شياطين أفكاري ومن كل الغاز المسيل الذي تنفسته في الأيام الماضية، وسيهديني لما أريد". تراءى لسليم البحر الأحمر بلونه الأزرق الصافي، وشعبه المرجانية وأمواجه الرقيقة، فلم ير مقطورة آتية بكل سرعتها على المنحنى المقابل له. رآها متأخرًا وأدار عجلة القيادة بسرعة إلى اليمين. انقلبت السيارة بضع مرات قبل أن تستقر على سقفها فوق الرمال.

التف بعض الأعراب حول سليم. ارتسمت على شفتيه نفس الابتسامة الساخرة التي رآه بها عليّ آخر مرة في منزل أحمد

رأفت. وسال الدم من فمه. وضع أحد الأعراب الأكبر سنًا يده فوق قلب سليم، ثم على معصمه جاسًا نبضه، وأبلغ اثنين آخرين أصغر عمرًا وقفا بالغُطرات فوق رأسيهما وفي يدهما زجاجات من المياه على وشك أن يرشَّاها على وجه سليم "أمر اللـه". ثم أخرج محفظة سليم من جيبه وتفحصَّ بطاقته وأبلغهما "كلموا المستشفى والنقطة. لازم ييجوا يستلموا... أمر اللـه.... شاب لِسه".

النـهايـة

المؤلف في سطور

يحيى الجمَّال

- مواليد 1973، القاهرة.
- حاصل على بكالوريوس دراسات الشرق الأوسط (العلوم السياسية)، الجامعة الأمريكية 1995. وماجستير في إدارة الأعمال من مدرسة ماستريخت للإدارة عام 2000.
- كتب العديد من المقالات في جريدتي الدستور، والتحرير.

"ما عنديش فكرة واللـه. يمكن". أجابه علي وهو
يحاول تجنب الحديث بعد أن أصبح تنفسه بالغ الصعوبة،
ومد بصره إلي يمينه، فوجد طفلا سمينًا يرفع نظارة السباحة على جبينه
ويصلي، فتعجب وبدأ كل شيء من حوله يظهر له وكأنه غير حقيقي. حتى
الأصوات بدأت تخفت، وكأنه في عمق بحر، وسمع من بُعد هتافات فرحة
"مِشيوا... مِشيوا".. وفجأة تدافعت الخطوط الأولى للوراء، وتعالت
صيحات "هجوم... هجوم".. وهمّ أن يستدير ويرجع إلى الميدان،
فوجد سليم إلى جانبه بابتسامته الساخرة يشير إلى الميدان.
خُيل له أنه سأله عما يفعل هنا، ولكنه لم يجبه،
ولم ير علي شيئًا بعد ذلك.



دار العين للنشر
Elain Publishing House

9 789774 903335